



٨٠ عام

حطّين صلاح الدّين والعَمَل العَرَبِيّ الموحّد

وقائع الندوة التي أقيمتها بالقاهرة في يونيو ١٩٨٧ ، اللجنة المصرية للتضامن
بالاشتراك مع مركز الدراسات العربية بلندن وشارك فيها فضيلة الإمام الأكبر شيخ
الجامع الأزهر وقيادته البابا شنودة و١٦ من المؤرخين والمفكرين المصريين والعرب
والأجانب

دار الشروق

مكتبة
الاسكندرية

0004443



Bibliotheca Alexandrina

٨٠ عام
حديثين صالح الدين
والعقل العربي الموحّد

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسـ . هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

يوكيا : شروق - توكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٧١٣

يوكيا : دالشروق - توكس : SHOHOK 20175 LE

٨٠ عام

حظيّن صلاح الدّين والعقل العربيّ الموحّد

وقائع الندوة التي أقيمتها بالقاهرة في يونيو ١٩٨٧ ، اللجنة المصرية للتضامن
بالاشتراك مع مركز الدراسات العربية بلندن وشارك فيها فضيلة الإمام الأكبر شيخ
الجامع الأزهر وقلادة البابا شنودة و١٦ من المؤرخين والمفكرين المصريين والعرب
والأجانب .



اللجنة المصرية للتضامن
الانتعوب الإفريقية الإليبيوية

دار الشروق

محتويات الكتاب

القسم الأول : كلمات الافتتاح

- ذكرى حطين وضرورة العمل العربي الموحد
- كلمة الأستاذ أحمد حمروش رئيس اللجنة المصرية
- للتضامن في افتتاح الندوة ١١
- كلمة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ١٧
- كلمة قداسة البابا شنودة بابا الإسكندرية
- وبطريك الكرازة المرقسية ٢٣
- حتى يسود السلام لابد له من قوة تحميه
- كلمة الدكتور سيد طنطاوى مفتي الديار المصرية ٣٣
- وحدة الوطن تعلو على وحدة العنصر
- كلمة الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى رئيس منظمة
- تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية ٤٣
- كلمة الدكتور عصمت عبد المجيد نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية . ٤٩
- معركة حطين في تاريخ صراعنا المستمر ضد الأطماع
- كلمة الأستاذ عبد المجيد فريد رئيس مركز الدراسات العربية بلندن ٥٣

القسم الثانى : معركة حطين

- الحملات الصليبية - تصورات مختلفة
- بقلم المؤرخ البريطانى مونتجمرى وات ٦٣
- صلاح الدين : معركة حطين والاستيلاء على القدس (وجهة نظر)
- بقلم البروفيسور ديفيد جاكسون الأستاذ بجامعة سانت أندروز ٨٥

- صلاح الدين : تطور أسطورة غربية
بقلم الدكتور كارول هيلنبراند الأستاذ بجامعة أدنبرة ٩٥
- ملامح خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير القدس
بحث مقدم من اتحاد المؤرخين العرب (بغداد) ١١١
- معركة حطين : الاطار والنتائج
الدكتور صفي الدين أبو الغز رئيس معهد البحوث العربية ١٢٩
- التجربة الصليبية في المنظور المعاصر للصراع العربي الإسرائيلي
الدكتور قاسم عبده قاسم (مصر) ١٣٧
- أسباب الانتصار في معركة حطين
حسين مطهر (اليمن) ١٥٩

القسم الثالث : حطين ودروس المستقبل

- حوار حول المستقبل العربي في ذكرى حطين وصلاح الدين
الأستاذ محمد حسنين هيكل (مصر) ١٦٧
- يؤر الاستنزاف في الوطن العربي وأسباب العجز عن مواجهتها
الأستاذ منيح الصلح (لبنان) ١٨١
- هذه هي الصعوبات التي تعوق العمل العربي كما أراها
الأستاذ عبد الله أحمد حسن (السودان) ١٨٧
- تجربة العمل العربي الموحد في ٦ أكتوبر ، كيف نستعيدھا
في الأوضاع الراهنة
الدكتور محمد حسن الزيات (مصر) ٢٠١
- اختراق الأمن القومي العربي نظرة معاصرة
الأستاذ عصام عيد علي (العراق) ٢٠٩
- الغزوة التي واجهها صلاح الدين تتكرر اليوم بشكل أشرس
الأستاذ عبد الوهاب الزنتاني (ليبيا) ٢١٥

- التنمية في مواجهة التخلف هي الحل
الدكتور محمد خلف الله أحمد (مصر) ٢١٩
- * * *
- بيان عن الندوة (٨٠٠ عام حطين والعمل العربي الموحد) ٢٢٣

القسم الأول

كلمات الافتتاح

ذَكَرَى حِطَّين

وَضَرُورَةُ الْعَمَلِ الْعَرَبِيِّ الْمَوْحَّدِ

كَلِمَةُ الْأَسْتَاذِ أَحْمَدَ حَمْرُوشِ
رئيس اللجنة المصرية لقضايا الشعوب الأفريقية الآسيوية

فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر .
قلاسة البابا شنودة بطريرك الأقباط الأرثوذكس .
السيدات والسادة .

لا أستطيع أن أخفي ما أشعر به في أعماق صدرى من رهبة أمام هذه اللوحة
الوطنية والقومية التي أشاهدها اليوم تتجسد في هذه القاعة التي تصادف أنها
تحمل اسم البطل الذي نجتمع اليوم حول سيرته وبطولته ودوره في التاريخ .
لا أستطيع أن أجد تعبيراً عن أصالة أمتنا العربية خيراً من هذا التعبير الذي
يقدمه وجودكم وتفضلكم بالحضور والمساهمة في هذه الندوة التي نحتفل فيها
بذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين .

لا أستطيع أن أمنع طموحا يملك على نفسى ، لربط الماضى بالحاضر
والمستقبل ، خلال هذا اللقاء الذى يضم قما دينية وفكرية وثقافية .. حتى يزداد
في قلوبنا اليقين بأن العمل العربى الموحد هو طريق التحرر والتقدم .

فضيلة الإمام الأكبر .

قلاسة البابا .

إن وجودكم اليوم معنا في هذه القاعة هو تشریف لنا نحن أعضاء اللجنة
المصرية للتضامن الذين نحمل في قلوبنا هدفا يملك علينا كل مشاعرنا ، ويحرك
كل خطواتنا ... وهو السعى والعمل من أجل الوحدة الوطنية والتضامن
القومى .

إن وجود شيخ الأزهر وطريرك الأقباط في أية مناسبة تقدم لنا جميعا رمزا

رائعا لوحدتنا الوطنية .. ولكنه في هذه الندوة يقدم لنا مغزى أكثر دلالة وعمقا ... فنحن نجتمع اليوم للبحث في أبعاد النصر الذي تحقق على يد صلاح الدين الأيوبي ضد غزاة وفدوا من أوربا ، وأخفوا أغراضهم خلف الصليب .

ومن هنا يأخذ لقاء الهلال والصليب في هذه الندوة أبعادا دينية ووطنية وإنسانية يجب أن نتأملها في عمق لأنها ترسى في قلوبنا الإيمان بأن الدين لله والوطن للجميع .

إننا في هذه الظروف أحوج مانكون إلى تدبر المعاني التي نجمت عن الحروب والحملات الصليبية ضد المسلمين من أبناء هذه الأرض سواء أكانوا من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود .

قال المؤرخ سور هايم :

(إن صلاح الدين لم يكن متعصبا ولم يكن يحمل ضغينة أو بغضاء للصليبيين باعتبارهم بشرا ولا للمسيحيين الخاضعين لحكمه لذلك لم يضرب الصليبيين كمسيحيين بل كان يضربهم كأعداء بادأوا العرب العداء وجاءوا ليضربوا الإسلام في دياره) .

لن أحاول الحديث عن سيرة صلاح الدين ... ولا عن معركة حطين .

أترك ذلك للعلماء والأساتذة المؤرخين المشاركين في هذه الندوة .. ولكني أقف فقط عند ظاهرة هذا القائد الذي ولد في تكريت بالعراق لأب كردي كان واليا على قلعتها ... ثم انتقل إلى سوريا وأقام دولته في مصر وهو في الخامسة والثلاثين من عمره .

زحفت جيوش صلاح الدين من مصر وسوريا ... ولم تكن هناك حدود ولا جوازات سفر أو تأشيرات دخول تمنع العربي من الانتقال في وطنه بغير قيود .

وأثبت صلاح الدين أن النصر العربي مرتين بالتضامن القومي والعمل العربي الموحد .

وهذه قضية هامة تربط بين نصر حطين ... وبين ما نعانيه اليوم فوق أرض فلسطين .

ولعل هذه الندوة تكون بداية لقراءة جديدة في تاريخنا ... قراءة صحيحة تبرز الأبعاد القومية ، وتظهر أن العمل العربي الموحد هو الباب الوحيد الذي ينطلق منه النصر والاستقلال والتقدم .

إن ترسيخ الحقائق التاريخية أصبح ضرورة قومية وواجبا وطنيا يدفع عنا الزيف ، وينمى في نفوسنا الثقة والأمل .

ولعل لا أضيف جديدا إذا قلت إن إسرائيل تعقد خلال الأيام القادمة ندوة عن هذه المناسبة نفسها تفسر فيها الأمور من وجهة نظر صهيونية ... تماما كما فعلت منذ شهور عندما عقدت ندوة توافقت في الزمن مع الندوة التي أقامتها اللجنة المصرية للتضامن بمناسبة مرور ٣٠ عاما على حرب السويس . قد تختلف وجهات النظر ، ولكن الحقائق كما يقول المثل البريطاني أجسام صلبة عنيدة .

إن توقيت عقد الندوة في هذه المناسبة التاريخية الهامة ، يفتح الأبواب للأحداث المعاصرة ، ويشير كثيرا من التساؤلات وعلامات الاستفهام التي تتطلع إلى إجابات علمية وموضوعية لها .

سيداتي وسادتي .

وأخيرا لاشك أن نوعا من الصفاء يغمر قلوبنا في هذه القاعة ونحن نلتقي مع أئمة الدين والفكر والثقافة الذين وفدوا لتبادل الرأي وتسلط الضوء على فترة باهرة من تاريخنا ، وبث الحذر في نفوسنا من أخطار تهدد منطقتنا ... في هذا اللقاء تأكيد لوحدتنا الوطنية ... تأكيد لقوميتنا العريقة .. تأكيد

لساحتنا الدينية ... تأكيد لأهدافنا الإنسانية .. تأكيد ليقظتنا الجماعية ..

وفي النهاية أكرر الشكر العميق باسم جميع أعضاء اللجنة المصرية للتضامن إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر وقداسة البابا شنودة بطريرك الأقباط الأرثوذكس وإلى أئمة الدين والفكر والثقافة من العرب والأجانب الذين تفضلوا بالحضور لنسهم معا في الوصول إلى الحقيقة الخالصة المضيئة .

والسلام عليكم ورحمة الله ، ، ،

كلمة فضيلة الإمام الأكبر
جاء الحق على جاد الحق
شيخ الجامع الأزهر

« إن هذا الصراع لم يكن صراع ديانة وعقيدة وإنما
كان عدوانا باسم الصليب والمسيحية من هذا براء »

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله .

وبعد ،

فهذه ذكريات يوم عظيم في تاريخ أمة مجيدة ، شاء الله تعالى أن نعيش هذا اليوم فكرا ، ورؤية ، بعد قرون .

والتاريخ حين ندع حقائقه تتكلم ، ووثائقه الصحيحة تروى يكون المعلم الذي لا يكذب في نصيحته ، أو يجحد في روايته .

ومن هنا فإن احتفاءنا بيوم حطين ينبغي أن يكون تعبيرا منصفا ، ورؤية واعية ، وتحليلا عادلا وتذكرة تحيل الأمل إلى العمل ، وتدفع إلى سعى دؤوب لجمع كلمة الأمة التي اختصها الله بالرسالات .

إننا بذلك نلتقي مع المؤرخين - المسلمين والغربيين - في نظرهم إلى الصراع العسكري الذي كان في حطين والقدس ، وغيرهما من ساحاته ومعاركه حين قال المنصفون منهم : إن هذا الصراع لم يكن صراع ديانة وعقيدة ، وإنما كان عدوانا باسم الصليب والمسيحية من هذا براء .

فما كانت - بحق - إلا محبة ، وما كان الإسلام إلا سلاما وسلامة ، إنه السلام مع الله والسلام مع النفس والسلام مع الناس .

ولقد كان واقع تلك الحروب التي عرفت في التاريخ بالحروب الصليبية - كانت - حروبا استعمارية اتخذت الدين سلعة وعنوانا ، حيث غابت عن قاداتها الرؤية الصحيحة للأديان السماوية . تلك الرؤية التي ترتفع بمكانة

الإنسان ، فلا يكون مجالا تباع فيه كرامته وإنسانيته .

ولقد غفل هؤلاء البغاة عن أن العقائد المنزلة من عند الله هي مفاهيم
رحمة ، ومضامين عدالة وإنسانية تتسع لآلام البشرية علاجا وبراً ولآمال
الإنسانية رعاية وتقديراً .

حضرات السادة :

بهذا لم تكن الحروب الصليبية تنتسب إلى المسيحية بصحيح النسب ، وإنما
كانت حرباً استعمارية بربرية قاومها العالم العربي والإسلامي ، باعتبارها زحفاً
طامعاً ، وعدواناً ظالماً غاشماً .

ولقد تتابعت موجات هذا العدوان ، ولكنها لم تلبث أن انحسرت
مراجعة ، وارتدت خاسرة ، حيث صدمتها قلوب عامرة بحب وطنها ، حريصة
على الحفاظ على أرضه وتراثه .

والحق أن الأمة العربية حين تنزل بساحتها نازلة يتلاقى أبناؤها - على
اختلاف عقائدهم - في وحدة لا تغلب ، وقوة - بنصر الله - لا تقهر ، وتلك
حقيقة كانت وستظل مثمرة ، وما حرب العاشر من رمضان منا ببعيد . فقد
وقف هذا الشعب - المسلمون والمسيحيون - صفاً واحداً ، يدافع عن أرضه ،
ويظهر عرضه ، ويحمي مقدساته ، ذلك لأن الجميع مواطنون ، شعب واحد
ومصير مشترك ومن هنا كان النصر (وما النصر إلا من عند الله العزيز
الحكيم) .

حضرات السادة :

إذا كانت الأجيال تعيش على أمجاد تتوارثها ، تؤصل بها لحاضرها ،
وتستشرف بها إلى المأمول في مستقبلها ، فإن صفحات التاريخ - وهي مليئة
ببشارات الخير - مازالت تشع سطورها بعطاء من الرفق والرحمة ، والعفو
والتسامح كتبها أخلاقيات القائد المسلم صلاح الدين في الحرب والسلام .

لقد أعطى القدوة - فى ساحة المعارك - رفقا بالأسير ، ورعاية للمهزوم ، ورأفة بالملكوم مع سماحة المتصبر وتواضعه ، مرتفعا بهذا إلى إنسانية الإنسان التى دعا إليها الإسلام وكافة الأديان التى أنزلها الله الرحمن الرحيم ، فقد قررت جميعا أن الإنسان أخ الإنسان .

حضرات السادة :

حين تنعقد هذه الندوة فى القاهرة التى قادت الحرب الدفاعية عن هذه الأمة لتتدارس سيرة ومسيرة هذا القائد العظيم - صلاح الدين - بممارسة موقعة حطين ، فإنما تمجد عظميا ، مذكرة بموقفه ، ناشرة أمجاده التى تعتر بها أمتنا ، بل والإنسانية كلها .

« وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

فلنأخذ من سيرة قائد النصر فى حطين إنسانيته فى الحرب والسلام ، ولنطرح أساليب الظلم والعنف والحقد والكراهية والعدوان والانتقام وليتناهى الجميع إلى كلمة سواء :

ينصرون بها المستضعفين ، ويقفون بها إلى جانب المقهورين والكادحين .
إن فعل الناس ذلك قامت الحياة الإنسانية على أصول تتواصل بها آفاق من الحب والصدق وهذه من قيم هذه الأمة الدينية والحضارية .

أيها الحفل الكريم :

إذا كانت هذه الندوة بهذا الحشد من العلماء تستذكر حطين بعد بضعة قرون فإن المأمول أن تشد على يد المدافعين عن حقوقهم وأن تناصرهم ، وأن تزار فى وجه الفساد والمفسدين أيا كانت وسائلهم ، وأن تندد بأولئك الذين طغوا فى البلاد - كل البلاد - فأكثرها فيها الفساد وأن يذكروا قول الله فى القرآن الكريم « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » وقول الله سبحانه : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز» .

مأمول من هذه الندوة وهي تنعقد لتحجي انتصار القائد صلاح الدين على الصليبيين - مأمول منها : أن تقول لهذا الشرق العربي الإسلامى : لقد وحد صلاح الدين الجيوش المتجاورة واستطاع بهذه الوحدة أن يحرز النصر الذى نذكره ونشكره لأنه سطر فى تاريخنا ما نفخر ونفاخر به ، وأن نقول لكتابنا أبرزوا هذه المثل لشبابنا بدلا من كشف السوءات ونشر السيئات ، فنحن فى حاجة إلى مدارس عوامل النصر والانتصار وممارسة طرق التغلب على أسباب الهزيمة والانكسار فى حياتنا الاجتماعية والسياسة والاقتصادية ولنواجه الصعوبات برباطة جأش ، وقوة عزيمة مفكرين فى الخلاص منها ، وليس الاستسلام والتخاذل ، والاختلاف والتنابد والجزع والخنوع وتوزيع الاتهام .

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم » .

حضرات السادة :

بكل التقدير أحى هذا الحفل الكريم مرحبا بضيوف مصر ، وتحية طيبة إلى كل الساعين من أجل الحق وفى سبيل الخير والفضيلة ومن أجل حياة أفضل للإنسانية : تسودها المودة والتعاون وصولا إلى خير الناس - كل الناس - وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، ، ،

كلمة قداسة البابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية

« تسمية الحروب الصليبية بهذا الاسم تسمية خاطئة
فهي حرب استعمارية ، أو هي حرب أوروبية ، أو
هي حرب الفرنجة أو هي حرب للاحتلال .
والمسيحية تدين الحرب عموما وتدين الاحتلال .
ونقطة الاستثناء الوحيدة التي تسمح بها المسيحية
هي الحرب الدفاعية » .

بسم الاله الواحد الذى نعبده جميعا أحييكم فى هذا الحفل المبارك ..
أخوى العزيزين .. صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ..
فضيلة مفتى الديار المصرية .. وإخوتى أعضاء اللجنة المصرية للتضامن الإفريقى
الآسى .

أود أولا أن أشكركم على هذه الدعوة الكريمة ، فلقاؤنا رمز وصورة
طيبة . ويسرنى أن نلتقى جميعا فى إدانة الحروب الصليبية .

فى كل قضايانا الوطنية والقومية . نحن لا نختلف إطلاقا ، كلنا قلب
واحد ، فكر واحد ، وعمل واحد .

وأنا أشكركم لأنكم تذكروا التاريخ وتذكرتم حطين .. وتذكرتم صلاح
الدين ، على رأى الشاعر الذى قال :

ومن وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارا إلى عمره
والتاريخ ليس مجرد أحداث ، وإنما هو دروس وعبر ، وأحداث التاريخ
معروفة لكم جميعا ، وأنتم تعرفونها أكثر منى . لذلك أود أن أعبر عن بعض
تأملات بسيطة .

النقطة الأولى التى أقولها .. إن تسمية الحروب الصليبية بهذا الاسم ، هى
تسمية خاطئة ، وكثير من المؤرخين المسلمين يقولون إنها تسمية خاطئة ، فهى
حرب استعمارية ، أو هى حرب أوروبية ، أو هى حرب من الفرنجة . أو هى
حرب للاحتلال ، والمسيحية تدين الحرب عموما ، وتدين الاحتلال . نقطة

الاستثناء الوحيدة التي تسمح بها المسيحية ، هي الحرب الدفاعية ، أما الهجوم والاعتداء ، فلا تقبله المسيحية على الإطلاق ، وهنا أقول .. إن المسيحية دين سلام ودين محبة ، بل قال السيد المسيح : «حبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، وصلوا للذين يسيئون إليكم» ، فكيف باسم المسيح تقوم حرب ؟! .. كذلك الصليب في المسيحية هو رمز حب وبذل وفداء ، ولم يكن في يوم من الأيام رمز هجوم أو اعتداء ، إطلاقا . وعندما يقول السيد المسيح .. من أراد أن يتبعني ، فليترك ذاته ويحمل صليبه ويتبعني . يقصد من هذا ، أن الإنسان يحتمل التعب والألم من أجل الله . فعنى الصليب هو أن الشخص يفدى الآخرين بسفك دمه وليس معناه أن يسفك دماء الآخرين .. لذلك فالتسمية ، تسمية خاطئة .

وأقول .. إن كثيرين من المسيحيين الذين يحملون اسم المسيح .. لا يتمون إلى مبادئ المسيح بأي صلة .

هذه الحرب التي استمرت مدى قرون ، كانت حرب اعتداء . ساعد على ذلك انقسام المسلمين في ذلك الوقت .. حينما بدأ العرب دولة قوية في بداية القرن السابع ، استطاعت هذه الدولة الواحدة القوية أن تدخل في الشام وفي فلسطين وفي مصر ، بل استطاعت أيضا أن تذهب إلى أسبانيا وتكون دولة هناك ، كانت على أبواب فرنسا أيضا ، وأصبحت دولة العرب المتحدة ، هي أكبر دولة في الشرق بلا منافس ، بل أصبحت لها قوة الغرب أيضا .. ولكن على مرور الوقت ، وفي وقت الحروب الصليبية كانت هناك خلافة أموية في الأندلس وخلافة عباسية في بغداد ، وخلافة فاطمية في مصر والشام ، وكان بين هؤلاء وأولئك اختلاف ، وأحيانا عداء ، ثم قامت دولة السلاجقة واستطاعت أن تضرب الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية ضربة قوية ، في موقعة «متركت» سنة ١٠٧١ ، قبل الحروب الصليبية بمحاوى ربع قرن ، وأصبحت قوة شديدة ، استطاعت أن تأخذ نيقيا وقيليقيا وفريجيا ، وبسيلية ، واستطاعت أيضا أن تأخذ انطاكية واللاذقية وتستولى على كثير من

بلاد الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، بل إن امبراطور الدولة الرومانية الشرقية «اليكسيوس» استنجد بالبابوات في روما لكي ينصروه على السلاجقة .

ولكن ، للأسف الشديد ، حينما قامت الحرب الصليبية الأولى ، كانت دولة السلاجقة قد انقسمت أيضا إلى ولايات ، فأصبحت هناك أقسام لها في فارس في خراسان ، في حلب ، في دمشق ، في دولة الروم ، في آسيا الصغرى ، ولم تكن هناك وحدة عربية تستطيع أن تقاوم هؤلاء الصليبيين ، فانتصروا في الحرب الأولى ، وكان لابد للعرب من وجود رجل قوى مثل صلاح الدين ، يستطيع أن يوحد ، لأن العرب لا يستطيعون أن ينتصروا إلا لو كانوا وحدة قوية ، تستطيع أن ترغم الناس على احترامها وتوقير قوتها .

أنا أعتقد ياإخوتي الأحباء ، أن انتصار حطين بدأ قبل ذلك بخمس سنوات ، موقعة حطين في سنة ١١٨٧ ، صلاح الدين استطاع أن يوحد الدولة العربية في سنة ١١٨٢ وأصبحت قوات صلاح الدين تنتشر من الفرات إلى النيل ، وأصبحت هناك قوة ترغم هؤلاء الغزاة الأجانب على احترامها ، وتستطيع أن تصد وترد وتردع .

وهنا أقول كلمة أخرى .. إن الأحداث معارك ، وإذا انتصر الإنسان في معركة ليس معنى هذا أن انتصاره قد ثبت .. ملاحظة لطيفة جدا يمكن أن نقولها في هذا المجال ، وهي ، إن هؤلاء الصليبيين أخذوا القدس سنة ١٠٩٧ واستطاع صلاح الدين أن يرد القدس إلى العرب بعد ذلك بتسعين سنة تماما سنة ١١٨٧ ، السنوات ليست شيئا كثيرا في حياة البلاد ، فلا ييأس أحد إطلاقا .. استرجعت القدس بعد تسعين سنة على يد صلاح الدين ، وإن كان الصليبيون استطاعوا أن يأخذوها مرة أخرى ، فإنها استرجعت مرة ثانية بعد ٥٧ سنة ١٢٤٤ على يد الملك الصالح أيوب .

الحروب ليست وضعا مستقرا ، فلذلك مهما أخذت بلدة من البلاد ، لا ييأس إنسان ، يمكن استرجاعها .

لدى نقطة أخرى ، موقعة حطين كانت بداية لعملية تمشيط واسعة النطاق قام بها صلاح الدين .. صدقوني أننى أقف أمام التاريخ وأعجب . فى مدة أقل من ثلاثة شهور ، موقعة حطين فى ٤ يوليو سنة ١١٨٧ ، ودخول القدس فى ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ ، يعنى أقل من ثلاثة شهور ، استطاع صلاح الدين أن يستولى على طبرية ، وطبعاً انتصار حطين ، والرملة ، وعسقلان ، ويأخذ باقى البلاد أمثال قيصرية وحيفا ، واستطاع أيضاً أن يأخذ بيروت وجبيل ، ثم يأخذ القدس ، كل هذه البلاد فى ثلاثة شهور ، فى وقت لم تكن فيه الحرب الميكانيكية والآلات الحديثة موجودة ، ولكن كانت هناك القوة ، والعزيمة ، والوحدة ، والإصرار على تحرير البلاد .

نقطة أخرى أريد أن أقولها .. إن الحرب الصليبية ، أو الحروب الصليبية ، لم تكن ضد المسلمين فقط ، إنما كانت ضد المسيحين أيضاً ، وهنا أذكر على الأقل اتجاهين ، ما قام به الصليبيون فى المجر ، وكيف اعتدوا على أهل المجر ، بينما المجر كانت بلاد مسيحية ، حوادثهم فى سنلم ، فى براغ ، فى بلجراد ، فى نيش ، لدرجة أن ملك المجر طردهم واعتبرهم أعداء ، وتخلص منهم ، هذه واقعة .

الواقعة الثانية :.. هى قيام هؤلاء الغزاة ضد الدولة البيزنطية ذاتها ، امبراطور الدولة الرومانية استنجد بأوروبا لكى تحميه من السلاجقة ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أن هؤلاء الغزاة حلوا عليه بعنف ، كغزوة جراد على حقل بسيط ، حتى إن بعض المؤرخين قالوا فى تشبيه هذا الأمر ، إن امبراطور الدولة البيزنطية كان مثل راعى يطلب قليلاً من المطر لينبت العشب لغنمه ، فإذا به يصادف بطوفان يغرق كل شىء ، وكان هذا الطوفان ، هؤلاء الغزاة الأجانب .

ثم ماذا حدث ؟ أراد منهم أن يحموه من السلاجقة ، فكانت النتيجة أنهم نافسوه فيما يأخذونه من البلاد التى تحت يد السلاجقة ، مثال ذلك ، أخذوا أنطاكية ، ثم بعد ذلك قاوموه مقاومة شديدة فى أن يأخذوا أيضاً اللاذقية ،

واضطرب أن يسلم ، وكثير من البلاد الأخرى التي أخذها السلاحيقة وأرجعها هؤلاء الغزاة ، بدلا من أن يردوها إلى الدولة البيزنطية ، استولوا عليها وكونوا فيها إمارات ، كونوا إمارة في الرها ، وإمارة في طرابلس ، وإمارة في أنطاكية ، وازداد الأمر جدا حتى لم يعودوا يبحثون عن بيت المقدس ، أو عن الحج ، تغير الهدف . أنا آسف .. فعبارة تغير الهدف ليست تعبيرا سليما ، إنما أقول ، انكشف الهدف الحقيقي .. إنهم استتروا وراء الدين ووراء عبارة الأماكن المقدسة ، ووراء عبارة حماية الحجاج ، ولكنهم كشفوا أنفسهم حينما اتسعوا شرقا وغربا ، بل جاء وقت استولى فيه هؤلاء الغزاة على القسطنطينية نفسها ، عاصمة الدولة البيزنطية واستانبول حاليا .

وإذن ليست مسألة حجاج ، وليست مسألة صليب ، وليست مسألة القدس ، إنما مسألة احتلال .

بل أراد هؤلاء الغزاة أيضا ، ليس فقط لأسباب سياسية أن يحتلوا ، وإنما أرادوا أيضا لأسباب اقتصادية أن تكون لهم أسواق في بلاد العرب ، وهكذا وجدنا تجار جنوا وبيزا والبنديقية يقومون بتمويل حملات ، ويستولون على بلاد لكي توجد هناك أسواق في الشرق يتعاملون معها ويعملون فيها ، أين مسألة الدين في كل هذا ، لا علاقة للدين بهذه المسائل الاقتصادية والتجارية والسياسية ، والاحتلال . المنصفون في التاريخ يقولون إن الحروب الصليبية كلها حروب احتلال وغزو أجنبي واستعمار ، ربما كاستثناء ، يستثنون حملة الأطفال . وربما يستثنون أهداف لويس التاسع ، ولكن هؤلاء الأطفال كانوا مغربين . مسألة الدين يمكن أن تستخدم مع الأطفال .. مع صغار السن .. لتغريهم ، ومع ذلك حملة الأطفال لم تكن حملة .. قاموا من البنديقية ورحلوا ، وأخذهم تجار الرقيق وباعوهم في أسواق الرقيق ، ولا نقول إن حملة الأطفال كانت حملة ، إنما نقول سعى الأطفال للقيام بحملة كانت له أهداف دينية ، وهنا أحب أن أثبت نقطة هامة ، وهي أن الهدف الطيب لا بد أن تكون له وسيلة طيبة . ومع ذلك ، فحتى حملة الأطفال لم يكن هدفها سليما ، ولم تكن الوسائل

الصلبية سليمة لأن المسيح لم يقل في يوم من الأيام بدولة يملكها الناس ، وإنما قال « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » .

وعندما أراد اليهود أن ينصبوا المسيح ملكا ، عارضهم في ذلك ورفض ، وهرب من هذا الملك ، وكان يقول « مملكتي ليست من هذا العالم » . المملكة التي أرادها المسيح ، أن يملك الله على القلب ، وعلى الفكر ، وعلى المشاعر ، وعلى النيات ، وهذا هو ملكوت الله الذي تقول عنه المسيحية (ملكوت الله داخلكم) داخلكم .. داخل قلوبكم .. أما مملكة على الأرض .. إطلاقا .. لا يمكن أن يفكر فيها أى مسيحي يحترم مبادئ المسيح .. الممالك هي عالم السياسة .. ولكن ليست عمل الدين ، فالمسيحية لا توافق على أن يخرج غزاة ، ليملكوا باسم المسيح ، والمسيحية لا توافق على احتلال أرض الغير ، والمسيحية لا توافق أن يظلم بعض المسيحيين شعوبا أخرى ، كل هذه أمور بعيدة عن المسيحية تماما .

نقطة أخرى أحب أن أقولها .. وهى أن هؤلاء الغزاة الذين يسمون أنفسهم أو الذين أسماهم التاريخ بالصلبيين كشفوا أنفسهم في نقطة واضحة جدا سنة ١٣١٩ ، حينما احتلوا دمياط ، حاصروا دمياط .. احتلوها ، فكانت النتيجة هى أن الملك العادل لكى يكسب موقفا سياسيا قال لهم لا مانع عندي من أن تأخذوا القدس ولا مانع عندي من أن تأخذوا غالبية بلاد فلسطين - استثنى بعض مناطق معينة - على أن تتركوا مصر ودمياط .. فأصروا على أن يأخذوا مصر ودمياط ، فكانت النتيجة أنهم ضربوا هناك وطردتهم الملك الكامل خليفة العادل ، ولاكسبوا القدس ، ولاكسبوا دمياط ، وهذه إحدى نهايات الظالمين .

الحروب الصليبية كانت عملية ظلم ، عملية احتلال ، عملية شهوات سياسية وشهوات اقتصادية ، بل إن البعض يقولون إن الاقطاعيين في أوروبا وقد ضاقت البلاد بهم ، أرادوا أن يستولوا على بلاد أخرى تصلح إقطاعيات . أنتم تعرفون أن النظام الإقطاعي في أوروبا أن الابن البكر يستولى على الأرض

ولإخوانه يريدون أراضي مثله ، فلو تفككت الأرض كلها ، لا تقوم إقطاعية كبيرة ، وهؤلاء المحتاجون إلى أراضي ، وجدوا فيما يسمونه بالحروب الصليبية مجالا لنشر الإقطاع في الشرق ، والعبيد الموجودون في أوروبا وجدوا في هذه الحرب مجالا للتخلص من العبودية .

ونحن لا نوافق إطلاقا على موقف الكنيسة في الغرب من الحروب الصليبية . نحن في الشرق لنا مبادئنا الروحية التي لا ندعو فيها إطلاقا إلى غزو الغير ، واحتلال الغير ، أو الاستيلاء على أراضي الناس ، والربح بهذه الوسائل . مبدأ روحي نقوله باستمرار وهو (لا تبني راحتك على تعب الآخرين) .

أود أن أقول ملاحظة أخرى وهي إنسانية صلاح الدين .. إنني أوافق تماما فضيلة شيخ الأزهر على ما قاله في هذا المجال .. صلاح الدين لم يكن قائدا مظفرا فقط . وإنما أيضا كان إنسانا على خلق ، ولذلك صلاح الدين هو من الشخصيات القليلة في التاريخ التي امتدحها أعداؤها واحترموها ، كان الصليبيون يحترمون شخصية صلاح الدين ، لا أقول فقط يخافونه .. إنما يحترمونه ، لأن الاحترام هو شعور بالتقدير داخل القلب ، وكانوا أحيانا يصغرون أمام أنفسهم حينما ينقضون اتفاقا معه ويقفون أمامه موقف الذي هو في عار .

صلاح الدين بعد موقعة حطين ، حينما استولى على كل هذه البلاد التي ذكرناها ، كان يعرض على أهل هذه البلاد التسليم والأمان ، ومن كان فيهم يقبل أن يسلم البلدة على أساس الأمن والأمان ، كان يسلم ويخرج من الاعتداء ، ولذلك كثير من هذه البلاد التي استولى عليها بعد موقعة حطين ، استولى عليها بدون سفك دم ، احترام لقوته وقدرته وشدة حصاره ، واحترام أيضا لوعوده . ما عدا القدس ، رفض أهالي القدس هذا الأمر ، فأصر صلاح الدين أن يأخذها بالقوة ومع ذلك حينما رجعوا إليه ، كان قلبه فيه حنو عليهم ، ويقال في التاريخ إن بعض النساء حينما أتين إليه يبكين من أجل رجالهم الصليبيين الأسرى دمعت عينا صلاح الدين وأشفق وأخرجهم من القدس بدية بسيطة .

إننا نحى شخصية صلاح الدين كرجل قوى وكرجل وحد كلمة العرب وكرجل استطاع أن يتصر وكرجل إنسانية ورجل لا يميل إلى سفك الدماء .
وإن كان بعد صلاح الدين تفرقت الدولة قليلا ، ولكن أمكن توحيدها بعده .. العجيب أن موقعة حطين كانت سنة ١١٨٧ ثم استطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا بعد ذلك ١١٩١ ولكنهم فقدوا عكا واسترجعها العرب مرة أخرى سنة ١٢٩١ يعنى بعد مائة سنة بالضبط ، أمام هذه الأرقام ، نحن نأخذ دروسا من التاريخ أنه لا يأس إطلاقا ، القدس أخذت ١٠٩٧ واسترجعت سنة ١١٨٧ بعد تسعين سنة ، عكا أخذت سنة ١١٩١ واسترجعت سنة ١٢٩١ بعد مائة سنة .

لأريد أن أطيل عليكم لأننى أحب أن أستمع ، وقد استفدت كثيرا من الكلمات التى قلت قبل ، ولا شك أننى سأستفيد من الكلمات التى ستقال فيما بعد .

وأشكر ، تحية الأستاذ أحمد حمروش ، فى الكلمة اللطيفة التى قالها فى استقبالنا وأشكركم جميعا على حسن إنصاتكم وأرجو للعرب أن يتحدوا لكى يتصروا ، إذا اتحد العرب - صدقونى - حتى دون أن يحاربوا ، مجرد اتحادهم سيخيف أعداءهم ، مجرد اتحادهم . أما التفكك فلا يفيد العرب ولا يفيد الشرق ولا يفيد الإسلام ولا يفيد إلا أعداء العرب ، فلتكن دعوتنا ليس فقط للتضامن الأسوى الإفريقى وإنما أيضا للتضامن العربى ، فى كل مكان . فى الاتحاد قوة ، وفى القوة إخافة للأعداء ، وفى القوة احترام للذات ، أمام النفس وأمام الآخرين ، وبالقوة ، قوة الوحدة نستطيع أن نسترجع حقوقنا .

فليكن الرب مع العرب ، وليساعد على وحدتهم ، وأن يعطيهم النصر على أعدائهم ، ولكم منى جميعا الشكر ، ، ،

حتى يسود السلام
لابد من قوة تحميه ..

كلمة فضيلة الدكتور سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .
فضيلة أستاذنا الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر .. قلداسة البابا شنودة الثالث .. الأخوة والأخوات .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إنها لأوقات طيبة ، وساعات مباركة ، ولحظات سعيدة تلك التي نقضيها سويا لتعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان .. وأن العقول البشرية مثلها كمثل المصابيح ، كلما تقاربت . كلما سطع ضوءها ، وكلما إزداد نورها ، كلما جاء الخير والنفع من ورائها . لأننا جميعا في حاجة إلى التعاون وفي حاجة إلى التكاتف وفي حاجة إلى امثال قوله الله عز وجل « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . والأمور الصعبة تتحول إلى أمور سهلة متى كان هناك تعاون ، ومتى كانت هناك النيات الطيبة والعزائم الصادقة ، والاتجاه نحو الأهداف الشريفة التي جاءت بها الأديان السماوية ، وأيدتها العقول السليمة .

وعندما نجتمع في هذا المكان بدعوة من اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية ، عندما نجتمع في هذا المكان أشعر بالسرور والارتياح ، وأشعر بأن من واجبي أن أشكر هذه اللجنة الموقرة على تلك الدعوة الكريمة ، لأنها قد سنت سنة حسنة بالتعاون الصادق ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

إن الهدف الذي اجتمعنا من أجله هو أن نحى ذكرى معركة حطين بمناسبة

أنقضاء ثمانمائة عام عليها ، وللذكرات قيمتها في حياة الأمم فهي تشحذ العزائم وهي تعلم الناس ما لم يكونوا يعلمونه ، وهي التاريخ الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نتدبره وبأن نأخذ العبر والعظات منه ، والذي يقرأ القرآن الكريم يجد ثلثه تقريبا في الحديث عن أخبار السابقين ، ساق لنا من بين ما ساق قصة نوح مع قومه ، وقصة هود مع قومه ، وقصة إبراهيم مع قومه ساق لنا ما تعرض له الأنبياء ، وما تعرض له المصلحون ، ساق لنا كل ذلك لكي نعتبر ، ولكي نتعظ ، ولكي نأخذ من هذا القصص ما ينفعنا في ديننا وفي دنيانا ، وصدق الله إذ يقول « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله » والمقصود بالتذكير بأيام الله تلك الأحداث التي نعلمها جميعا ، تلك الأحداث التي ذكرها لنا القرآن الكريم ، وذكرتها لنا كتب التاريخ ، تلك الأحداث التي ستستمر ما بقيت الدنيا ، لأنه ما دامت هناك حياة ، فلا بد أن تكون هناك أحداث ، ولا بد أن تكون هناك مشكلات ، ولا بد أن تكون هناك أمور تجري بين الناس ، لأن اختلاف العقول من طبيعة البشر ، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .

الذكرات لها قيمتها ، والكلمات التي استمعنا إليها من فضيلة أستاذنا الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والتي استمعنا إليها أيضا من قداسة البابا ، والتي استمعنا إليها من غير سماحتهم ، هذه الكلمات لها وقع عميق في نفوسنا جميعا ، التحليل الواعي المستنير المدعم بالأرقام ، الذي ساقه قداسة البابا ، لا أستطيع أنا شخصا أن أجاريه فيه ولا أستطيع أن أدخل في هذا الجانب بعد أن ذكر لنا قداسته ما يشفي في هذه الناحية ، إنما الكلمات التي دارت بذهني في هذه المناسبة الكريمة ، الكلمات التي دارت بذهني وأنا أجلس في هذا المجلس أن هناك عبراً وعظات علينا أن نأخذها من معركة حطين .

الأديان .. والسلام

على رأس هذه العبر والعظات ، أن الأديان السماوية جميعها إنما جاءت
بالسلام ولم تأت بالحروب .

والحرب يبعثها القوى تجبرا وبنوء تحت بلائها الضعفاء

ما جاءت الأديان بالحروب ، وإنما جاءت بالسلام ، جاءت لغرس الأمان
والاطمئنان في نفوس الناس لأن الحياة لا قيمة لها إذا لم يسدها الأمان . السعادة
الحقيقية ليست في الأموال وليست في المناصب ، وإنما السعادة الحقيقية عندما
ينام الإنسان في بيته وهو آمن مطمئن ، أما إذا كان يملك ما يملك من جاه
أو منصب أو مال وهو لا يعيش آمنا ، فإنه لا يشعر بلذة لكل ذلك ، فالأديان
السماوية جميعها إنما جاءت لكي تقيم السلام والأمان والاطمئنان بين الناس ،
خصوصا إذا ما أخبرنا القرآن الكريم بأن الناس جميعا قد انحدروا عن أصل
واحد ، ونجد ذلك في آيات متعددة ، منها قوله - عز وجل - « يأيها الناس
الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها
رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم
رقيبا » . إذن الأصل أو الرسالة التي أوجدنا - الله تعالى - من أجلها في هذه
الحياة هي أن نعبد وأن نعمل على نشر الأمان والاطمئنان بين الناس ، لأن
نعمة الأمان كما قلنا على رأس النعم التي منحها الله سبحانه وتعالى لعباده .

ولكن هذا السلام لا بد من قوة تحميه ، لا بد من قوة تقف إلى جانبه لكي
تثبت ، السلام لا يأتي اعتباطا أو مصادفة ، وإنما السلام الحقيقي يتأتى عندما
يكون هناك قادة مصلحون ، قادة قد سلمت قلوبهم من الطغيان ، ومن
الأنانية ، ومن الأحقاد ، وهؤلاء القادة تسندهم قوة ، هذه القوة ليست
للبطش ، وليست للإرهاب ، وليست للعدوان ، وليست لانتهاك الحرمات وإنما
هذه القوة لكي تحمي هذا السلام ولكي تصونه . ولذلك الأديان السماوية
بجانب أنها تأمر أمراً صريحاً وواضحاً بإقامة السلام في الأرض .. تأمر في الوقت

نفسه أن يكون هناك قوة تحمى هذا السلام ، وتصون هذا السلام ، وتثبت بنيان هذا السلام ، ومن هنا وجدنا بأن من صفات الله - عز وجل - صفة القوة وصفة السلام. نجد بأن من تحية المؤمنين فيما بينهم السلام ، ومع ذلك وصف الله سبحانه وتعالى أنبياءه بالقوة ، ووصف الله - عز وجل - ملائكته بالقوة ، « عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ... « علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى » .. « وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث طالوت ملكا ، قالوا أنا يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت ساعة من المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » .

فمن العبر التي نأخذها من معركة حطين أنها كانت تقوم على السلام من جانب صلاح الدين .. هو لم يتقل من مملكته أو من أرضه لكي يغزو الناس في ديارهم .. وإنما هو عندما هوجم ، وعندما جاءه من جاء - كما استمعنا من قداسة البابا - من أواسط أوروبا ومن أطراف أوروبا ، وجاءوا يتمسحون بالدين ، وهم لا يحملون في قلوبهم شيئاً من الدين ، إنما جاءوا بدافع التوسع ، وبدافع العصبية ، وبدافع الحقد ، لأنهم عندما جاءوا ، جاءوا يحملون كل ضغينة لكل عربي شرقي . سواء أكان هذا العربي مسلماً أم مسيحياً .

ونجد في التاريخ عندما نقراً ، نجد بأن بعضهم عندما جاء آذى بعض المسيحيين ، أكثر من إيذائه لبعض المسلمين . ويحدثنا التاريخ أن الأسقف الكاثوليكي «أميرى دى ليموج» عندما قاوم هؤلاء الصليبيين ، وعندما قبض عليه القائد الصليبي «شتيون» عذبه عذاباً شديداً ، بأن جرده من ملابسه ثم بعد ذلك طلى جسمه ببعض الطلاء ، يقال إنه العسل ، ثم بعد ذلك تركه للذباب وللذبابير ، ولغير ذلك إلى أن مات . وعندما بلغ صلاح الدين ذلك خرج عن طبيعته التي استمعنا إلى جانب منها ، وهي طبيعة المسالمة والرحمة وأبى إلا أن ينتقم بنفسه ، وأن ينفذ حكم القصاص بنفسه في ذلك القائد الصليبي .. كان يترك تنفيذ القصاص لقواته ، ولكن بالنسبة لهذا القائد بالذات وهو «شتيون» قال أنا الذي أعدمه بيدي لأنه فعل ما فعل بالنسبة لذلك الأسقف الكاثوليكي ، وهذه قصة

مشهورة نراها في كثير من كتب التاريخ .

هم عندما جاءوا ، لم يجيئوا من أجل إصلاح ، إنما جاءوا وهم يحملون في قلوبهم كل معاني الحقد لكل شرقي ، سواء أكان مسلماً أم كان غير مسلم ، لذلك قاوم صلاح الدين تلك العصابات التي جاءت وهي تتمسح بالدين ، قاومها وهو يحمل السلام بيده اليمنى ويحمل أيضاً القوة التي تثبت هذا السلام بيده الأخرى ، عملاً بأن هذه الحياة ، لا بد أن يكون بجانب السلام ، أو بمن يقول بالسلام فيها ، لا بد أن تكون معه القوة التي تحمي هذا السلام .

إذا كنت بين العالمين أخاً قوة رعتك عيون الناس حين تنام
حمى الغاب بأس ليث من كل طارق ولم ينج من فتك البوزات حمام
يقولون إن الحق من فوق قوة وما الحق إلا مدفع وحسام

الحق .. والقوة

تلك هي طبيعة الحياة .. السلام يجب أن يسود ، ولكن هذا السلام لا بد له من قوة تثبته ، لا بد له من قوة تقويه ، لا بد له من قوة تؤيده ، وإذا كان أنبياء الله - سبحانه وتعالى - عندما أحاط المنحرفون والممسوخون ، أحاطوا بالمؤمنين وأرادوا أن يعتدوا عليهم ، وهو لا يملك القوة ، تمنى أن تكون معه القوة التي تصد أولئك ؛ وتمنع أولئك الأشقياء المفسدين عن الاعتداء على الأطهار وقال كما حكى القرآن الكريم عنه « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » تمنى أن تكون إلى جانبه القوة لكي يدافع عن الحق ، لكي يدافع عن الفضيلة وهذا ما فعله صلاح الدين ، إنه ينشد السلام ولكنه بجانب نشدانه للسلام كانت معه القوة التي تدافع عن الحق وتثبت أركان السلام .

من العبر التي نأخذها من هذه المعركة ، وهي معركة حطين ، أن القائد الصالح عندما يوجد على رأس أمة ، فإن صلاحه يسرى في هذه الأمة إن لم يسر في جميعها ، فلا أقل من أن يسرى في مجموعها ، لأن النفوس جبلت على أن

تتأسى بالصالحين ، وجبلت النفوس على أن تقتدى بالأخيار ومن هنا القرآن الكريم يبين لنا في آيات متعددة ، أن من الواجب أن نتأسى بالرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه لم يكن قدوة بقوله فقط ، وإنما كان قدوة بقوله وبعمله ، « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . فعندما وجد هذا القائد المصلح الذى حارب من أجل الحق ومن أجل الفضيلة ، والذى عاش حياته زاهداً ، عندما وجد هذا القائد التفت الناس من حوله ودافعوا عن عقائدهم وعن أوطانهم ، دافعوا دفاع الأبطال لأنهم يجدون القدوة الطيبة ويجدون الأسوة الحسنة .

إن المؤرخين يتحدثوننا ، أن صلاح الدين الأيوبي عندما توفى اقترض أهله من الناس ما يتمكنون به من تشييع جنازته ، رجل يجمع القوة ، ويجمع السلام ويجمع النقاء ، ويجمع طهارة اليد ، ويجمع سلامة البصيرة ، ويجمع الرحمة القلبية التى منحها الله - سبحانه وتعالى - إياه ، جميع هذه العوامل جعلت الناس تلتف من حوله وتلدفع عن دينها وتلدفع عن أوطانها دفاع الأبطال لأنهم يجدون الأسوة الطيبة فيه .

الناس والمصالح المشتركة

من العبر التى نأخذها أيضاً من هذه المعركة .. معركة حطين .. من هذه العبر أن الناس فى كل زمان ، وفى كل مكان ، فى الأوطان التى يعيشون فوق أرضها وتحت سمائها ويستنشقون من هوائها ، وتجمعهم المصلحة المشتركة .. الناس فى كل زمان وفى كل مكان يدافعون عن تلك المصالح المشتركة بدون تفرقة بين مسلم وبين مسيحي ، يدافعون عن تلك المصالح المشتركة .. ولنا فى التاريخ فى قديمه وفى حديثه ، لنا ما يؤيد ذلك . الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما هاجر إلى المدينة كان من أوائل الأعمال التى عملها بالمدينة المنورة أن عقد معاهدة بينه وبين اليهود الذين كانوا يسكنون فى المدينة المنورة مع الأوس والخزرج ، وكان من بنود هذه المعاهدة ، أنه إذا دومت المدينة من عدو خارجي ، سواء أكان هذا العدو

من قريش أو من غير قريش ، فعلى أهل المدينة جميعا من مسلمين ومن يهود ومن مسيحيين ومن غيرهم ، أن يخرجوا جميعا للدفاع عنها ، كان على رأس الأعمال التى عملها الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن عقد تلك المعاهدة . لماذا ؟ لأن الأمم التى تعيش على أرض واحدة وتحت سماء واحدة وتستنشق من هواء واحد ، وتجمعها المصالح المشتركة ، هذه الأمم عندما يأتها عدو خارجي ، هنا تخرج كلها ، تخرج الأمة على اختلاف أديانها وعلى اختلاف عقائدها لكي تدفع ذلك العدو الذى جاء يداهمها فى أرضها .

ونجد ذلك فى معركة حطين ، لقد خرج المسلم إلى جانب المسيحى . الكل خرج لكى يدافع عن أوطانه ، لكى يدافع عن عقائده ، لكى يدافع عن عرضه ، لكى يدافع عن أهله ، لكى يدافع عن نفسه . الكل خرج .

نحن عندما نقرأ تاريخنا القديم ، وتاريخنا الحديث ، وتاريخنا الحاضر ، نجد أن ذلك يتمثل كأحسن ما يكون التمثل . فى ثورة سنة ١٩١٩ ، ماذا كنا نرى ؟ وماذا كنا نسمع ؟ نسمع أن المسيحى كان إلى جانب المسلم ، وكانا فى ميدان واحد ، وكانا فى قلعة واحدة ، وكانا فى شارع واحد ، وكانا فى خندق واحد ، الكل يدافع عن دينه ، والكل يدافع عن عقيدته ، والكل يدافع عن مصالحه المشتركة .

الجيش المصرى فى قديمه ، وفى حديثه ، وفى تاريخه القريب ، وفى تاريخه البعيد وفى تاريخه الحاضر .. الجيش المصرى .. الجندى المسيحى إلى جانب الجندى المسلم ، الكل يدافع عن دينه وعن عرضه وعن بلاده . وفى حرب أكتوبر وفى غير حرب أكتوبر .. هنا كله يدل على أن معركة حطين كانت المصالح المشتركة فيها أبرز ما تكون ، وكان أهل مصر جميعا من مسلمين ، ومن غير المسلمين ، بل غير أهل مصر أيضا من الدول المجاورة ، الكل خرج لكى يدافع عن دينه ، ولكى يدافع عن عرضه ، ولكى يدافع عن عقيدته ، لأن الأديان جميعا تأمر بذلك ، تأمر بالدفاع عن الحق ، «أذن للذين يقاتلون بأنهم

ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق . إلا أن يقولوا ربنا الله »

هذه خواطر جالت بنفسي عندما جلست في تلك الجلسة المباركة واستمعت إلى تلك الكلمات الحكيمة من فضيلة أستاذنا الإمام الأكبر ومن قداسة البابا شنودة ومن غيرهما من المتكلمين .. هذه الكلمات ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا جميعا على طاعته وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا وسلوكنا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا جميعا لكي نتعاون على البر والتقوى . لا على الإثم والعدوان .

وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وحدة الوطن تعلو على وحدة العنصر: درس من حطين

كلمة الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي
رئيس منظمة التضامن بين الشعوب الأفريقية والآسيوية

فى تاريخ كل أمة لحظات مضيئة .. وفى مسيرة كل شعب منعطف حاسم ..
ومن تلك اللحظات والمنعطفات تتجدد الحياة وتتألق .. ويصوغ الإنسان
شكلا جديدا للعلاقات ، ويتخذ الزمن له مجرى غير مجراه القديم . وفى اندفاع
تيار الزمن الجديد تتولد طاقات جبارة تحول الحياة إلى ضياء ، وأزهار ، ونماء ،
وتقدم .

من تلك اللحظات المضيئة فى تاريخنا يوم بدر ، وكان الانتصار فيه منعطفًا
حاسمًا فى مسيرة الإسلام ..

وتتوالى اللحظات المضيئة والمنعطفات الحاسمة فى تاريخنا : اليرموك ..
القادسية .. الفسطاط .. ثم الأندلس .. وتعبّر العصور بما فيها من خير وشر ،
وظلمات وومضات حتى يوم حطين ..

ولحطين معنى خاص .. فقد تألقت فى تاريخنا بعد فترة مضيئة معذبة من
الظلمات والخلافات ..

وكانت حطين بشيرا بمشرق عهد من التضامن والتعاون والتآخى .. وتلك
بعض عبرتها ..

ولو أننا وقفنا لتأمل عظمة حطين لوجدنا عجباً ! . فتلك معركة وحد فيها
العرب قائد عظيم هو نفسه ليس من العرب ! .. ولكنه من بعض الشعوب التى
تحيا على أرض العرب ، وتحمل للأرض التى غذاها بر الأبناء ، وروعة الوفاء ..
فصلاح الدين الأيوبي بطل حطين كردى لا عربى .. ولكنه أحد الذين أثبتوا

أن وحدة الوطن تعلو على وحدة العنصر.. فما حرك صلاح الدين في كل ما كان يأخذ ويدع إلا شعور قوى بالانتماء إلى الوطن العربي.. وذلك بعض أسرار معجزة الانتماء : أن ينازع حب الوطن نزعة العرق والعنصر ، لتصبح الدماء التي يحملها كل عرق في بدنك خفاقة بحب وطنك ، وبما أولئك الأرض التي ولدت عليها وحبوت ، وأثماك هواؤها ومأواها وغداؤها..

وهكذا كان أهل الأرض العربية مهما تختلف أصولهم وأعراقهم يدينون بالولاء للأرض التي أنشئوا من ترابها ، وسيثون آخر الأمر تحت ترابها ، ليصبحوا بعض هذا التراب..

ولعل بعض ما يطالعنا من عظمة حطين تلك اليقظة التي عصمت أهل المشرق من أن يقعوا في فخاخ المكيدة والخديعة ، وكل ما ملأت به أوروبا طرق الحياة في بلادنا من شرك !!

فقد اضطرت في أوروبا المصالح الدنيوية والأطماع وأحلام السيطرة والاستغلال ، فاندفع الملوك والأمراء من أوروبا يقودون رجالا تشعل حماسهم أحلام الثراء والمتاع في شرقنا الساحر ، وبعضهم تستفزهم المزاعم والنداءات الخادعة المندوعة عن حماية المقدسات المسيحية واستخلاصها من أيدي المسلمين !!.. لقد استغل أصحاب الأطماع الدنيوية الشعارات الدينية ، ورفعوا الصليب المقدس ، وأخفوا وراءه غول الطمع الشرس ، وأضرموا الأحقاد والتعصب ، وزعموا أنهم جاءوا تحت راية الصليب ، ليحموا أتباع الصليب..

ولكن أتباع الصليب في بلادنا العربية لم ينخدعوا بأباطيل الصليبيين الأوروبيين.. وما أسرع ما اكتشف المسيحيون من أهل الشرق ، أن الصليبيين الزاحفين من أوروبا إنما أقبلوا غزاة باغين طامعين.. وليسوا هم حماة الصليب الورعين !.. فحماة الصليب هم أهل الأرض التي ولد فيها وعاش فيها حامل الصليب وبشر ، وهدى الناس.. هم هؤلاء العرب من المسيحيين والمسلمين على السواء..

وهكذا كانت للوطنية مرة أخرى ، قوة العقيدة .. وأصبح الإيمان بالوطن ديناً قيمياً ..

وهكذا حارب المسيحيون العرب تحت راية صلاح الدين ، النسر الأحمر وهي راية استلهمها صلاح الدين من راية الرسول - صلى الله عليه وسلم - .. وتحت راية الإسلام حارب المسيحيون العرب دفاعاً عن الوطن ، وعن المقدسات المسيحية من ضلالات الصليبيين الأوروبيين ..

وما زال التاريخ يذكر بالإكبار عيسى العوام القائد القبطي الذي كان من أقرب أصحاب صلاح الدين إليه ، ومن أحسن أمراء العرب بلاءً في الحروب الصليبية ..

على أن معركة حطين بما انتهت إليه من نصر ساحق لصلاح الدين وجنده وهم يومئذ فئة قليلة ، هذه المعركة قد كشفت لبعض المحدثين من الصليبيين الأوروبيين عظمة الخلق العربي الإسلامي ، وجلال الفتوة العربية من عطف على الضعفاء ، والعفو عند المقدرة ، وحسن معاملة المغلوب والأسارى والنساء .. والنجدة والشهامة والبذل ، وشرف الخصومة ، فاقتبست أوروبا تلك الفضائل لتكون من مبادئ الفروسية ، ولتؤسس عليها حضارتها ..

ثم إن معركة حطين بما تلاها من انتصارات توجهها تحرير القدس من أيدي الصليبيين قد كشفت لكثير من الصليبيين أن القدس تحت حكم المسلمين خير من بقائها تحت سلطان الصليبيين ! .. وما أبعد الفرق بين يومين : يوم استولى عليها الصليبيون الأوروبيون فذبخوا عشرات الآلاف من أهلها ، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ، حتى أصبحت الخيل تنحوض في الدماء .. ثم يوم استردها العرب المسلمون بقيادة صلاح الدين ، فساعدوا الضعفاء ، وعفوا عمن قدروا عليهم من الأعداء ، وأطعموا الذين أنهكهم الجوع تحت الحصار الطويل ، وتعانق رنين أجراس الكنائس برجع الصدى من أذان المساجد ، وشمخت المآذن والقباب معاً تعبيراً عن أخوة الأديان وتسامح الأديان ..

ولعل من أهم ما تعظنا به حطين عبر ثمانية قرون أنها جمعت الذين يعيشون على الأرض العربية قبائل وشعوبا ، فحققوا بتجمعهم وتضامنهم النصر على عدوهم ، وحرروا أرضهم .. فلنذكر فلسطين كلما ذكرنا حطين .. ولناخذ من حطين ما يعين فلسطين .

وإننا لنغتنم آخر الأمر أن نعتبر ونتعظ ، وويل لمن لا يعظه التاريخ فلا يعتبر ولا يذكر ! وإذن فلتعلم من حطين أنه لا سبيل لنا غير التضامن الحق ، وأن الوطنية عقيدة وإيمان ، وأن الأخوة في الله والوطن نسب وقربى ، وأن الوطن للجميع والدين للديان ، ، ،

كلمة الدكتور عصمت عبد المجيد
نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية

السيد رئيس اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية

السيد رئيس مركز الدراسات العربية

لقد جاءت الندوة الدولية الخاصة بذكرى مرور ٨٠٠ سنة على موقعة حطين والتي تقام بالتنسيق والتعاون بين اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية ومركز الدراسات العربية في أوانها المناسب. فالمنطقة العربية-والتي تمثل مصر جزءا لا يتجزأ منها بل ربما إن شئنا الدقة تمثل قلبها النابض بالحب والوفاء والعطاء دائما- هذه المنطقة أحوج ما تكون الآن لإلقاء نظرة فاحصة ومتعمقة على تاريخها وحضارتها ، وعلى آمالها وطموحاتها. لكي ندرس ما فيه من أحداث ونستلهم ما في ذلك من دلالات ، ونحن نستشرف آفاق القرن الحادى والعشرين والذي يتسم بسرعة الأحداث وعمق المتغيرات الأمر الذى يستلزم يقظة الوعى وأصالة الإدراك لكل هذه العوامل ، حتى يمكننا أن نرسم إطار حركتنا السياسية والاجتماعية ، ونضع خططنا الاقتصادية بطريقة سليمة ، وعلى هدى مبادئ راسخة وأصيلة ، لترسى دعائم وحدتنا ، وتشد أزر تضامتنا .

إن مرور ثمانمائة عام على موقعة حطين ، والتي تمثل علامة بارزة فى تاريخ نضال أمتنا العربية والإسلامية ، ضد القوى المعادية لها ، أمر جدير بالاهتمام ليس فقط من قبل الأوساط الأكاديمية والمفكرين بل وأيضا من قبل رجال السياسة والعمل النشط لتطوير المجتمع .

إن اضطلاع اللجنة المصرية للتضامن ، ومركز دراسات الوحدة العربية بالدعوة لهذه الندوة لدليل واضح على تفاعل الهيئات غير الرسمية ومراكز الأبحاث

مع نبض هذا المجتمع ومشاكله وقضاياها وطموحاته ، ولأتى لعلى ثقة بأن
مداولات الندوة ومشاركة هذه الكوكبة من رجال العروة والإسلام فى مصر
والعالم العربى وغيرهم من المفكرين من دول العالم المختلفة . ستقدم مساهمة فعالة
فى إثراء الفكر والعمل فى منطقتنا العربية وتكون لبنة من أجل تشييد صرح
مستقبل أفضل لشعبونا وخطوة نحو تحقيق آمالنا .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا لخدمة أمتنا العربية ومصرنا الحبيبة .

معركة حطين في تاريخ صراعنا المستمر ضد الأطماع الاستعمارية

كلمة الأستاذ: عبد المجيد فريد
رئيس مركز الدراسات العربية (لندن)

حضرات السادة المحترمين ...

قدم مركز الدراسات العربية في لندن منذ نشأته عام ١٩٨٠ العديد من الدراسات وأقام العديد من الندوات الدولية واللقاءات العربية ، كما أصدر الكثير من الكتب والأبحاث ، وكانت كلها تتناول في مجملها معالجة القضايا والمشكلات العربية المعاصرة ، أذكر من هذه الندوات مثالين فقط الندوتين الأخيزتين « عرب بلا نفط .. نظرة مستقبلية لآثار هبوط العوائد النفطية » و « باب المندب والأمن القومي العربي » .

وإذا كان المركز بالاشتراك مع اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية قد أقدم على إقامة هذه الندوة « ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعمل العربي الموحد » فإنه بذلك لا يتخلى عن منهجه في معالجة القضايا العربية المعاصرة إلى حيث يقنع بالإبحار في التاريخ القديم استعذابا لمجد غابر ، أو احتفالا ببطولات قام بها الأقدمون نقف منها عند حد الذكرى والتحية ، حتى إن كانت واجبة ومفروضة نقوم بها جيلا بعد جيل نحو من قاموا بأداء الواجب فأحسنوه ، بل إن المركز يقدر بأنه في قيامه بالمشاركة في هذه الندوة يكون أكثر إيمانا في تمسكه بمنهجه ، فليس أكثر من التاريخ معلما ومرشدا لمن يريدون صياغة مجتمعاتهم أو صيانة أرضهم .

إننا هنا نستدعي التاريخ بكل وقائعه وأحداثه ، ظروفه وملابساته ، تجربته الحية التي كشفت عن أماكن القصور وأبعادها ، وكذلك حددت أوجه النصر وأسبابه . وقبل ذلك ومن بعده لماذا استهدفت هذه المنطقة في الماضي من

الاستعمار أيا كان نوعه ، ولماذا تستهدف الآن في الحاضر .

ثم ماهى العبرة التى نستخلصها من التجارب التى خاضها الآباء والأجداد ؟ وماهو درس التاريخ البليغ ؟ .

إننا هنا نستدعى التاريخ لكى نتخذ منه دليلا ومرشدا عبر المسالك والدروب التى تتعثر فيها قضايانا ومشاكلنا المعاصرة .

حضرات السادة ...

صلاح الدين الأيوبي واحد من القادة العظام الذين عرفهم تاريخ منطقتنا وهو وإن لم يكن عربى الأصل إلا أن إسهامه فى صد الحملات العسكرية المعادية والموجات الاستعمارية الوافدة على الأرض العربية ، ثم إسهامه بعد ذلك فى تحرير أجزاء أخرى من الأرض العربية من الغزاة الاستعماريين المتسترين وراء العلم الصليبي جدير بأن يعطيه تلك المكانة الرفيعة فى التاريخ العربى ، التى لم تجعل منه مجرد قائد بارز فى هذا التاريخ ، وإنما أعطته فوق ذلك هذا الوهج الذى جعل منه فى النهاية بطلا شعبيا ، مازال اسمه يتردد حتى على ألسنة العوام .. ورغم بعد الزمن وكثرة المعارك والأحداث .

وحطين لم تكن معركة ككل المعارك ، وإنما كانت معركة مصيرية ، فتحت الباب على مصراعيه لتحرير أجزاء كبيرة من الشام ، وقد حشد لها الصليبيون جيشا جرارا قوامه ٦٣ ألفا من الجنود . وهناك على جبل حطين دارت أعنف وأقسى وأشرس معركة سقط فيها من الصليبيين ثلاثون ألف قتيل ، ومثلهم أيضا كان عدد الأسرى ، وفى ذلك يقول أبو شامة فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » « إن من شاهد القتلى قال ما هناك أسير .. ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل ، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ماشى للمسلمين كيوم حطين » .

هكذا نالت معركة حطين جدارة الصدارة فى تاريخ تلك المرحلة ، وهكذا

تبوأ مكانة في التاريخ العربي ، وهكذا اكتسب صلاح الدين ذلك المجد وتلك الشهرة العريضة والواسعة .

حضرات السادة ...

لقد تسترت تلك الموجة الاستعمارية في أواخر القرن الحادى عشر تحت شعار تحرير الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ، وهى فى حقيقتها لم تكن حربا دينية بين المسيحية والإسلام ، حق وإن كانت الدعاية الدينية قد لعبت دورا كبيرا ومؤثرا ، وحقيقة هذه الحرب بالرغم من كل الأعلام الدينية التى رفعتها أنها كانت عملية نهب استعماري لم تشهد لها القرون الوسطى مثيلا ، كانت استعمارا أوربيا قبل أن تعرف أوروبا الثورة الصناعية أو تنمو فيها الحركة الرأسمالية .

يقول ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » إنه حين اشتد أمر الفرنج فى الأندلس بعد فتح طليطلة أرسل ملكهم إلى حاكم جزيرة صقلية (المسيحى) يخبره أنه فى طريقه إلى صقلية ليتوجه منها إلى احتلال تونس وشمال أفريقيا فتخوف حاكم الجزيرة من وصولهم إليه والأعباء التى سيتحملها ، فرد عليه مقترحا أن يتوجهوا بدلا عن ذلك إلى المشرق العربى وخاصة بيت المقدس .

إن كل المصالح تتجمع والأرض العربية فى النهاية هى الثمن وهى الهدف ، ويكفى أن نعلم أن القوى التجارية فى أوروبا كانت هى الممول لهذه الحروب والمحرك الرئيسى لها .

والطريف فى الأمر أنه بينما كانت المعارك مشتعلة ، والدماء تسيل أنهارا بين العرب والصليبيين ، كان التجار فى أوروبا لا يترددون فى بيع الأسلحة للعرب والتى يقاتلون بها الصليبيين ، بالإضافة إلى ما يلزم العرب أيضا من المواد الأخرى ، مما اضطرت الكنيسة معه أن تصدر قرارا « بأن كل من يجرؤ على أن يبيع للعرب أسلحة أو حديد أو خشبا لبناء السفن أو يبيعهم قوارب جاهزة فإن جزاءه سيكون الحرمان من الغفران فضلا عن مصادرة أمواله وحرية الشخصية » .

حضرات السادة ...

إن الحروب لا تقع مصادفة ، وحين تقوم الحرب فلا بد وأن يكون لها أسبابها ، والحروب تحركها المصالح .. وهى أحيانا لا تكون مصالح وطنية خالصة ، ولكنها مصالح طبقات وقوى اجتماعية نمت وكبرت إلى حد أصبحت تتطلع فيه عبر الحدود إلى حيث الثروات الطبيعية والمواقع الاستراتيجية ، وطرق المواصلات ، والأسواق الموسعة ، والأيدى العاملة الرخيصة .

ذلك هو التطور الذى حكم نظرة الغرب إلى الشرق على امتداد التاريخ منذ ازدهار الحركة التجارية فى أوروبا إلى الثورة الصناعية إلى النمو الرأسمالى وزحفه نحو المستعمرات . ولقد تميزت المنطقة العربية بموقعها الجغرافى ، وبثرواتها الطبيعية بحيث أصبحت هدفا للغزاة الطامعين وكذلك الحالمين بإقامة الامبراطوريات والممالك فى الشرق من الفاتحين والمغامرين على السواء ، ولقد تميز تاريخها تبعا لذلك بالحروب والمعارك ، وحركة الصراع التى لا تهدأ بين قوى الاحتلال الغازية ، والقوى الوطنية الرافضة .

ولقد تميز الدور المصرى منذ عصر النهضة الحديثة فى إطار حركة هذا الصراع بالنظر إلى طبيعة الموقع وطبيعة المجتمع المتجانس ..

كلنا نعرف عندما قام محمد على ببناء الدولة الحديثة القوية وفق قوانين القرن التاسع عشر بحيث تعد إحدى المراكز الجديدة للقوة العالمية ، وبعث النهضة العربية من جديد عبر توحيد الأرض العربية على امتدادها وفى هذا يقول « إبراهيم باشا » « سوف نستمر فى فتوحاتنا حتى نفصل بين من يتكلمون العربية وبين الذين لا يتكلمونها » . وقد كان بعث الأمة العربية مما يهدد مصالح قوى أخرى كبرى وعاتية ، ولذلك سرعان ما تحالف الغرب مرة أخرى لضرب هذا المشروع القومى الذى أقامة محمد على . كانت مصر هى قلب الأمة العربية ، وهى قلعة الزراعة والصناعة والثقافة والتعليم وهى فى النهاية قاعدة الانطلاق ، ورمز للتحدى فى ذلك العصر ، وسرعان ماجرى هذا التحالف الغربى فى مواجهة

مصر، وكان ثمرته معاهدة عام ١٨٤٠ والتي جرى بعدها تقسيم المنطقة والتهام الأرض العربية والإسلامية التي كانت مرتبطة في ذلك الوقت بالامبراطورية العثمانية وهي التي زحف إليها الضعف والوهن حتى لقبت باسم الرجل المريض .

وبعد مرور قرن من الزمان أو يزيد قليلا قامت مصر من جديد لكي تحطم أغلال التبعية وقيودها ، فكانت ثورة مصر عام ١٩٥٢ التي تحولت من مجرد ثورة وطنية محلية إلى ثورة قومية عربية تقتلع جذور الاستعمار من مصر ومن معظم الدول العربية . وتصبح مركزا رئيسيا وفاعلا في إطار حلقات ثلاث (العربية والأفريقية والإسلامية) وفي حركة التضامن الأفريقي - الآسيوي التي أرستها مع قادة ورؤساء دول العالم الثالث في باندونج كما ساهمت بدور رئيسي في إرساء دعائم حركة عدم الانحياز .

نهضت الأمة من جديد ، وتمت الوحدة بين قطرين عربيين وبإرادة عربية خالصة وبدأت حركة التعمير والتصنيع واستصلاح الأرض . لقد بدأ عصر النهضة وتحقيق المشروع القومي وصياغته وفق قوانين العصر الحديث .

إنه التحدي يقوم على الأرض العربية في مواجهة قوى الاستعمار . ولكن سرعان ما يتم التحالف وتدبير المؤامرات ، وتقع حرب عام ١٩٦٧ التي مهما كان حجم البقصور أو الأخطار الداخلية فيها ، إلا أن حجم دور التآمر الخارجي يبقى أكبر من كل ذلك بكثير . وإن كان الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل قد كشف جوانب كثيرة ، هامة وخطيرة في كتابه « ملفات السويس » عن التآمر الاستعماري حول ثورة يوليو وقائدها . فإن حرب ١٩٦٧ مازالت تمثل كتابا وفصلا في حركة النضال العربي لم تسطر بعد أخطر صفحاته ، ويكفي أن نستدل على ذلك من حجم المشروعات الاستعمارية المطروحة على المنطقة .

المشروع الأمريكي ومحاولة الهيمنة على المنطقة وانفراده بالقرار حول مصيرها .

المشروع الإسرائيلي ومحاولة تفتيت وتقسيم المنطقة إلى دويلات وإمارات وكيانات هزيلة يمكن التهامها في ساعات .

المشروع الايراني ومحاولة طمس وضياح الهوية العربية تحت دعاوى دينية وعنصرية . ونظرة واحدة على الخريطة العربية بأوضاعها الراهنة نلمح عمق المأساة وقساوة الواقع .

وأخيرا محاولة عزل مصر أو احتجائها وهي التي كانت دوما وعبر تاريخ طويل الإقليم القاعدة حين يلوح أو يخلق الخطر .

والأكثر من ذلك محاولات ضرب الوحدة الوطنية وزرع الفتنة بين عنصري الأمة، وكانت مصر دائما أرض السباحة والصفاء ، كما كانت أرضا للأمن وللاستقرار .

في إطار ذلك كله نشعر أننا في حاجة أكيدة إلى الإبحار في التاريخ لكي نأخذ الدرس ونستلهم العبرة .

إن الانتصار لم يتولد في أى معركة إلا في إطار الوحدة الوطنية وتحت الراية القومية .

هكذا تصدينا لكل الفاتحين والغازين الذين وفدوا إلينا موجات وراء موجات .. وإذا كان الشغل الشاغل الآن للسياسة العربية هو الإعداد للمؤتمر الدولي، وترتيب أوضاعه والمشاركين فيه وهل يتم بحضور السوفييت أو يتم بجهد أمريكي أو أوروبي . فإن كل تلك الجهود لا يمكن أن تسفر عن شيء يحقق للأمة ولو بعضا من آمالها .

إن المؤتمر الدولي لن يكون في قراراته ونتائجه سوى انعكاس صريح ومباشر لحالات الانقسام التي تعانيها الأمة .

لابد أن تتوفر ابتداء إرادة عربية واتفاق عربي يدرك أنه لا يمكن أن يحقق أمن إقليمي إلا في إطار الأمن العربي القومي بمعناه الشامل . وهو الأولى بكل حساب .

لقد علمنا التاريخ عبر كل الوقائع والأحداث أن أرضنا مستهدفة بفعل

المكان وما تختزنه الأرض من ثروات . وأن النصر لم يتحقق إلا بالعمل العربي الواحد والجهة العربية المتحدة .. إنه درس الزمان .. ومكانة المكان .

أو التاريخ والجغرافيا الدليل والمرشد لكل من يريد البحث عن المبررات والأسباب .

والطريف في الأمر حول دراستنا لهذا الموضوع أن أحد مراكز الدراسات في إسرائيل يقيم في الأيام القليلة القادمة ندوة حول نفس الموضوع وبنفس الاسم « حطين صلاح الدين » .

ختاما .. شكرا وتقديرا للجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية وعلى رأسها الأخ الزميل أحمد حمروش .. ويذكر له مركز الدراسات العربية في لندن مساهماته ومشاركة اللجنة لنا في الانجازات التي قام بها المركز في ندواته ودراساته وفقا لبروتوكول التعاون الذي وقع بين المركز واللجنة منذ عدة سنوات .

القسم الثاني

مَعْرَكَةُ حِطَّيْنِ

الحملة الصليبية تصورات مختلفة

بقلم المؤرخ البريطاني مونجمري وات

نجاح الحملة الصليبية الأولى يعود إلى حد بعيد إلى حقيقة أنه في نهاية القرن الحادي عشر لم يكن هناك حاكم مسلم قوى واحد في المناطق التي هاجمها الصليبيون . بل كان هناك عدد من الحكام المحليين الصغار الذين أنفقوا الشطر الأكبر من وقتهم وطاقاتهم في قتال جيرانهم .

خلال القرون التي انقضت منذ وقوع الحملات الصليبية ، تم النظر إلى هذه الحملات بطرق متعددة ومختلفة من جانب كل من المسيحيين والمسلمين .
وفي أواخر القرن العشرين ، وحيث أصبحت العلاقة بين الإسلام والمسيحية وثيقة الصلة بالسياسة الدولية على الصعيد الكوني ، فإنه من الأهمية بمكان ضرورة إدراك كل جانب لما كانت تعنيه الحملات الصليبية للجانب الآخر في الماضي ، ولما تعنيه له الآن .

ونقطة البدء الملائمة لفحص هذه الأمور هي تبيان فكرة المسيحي العادي عن الحملات الصليبية وشعوره إزاءها خلال الربع الأول من هذا القرن .
ويمكن التسليم بأن هذا المسيحي العادي قد تبلور إدراكه للمعنى الأصلي للحملات الصليبية - على النحو الذي عرفه قاموس اكسفورد الإنجليزي - باعتبارها « حملة عسكرية اضطلع بها المسيحيون في أوروبا في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر لاسترداد الأرض المقدسة من (المسلمين) » ، بالإضافة إلى أنه اعتبرها أمراً طيباً وأهلاً للتمجيد .

هذه النظرة جعلت من الممكن له استعمال نفس الكلمة على مساعي أو مشروعات معاصرة تستهدف التخلص من شكل ما من أشكال الشر الشائع ، أو مقاومة مؤسسة أو طائفة من أشخاص ينظر إليهم كشر ، فنجد أن الصحفيين الذين كانوا يقومون بتغطية زيارة مرجريت تاتشر إلى موسكو ، في مارس ١٩٨٧ ، وصفوا هذه الزيارة بأنها « حملة صليبية » من أجل القيم الرأسمالية وحقوق الإنسان .

وقد ارتكز هذا التصور ، الممتدح للحملات الصليبية ، على عاملين يمكن النظر إلى كل منهما بصورة مستقلة عن الآخر . كان العامل الديني أحدهما ، وكان العامل الثانى بمثابة فكرة رومانسية - بنحو ما - عن الفرسان والفروسية .

فطيلة قرن أو يزيد قبل دعوة البابا إيريان الثانى Urban II للحملة الصليبية الأولى عام ١٩٠٥ ، كانت هناك فى أوروبا الغربية دلائل على حمية دينية متنامية . وكانت هناك حركات إصلاحية عديدة انصب هدفها على التخلص من الفساد الذى ظهر فى الكنيسة بدرجات مختلفة . وفى فترة مبكرة تعود إلى عام ٩١٠ أقيم دير فى كلونى بفرنسا لممارسة شعائر أكثر صرامة للناموس الرهبانى البندىكى^(١) ، وفى القرن الحادى عشر أنشأ هذا الدير مائتى دير تابعة له . كما كان الاشتراك فى رحلات الحج أحد الأشكال التى عبرت بها الحمية الدينية المتزايدة عن نفسها . وكان ضريح القديس جيمس - فى كومبوستيللا الواقعة شمال غربى أسبانيا - أحد مراكز الحج الشهيرة . لكن رحلة الحج التى كانت تكتسب مكانة رهيبة أكثر من كل ما عداها فكانت تلك التى تتجه إلى القبر المقدس بالقدس (وهو الضريح الذى يرقد فيه جسد يسوع المسيح) .

الجدير بالذكر أن القدس كانت ، فى الشطر الأكبر من القرن الحادى عشر ، تقع ضمن نطاق الأقاليم التى يحكمها الخلفاء الفاطميون من القاهرة . وعلى وجه العموم قام هؤلاء الخلفاء بعمل اللازم من أجل توفير ظروف طيبة بصورة معقولة للحجاج المسيحيين . وعلى سبيل الاستثناء فقط يقال إن الحجاج عوملوا بنحشونة فى عهد «الحاكم» (بأمر الله) (٩٩٦ - ١٠٢١) .

عند هذه النقطة يكون من الملائم أن نقتطف بعض الفقرات من المؤرخ الكبير للإمبراطورية الرومانية ، ادوارد جيبون Edward Gibbon ، نظرا لأن

(*) نسبة إلى القديس بندىكت . والجمعية الرهبانية التى تأسست بإيطاليا عام ٥٢٩ ميلادية . (الترجم) .

معالجته لتاريخ الصليبيين قد تركت - على الأرجح - تأثيرا هاما على الأفكار الأوربية اللاحقة إزاءهم :

قام الخلفاء التالون (يعنى : الذين جاءوا بعد الحاكم بأمر الله) باستعادة العمل بالمبادئ الأساسية للدين والسياسة ، وتم إقرار سياسة التسامح الدينى الحر مرة أخرى .. وبعد فترة قصيرة من التوقف عاد الحجاج بإقبال متزايد للاحتفال الدينى الروحى .

وكانت رحلة الحج إلى فلسطين عن طريق البحر محفوفة بالمخاطر ، كما كانت فرص الاشتراك فيها محدودة للغاية . لكن تحول المجر (يعنى : إلى المسيحية) أتاح وسيلة اتصال آمنة بين ألمانيا واليونان (يعنى : الإمبراطورية البيزنطية) .. وفاق حماس الفرنجة للحج كل الأمثلة المعهودة فى الأزمان السابقة ، حتى إن الأعداد الغفيرة من الحجاج - من الرجال والنساء ومن كل المراتب الاجتماعية - غطت الطرق .. كما هجر الأمراء والأساقفة العناية بإقطاعياتهم ، وكانت مجاميع هذه القوافل الدينية هى مقدمة الجيوش التى زحفت فيما بعد (إلى بيت المقدس) تحت راية الصليب . فقبل الحملة الصليبية الأولى بنحو ثلاثين عاما قام رئيس أساقفة ميتر Mains ، ومعه أساقفة أوترخت Utrecht وبامبرج Bamberg وراتسبون Ratisbon ، بهذه الرحلة المجهدة من الراين إلى الأردن ، على رأس سبعة آلاف شخص من أتباعهم^(١) .

ومن ١٠٧٦ إلى ١٠٩٦ كانت القدس تحت حكم الزعيم التركى (التركمانى) سكرمان أورتوك Suqman 6. Urtuq ، الذى كان تابعا - من الناحية الاسمية - للأمير السلجوقى توتوش Tutush . ووفقا لما كتبه جيون فإن هذا الحكم جعل الحياة صعبة - مرة أخرى - للحجاج القادمين من الغرب . « فالحجاج الذين نجحوا فى الوصول إلى بوابات القدس بعد اجتيازهم مخاطر لا تعد ولا تحصى ، وقعوا ضحايا لنهب اللصوص واضطهاد الحكام ، وغالبا ما رزحوا تحت وطأة المجاعة والمرض قبل أن تتاح لهم تحية القبر المقدس » . ويعتقد

جيبون أن مثل ضروب المعاناة تلك التي وقعت في ظل الحكم التركي كان لها ضلع كبير في إثارة الروح الصليبية في أوروبا ، لاسيما من خلال عظات بطرس الناسك Peter the Hermit .

فبعد الفتح التركي للقدس بنحو عشرين عاما زار القبر المقدس ناسك من أمين Amiens في مقاطعة بيكاردى بفرنسا ، يدعى بطرس .. (وإذ ذاك أخبره بطريك القدس بأنه لا يمكن توقع أى عون من الامبراطور البيزنطى) ، وأعلن : « سأستهض الأمم الشجاعة في أوروبا لنصرة قضيتكم » ، وقد امثلت أوروبا بالفعل لدعوة الناسك ..

لقد عاد الناسك من الحج إلى بيت المقدس مفعما بالتعصب ، ومع تفوقه في إلهاب الجنون الشعبي في ذلك العصر استقبله البابا ايريان الثانى كنبى ، وامتدح مخططة المجيد ، ووعد بمساندته في المجلس الكنسى العام ، وشجعه على إعلان الدعوة إلى تحرير الأرض المقدسة . وبالقوة الجديدة التي اكتسبها من استحسان البابا لدعوته اجتاحت حملته التبشيرية الحماسية مقاطعات إيطاليا وفرنسا ، بسرعة ونجاح .

لقد كان بطرس الناسك معتدلا ومقلا في طعامه ، لكن صلواته كانت طويلة ومتقدة بالحماسة .. ولم يكف عن إلقاء عظاته إلى حشود غفيرة في الكنائس ، والشوارع ، والطرق العامة ، حتى دخل - بنفس الثقة - إلى القصر والكوخ ، وتأثر الناس تأثرا عنيفا بدعوته إلى التوبة وحمل السلاح . وعندما كان يصور لهم معاناة أهل فلسطين وحجاجها كانت القلوب تنفطر وتعتصرها الشفقة . وتفجرت الصدور بالنقمة عندما طالب محاربى عصره بالدفاع عن إخوتهم وإنقاذ المخلص المسيح .

أما جهله بالفن واللغة فقد عوضه بالتهديدات والدموع والهتافات القوية المفاجئة .

لكن المؤرخين المحدثين يميلون إلى الاعتقاد بأن جيبون قد بالغ في مدى

وخطورة المعاملة الخشنة التي لقيها الحجاج على يد الأتراك . وربما أيضا في تأثير بؤس الناسك . ومع ذلك فانه من المؤكد أنه كان هناك حماس واسع النطاق للحج . ودرجة قوية في رؤية ظروف أفضل للحجاج في القدس . وجاء البابا ايربان الثاني - في نهاية المطاف - ليوجه هذه الحماسة الدينية المتدفقة ، فقدم - إلى اجمع الكنسى في كليرمونت بفرنسا عام ١٠٩٥ - خطة للقيام بحملة صليبية ، ودعا النبلاء والعامّة إلى التطوع فيها بـ « اتخاذ الصليب » . أى بوضع صليب أحمر على ثيابهم . ومن عملية اتخاذ الصليب هذه تم اشتقاق كلمة « حملة صليبية » .

وثمة تعبير آخر عما كان يعنيه الاستخدام الشائع لكلمة « حملة صليبية » للمسيحيين الغربيين . يمكن العثور عليه في حديث الاستهلال للفصل الأول من مسرحية الملك هنرى الرابع لوليم شكسبير .

فالملك هنرى ينظر إلى قراره بالانضمام إلى الحملة الصليبية كقرار يساعد على إنهاء القتال بين الانجليز ، ويستطرد :

ولذلك يا أصدقائى .

وبقدر ما يتعلق الأمر بقبر المسيح -

الذى يقف جنده الآن تحت الصليب المقدس .

نلتزم ونتعهد بالقتال -

ونعقد العزم على أن نقوم فى التو واللحظة بتجنيد قوة الانجليز ،

الذين صبت أسلحتهم فى أرحام أمهاتهم

لمطاردة هؤلاء الوثنيين فى تلك الساحات المقدسة ،

فوق هذه الأرض التى وطأتها الأقدام المباركة .

تلك الأقدام التى صلبت وثبتت بالمسامير منذ أربعمئة عام

وحيث توجد أفضليتنا على الصليب المر .

أما العامل الثانى الذى أدى إلى شيوع التصور الممتدح للحملة الصليبية .

والذى وجد فى الغرب فى أوائل هذا القرن . فقد تمثل فى إعلاء المثل الأعلى الرومانسى للفارس ولأخلاق الفرسان الذين يجوبون الأخطار .

ومع أن نموذج هذا الفارس الجوال كان - أثناء مرحلة انحطاط الفروسية - موضع استهزاء سيرفانتيس cervantes فى روايته الشهيرة دون كيشوت . فإنه كان نموذجا شاعرا فى أوج ازدهار الفروسية . حيث كان الفارس - الرحالة رجلا يخرج بحثا عن المغامرة . لكن هذه المغامرات كانت كلها دفاعا عن الفقراء والضعفاء ولإنقاذ أولئك الذين يعانون من الظلم والاضطهاد .

وخلال القرن الحادى عشر تعززت مكانة الفارس بصورة كبيرة . وأصبح شخصا تحوطه حالات التبجيل . وكان الفارس . فى أوروبا الغربية فى ذلك الوقت ، هو ذلك الشخص الذى يخرج للقتال مرتديا درعا معدنيا يغطيه من قمة الرأس إلى القدم ، وممتطيا جوادا مدرعا هو الآخر . وقد ألقت هذه الوحدة بين الفارس المدرع والجواد المدرع آلة قتالية هائلة . وكان باستطاعة عدد صغير نسبيا من الفرسان أن يلحقوا الهزيمة بجيش كبير من الفرسان . وبالطبع . كان المدرع مكلفا . ولذلك كان باستطاعة الأشخاص اليسورى الحال فقط أن يصبحوا فرسانا .

وفى فترة سابقة على ذلك . خلال عهد شارلمان Charlmagne (٧٦٨ - ٨١٤) وفى العصر اللاحق له ، كان هناك أباطرة وملوك أقوياء . ولذلك عاش عامة الناس فى أمان نسبي معظم الأوقات . إلا أن الحكم المركزى القوى اختفى فى القرن العاشر وانتقل واجب الدفاع من عامة الناس إلى كاهل الفرسان المحليين . وكان لهذه الوظيفة الاجتماعية الجديدة تأثير كبير على تنامي تبجيل الفروسية . وساهمت الكنيسة المسيحية فى هذه العملية بإعلانها للتعالم القائلة بأن الفروسية مهمة أو مهنة مرموقة . وبهذا أسبغت الكنيسة الصبغة الإنسانية أو الحضارية على رجال الحرب الحشنيين فى أوروبا الغربية ، الذين كانوا قبل فترة ليست طويلة - على حد تعبير أحد الكتاب - لا يفترون كثيرا عن الأجلاف

المشتغلين بالسلب والنهب^(٢) . ومع نهاية القرن الحادى عشر لم تعد العناصر
الأفضل من هؤلاء مجرد محاربين مقتدرين . وإنما أصبحوا أيضا أشخاصا فوارس
ودمى الخلق والإحساس بالانتماء إلى جماعة الصفوة الاجتماعية .

واستمر المثل الأعلى للفارس فى نيل إعجاب لا يقل عن ذلك فى الحقبة
القرية من عام ١٨٠٠ عندما كانت الحركة الرومانسية قوية . وكان هذا
الإعجاب مرتبطا بالحملات الصليبية على وجه الخصوص . ولذلك . ظهر أكثر
من كتاب تحت عنوان تاريخ الفروسية والحملات الصليبية . ويمكن - بهذا
الصدد - اقتطاف فقرة من المقدمة التى كتبها الروالى الرومانسى الكبير السير والتر
سكوت Sir Walter Scott لروايته التى كتبها عن الحملات الصليبية ، التى
أسمها الطلسم Talisman . كتب :

إن الفترة المرتبطة بالحملات الصليبية بصورة مباشرة أكبر ، والتى اخترتها
فى النهاية . كانت هى تلك الفترة التى تجلت فيها سمة ريتشارد الأول
الحرية . بجموحها وشهامتها وفروسيها ، وبكل فضائلها وكل أخطائها التى
لاتقل منافاة للعقل ، فى مقابل شخصية صلاح الدين التى رأى فيها
العاهل المسيحى والانجليزى كل القسوة والعنف (التى من المفترض أن تميز
حاكما) شرقيا . ومن الناحية الأخرى أبدى صلاح الدين حكمة وحصافة
عميقتين لعاهل أوربى . فى حين تبارى كل منهما على من يتفوق على الآخر
فى السجايا الفروسية للشجاعة والشهامة .

إلى هذا الحد كان التأكيد على الحقيقة القائلة بأن المسيحيين من ذوى التفكير
العادى فى أوائل هذا القرن قد نظروا إلى الحملات الصليبية والدعوة إليها من
خلال غلالة ضبابية رومانسية . بوصفها شيئا يستحق الإعجاب .

ومع ذلك . فإننا نجد قبل ذلك بفترة طويلة مؤرخين غربيين انتقادين
صاغوا أفكارا جد مختلفة عن الحملات الصليبية . وفى الحقيقة فإن السير
والتر سكوت كان مدركا - رغم نزعته الرومانسية - أن بطله . ريتشارد قلب

الأسد ، كان مذنباً في اقترافه قسوة وعنفاً فظيعين . وعلى سبيل المثال . فإن أى شخص يطلع على المصادر الأصلية سيعرف قطعاً أن فتح القدس عام ١٠٩٩ قد أعقبه سلب ونهب ومذابح . وهذا هو ما أوضحه أيضاً بالفعل إدوارد جيبون . الذى كان مفكراً حراً بنحو ما وناقلاً متطرفاً للطقوس والمراسم المسيحية . ويشتمل وصفه لسقوط القدس على الفقرة التالية :

قربان دموى قدمه أنصاره المتحمسون ذوى الأفكار الخاطئة إلى إله المسيحيين . وقد تكون المقاومة التى لاقوها قد أثارت حقهم . لكن غضبهم العام المفعم بالحقد لم يميز بين رجل وامرأة أو بين شاب وشيخ . فأطلقوا العنان لأنفسهم ثلاثة أيام أقاموا فيها مذبحه عمياء . لدرجة أن تلوث جثث القتلى أدى إلى تفشى الأوبئة . وبعد قطعهم رقاب سبعين ألف مسلم بالسيف . وإحراقهم اليهود المسالمين في معبدهم . ظلوا يحتجزون عدداً غفيراً من الأسرى الذين كان من شأن تقاعسهم أو اهتماماتهم الخاصة أن يغريهم بالصفح عنهم .

وخلال القرن التاسع عشر بدأ مؤرخون غربيون في النظر أيضاً إلى العوامل الاقتصادية والسياسية الكامنة خلف الحملات الصليبية . وسرعان ما أدركوا أن القرن الحادى عشر كان عصراً استطاع فيه كبار حكام أوروبا الغربية تحقيق درجة أكبر من الأمن لعامة الناس في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم . وقد أدى هذا إلى رخاء متزايد وإلى نمو عدد السكان . وقد حلت هنا بالبعض إلى الاتجاه إلى استيطان الأراضي غير المزروعة في شرق بروسيا ودول البلطيق . لكن لم يكن هناك المزيد من الأرض المتاحة لإقامة مثل هذه المستوطنات . ووجد الأبناء الأصغر لأسر النبلاء - على وجه الخصوص - صعوبة في إيجاد مكان لأنفسهم في البنية الاجتماعية ، مما أدى إلى نشوب القتال بين الجماعات الأقل نبالة . من هنا . نظر البابوات وكبار رجال الدولة الآخرين إلى الحملات الصليبية باعتبارها وسيلة لتوجيه الجذوة القتالية إلى الخارج نحو أعداء مشتركين . وبهذا يقللون التراع الضروس في الداخل . ومع ذلك فإن دوافع معظم الفرسان الذين شاركوا في

الحملات الصليبية كانت دوافع دينية في المقام الأول . وإن كان هنالك بلاشك عدد قليل من أولئك الذين انصب اهتمامهم الأساسي على إيجاد منطقة جديدة يمكن أن يصبحوا فيها حكاما مستقلين بدرجة تزيد أو تقل .

وتبنى عدد قليل فقط من المؤرخين الرأي القائل بأن الحملات الصليبية كانت تغزى أساسا إلى المصالح الاقتصادية للمدن التجارية الإيطالية ، أمالقي وفينيسيا وبيزا وجنوة . أما الإجماع الآن فهو على الرأي التاريخي القائل بأن هذه المصالح التجارية لم تلعب دورا في بدء الحملات الصليبية لأنه لم تكن قد نشأت صعوبات كبيرة في التجارة مع مصر وسوريا . لكن بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في إنشاء دويلات صغيرة في سوريا أصبحت المدن الإيطالية مدركة للفرص الجديدة التي خلقها ذلك للتجارة . ومن ثم لعبت هذه المدن دورا هاما في مساعدة الصليبيين من أجل الحفاظ على موطئ أقدامهم .

كذلك أصبح واضحا للمؤرخين الغربيين أن الحملة الصليبية الأولى كانت مشروعا متهورا إلى حد ما . فمعظم قادة هذه الحملة الصليبية ربما لم تكن لديهم أدنى فكرة عن الظروف التي سيتعين عليهم القتال فيها . ولو أن عددا قليلا منهم هم أنفسهم قد شارك في الحج إلى بيت المقدس . فنجاح هذه الحملة يغزى - إلى حد بعيد - إلى حقيقة أنه في نهاية القرن الحادي عشر لم يكن هناك حاكم مسلم قوى واحد في المناطق التي هاجمها الصليبيون ، بل كان هناك عدد من الحكام المحليين الصغار الذين أنفقوا الشطر الأكبر من وقتهم وطاقاتهم في قتال جيرانهم . وقد جعل هذا من المستحيل عليهم أن يتحدوا ضد الغزاة . وهناك - في الواقع - أمثلة عديدة لمسلمين انضموا إلى المسيحيين في قتال مسلمين آخرين . وبمجرد وضع حد لهذا القتال الدائر بين المسلمين . وظهور عاهل واحد قوى ، عجز الصليبيون عن الحفاظ على دوحهم . وقد بدأ (عماد الدين) زنكي مسيرة التوحيد الفعال للمنطقة الممتدة من الموصل إلى مصر ، وواصلها نور الدين (محمود) . وأكملها صلاح الدين . وبمجرد تحقيق هذا التوحيد أصبح مؤكدا أن الصليبيين سيتم طردهم .

من ناحية أخرى . تناول المؤرخون شتى الأسباب التي حدثت بالبابوات إلى مباركة وتشجيع الحملات الصليبية .

وبطبيعة الحال كان البابوات مهتمين بضمان حرية وصول الحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة في القدس وغيرها من الأرض المقدسة . إلا أن هذا لم يكن محط اهتمامهم الوحيد . فهم لم يكونوا راضين عن امتداد القتال الذي استمر في النشوب في أوروبا الغربية بين جماعات مختلفة من المسيحيين كما أشرنا من قبل . ونذلك فإنهم عولوا على إضعاف هذا القتال بتوحيد الطاقات القتالية ضد عدو غير مسيحي .

والشيء الآخر الذي كان موضع اهتمام البابوات هو العلاقة مع النصف الشرقي للكنيسة . حيث إن الروم الكاثوليك . أو الكنيسة اللاتينية لأوروبا الغربية ظلت معزولة تماما عن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية لأوروبا الشرقية وشرق البحر الأبيض المتوسط طوال القرن الحادي عشر أو الثاني عشر . وقد درجت العادة على إرجاع تاريخ هذا الانشقاق (كما يسمى في اللغة اللاهوتية) إلى عام ١٠٥٤ . لكن الباحثين يميلون الآن إلى الاعتقاد بأنه رغم أن عام ١٠٥٤ يميز مرحلة هامة في تاريخ فصل الفرعين الشرقي والغربي للكنيسة . فإن الفسخ النهائي لم يحدث إلا في القرن التالي . فالفرع الشرقي للكنيسة كان متطابقا ، على نحو وثيق . مع الإمبراطورية البيزنطية . وهذه الإمبراطورية لقيت هزيمة خطيرة من المسلمين عام ١٠٧١ في معركة مانزيكرت Manzikert (معركة ملازكرد) . وتم بالتالي إرغامها على الانسحاب من معظم أنحاء آسيا الصغرى . وقبل فترة وجيزة من انعقاد مجلس كليرمونت الكنسي عام ١٠٩٥ التمس الإمبراطور البيزنطي في تلك الأيام العون من البابا ضد المسلمين . وربما كان كل ما يأمل فيه الإمبراطور هو تجديد مرتبة لمساعدته . ولم يكن لديه - بالتأكيد - أى ميل لاستقدام تلك الحشود صلبة المراس من الجنود الصليبيين الذين حطوا بالفعل على عاصمته القسطنطينية . ولاشك أن البابا إيربان الثاني كان متلهفا لمساعدة البيزنطيين على أمل أنه إذا خفف حدة التوتر بين المسيحيين الشرقيين

وأنغريين . فإن انقضية انكاملة في العلاقات التي بدت وشيكة الوقوع . يمكن تجنبه . إلا أنه رأى أيضا أن دعوة انرجان إلى الانضمام إلى حملة عسكرية لمساعدة انييزنضيين ستكون أكثر إغراء إذا ما كانت مصحوبة بفكرة الحج إلى القدس وتحرير الأماكن المقدسة من السيطرة غير المسيحية . وفي واقع الأمر فإن الحملات الأولى إذا كانت قد مرت في طريقها بالقسطنطينية . فإن القدس كانت غايتها .

على صعيد آخر نجد على مدار بضعة قرون أنه كان هناك مسيحيون أدانوا كل أشكال الحروب . لاسيما جمعية الأصدقاء Society of Friends (المعروفة بصورة شائعة باسم الكويكرز Quakers) . لكن القرن الحالى شهد تزايد كبيرا في نزعة اللاعنف المسيحية . وقد أثر هذا على مواقف الناس إزاء الحملات الصليبية . وفكرة الحرب الصليبية برمتها أصبحت موضع اشمئزاز للنصير الحقيقى للسلام ونبد العنف . بل إن أشخاصا يتبنون أفكارا أقل تطرفا من هؤلاء أصبحوا من متقدي فكرة الحملة الصليبية أو الحرب المقدسة . وقد دعا بعض المؤرخين إلى الالتفات إلى التغير في موقف الكنيسة إزاء الحرب التي وقعت في نصف القرن السابق على الحملة الصليبية الأولى . ففي تلك الأوقات الأسبق كانت الكنيسة تبشر بالتعاليم القائلة إن قتل الناس وإصابتهم في حرب عمل أثم . وكانت تطالب الرجال بضرورة الكفارة^(١) عن مثل هذه الخطايا . وبعد معركة هاستنجر Hastings عام ١٠٦٦ ، عندما قام الأمير النورماندى المعروف الآن باسم ويليام الفاتح بتنصيب نفسه ملكا لانجلترا ، طوبى رجاله الذين قتلوا أو أصابوا أعداءهم بالكفارة . وكان هذا رغم حقيقة أن ويليام ورجاله كانوا يقاتلون بموافقة بابوية من أجل ما كان يعتبر قضية عادلة . إلا أن مدة ولاية البابا جرينجورى السابع (١٠٧٣ - ٨٥) شهدت تغيرا في هذا الموقف . وقال البابا الجديد إنه إذا كان الهدف من الحرب إقامة النظام

(١) الكفارة ، أو العمل التكفيرى . عقوبة ذاتية يتزها الآثم بنفسه تعبيرا عن توبته . (المترجم) . .

الصحيح « في المجتمع البشرى ، فلا يجب النظر إليها على أنها عمل أثم . وإنما تصبح - على العكس - عملا جديرا بالتقدير .

وأكثر من هذا شهدت مدة ولاية البابا جريجورى الاعتراف برجل أو اثنين كقديسين . أما قلاستهم التى أسبغت عليهم فكانت راجعة إلى نشاطهم الحرفى . وبسبب هذا التغير الذى طرأ على موقف الكنيسة أصبح أمرا جديرا بالمديح والتجيد بالنسبة للمسيحيين أن يشاركوا في حرب تستهدف جعل الأماكن المقدسة آمنة للحجاج . وكنيسة طليعية لهذا الموقف المتغير إزاء الحرب تم النص صراحة على أن الإسهام في حملة صليبية يعتبر شكلا من أشكال التكفير الذى يودى إلى الغفران لكل خطايا الإنسان .

ولإكمال هذا العرض لآراء المؤرخين الغربيين المحدثين ينبغي أن نقول شيئا عن معالجة ارنولد توينبي Arnold Toynbee للحملات الصليبية في كتابه « دراسة التاريخ » المؤلف من اثني عشر مجلدا . في هذا الكتاب يقارن توينبي بين الحضارات ، إحداها بالأخرى ، من أجل اكتشاف الأسباب العامة لنموها وانحطاطها واندثارها . وعلى هذا النحو فإنه ينظر إلى الأحداث من منظور أوسع من منظور المؤرخ الذى يهتم بالحملات الصليبية فقط . أو أوروبا الغربية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر فقط . ونتيجة لهذا المنظور يرى توينبي أن الحملات الصليبية بدأت عام ١٠١٨ ، قامت زمرة من الفرسان الفرنجة ، وأتباعهم ، بعبور جبال بيرتر Pyrnees . من فرنسا إلى اسبانيا . لمساعدة المسيحيين هناك ضد المسلمين . وبين هذا التاريخ وبين شن الحملة الصليبية الأولى - بالمعنى المؤلف - كان هناك عدد من الحملات الأخرى من فرنسا إلى أسبانيا . وهذه الحملات حظت بتشجيع الكنيسة وكان ينظر إليها كجزء من الحرب ضد المسلمين بالتيابة عن العالم المسيحى . ونتيجة لهذه الحملات كان هناك مزيد من الاستعداد . لاسيما في فرنسا ، للانضمام إلى الحملة الصليبية الأولى .

وبعد فشل الحملات الصليبية ككل ، يرى فيها توينبي نفس العوامل التى

أدت إلى توسع أوروبا الغربية . إلى البلطيق أولا . ثم بعد ذلك إلى العالم الجديد عبر المحيط الأطلنطي . ومما تجدر ملاحظته - بهذا الصدد - أن بعض المستوطنين الأوائل لأمريكا كانوا يعتبرون أنفسهم حجاجا . فنجد أن الآباء الحجاج الذين أبحروا بسفينة « زهرة مايو » عام ١٦٢٠ إلى الولايات المتحدة اعتبروا أنفسهم مقتدين بنموذج موسى عندما قاد الاسرائيليين من مصر إلى الأرض الموعودة . فهم قد تركوا بلدا لم تكن لهم فيه حرية ممارسة ديانتهم على النحو الذي أرادوه . وتصلعوا إلى بلد جديد يكون حرا من الناحية الدينية . هذا الحافز الديني لدى بعض الآباء المؤسسين للولايات المتحدة قاد الأمريكيين - بلاشك - في القرن التاسع عشر للحصول على مناطق نفوذ خاصة بهم في الأراضي التي كان يوجد بها انصليبيون . ولإنشاء معاهد تعليمية في بيروت وفي مدن أخرى في الامبراطورية العثمانية .

ويرى توينبي أيضا أن الاهتمام المستمر . الذي أولاه البريطانيون للأراضي المقدسة . هو الذي أدى إلى أحداث مختلفة ، مثل التورط في حرب القرم (١٨٥٤ - ٥٦) . وقبول الانتداب على فلسطين بعد ذلك في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ونفس هذا الاهتمام بالأرض المقدسة هو الذي قاد مجموعة « مسيحي الكتاب المقدس » الفيكتوريين إلى إنشاء « الصندوق المالي لاستكشاف فلسطين » Palestine Exploration Fund عام ١٨٦٤ للقيام باستقصاءات أثرية في المواقع التي وردت في الكتاب المقدس . وقبل ذلك في عام ١٨٤١ تم إنشاء أسقفية في القدس بالاشتراك بين الانجليكان واللوثريين الألمان .

أما الجانب الأكثر إثارة في دراسة توينبي . فهو مناقشته لسياسة البابوات ، التي يعالجها تحت عنوان « نشوة النصر المسكرة » . إن توينبي يمتدح بلا تحفظ ما حققته إصلاحات هيلدبراند بتطهيرها وتقويتها للكنيسة . وبخلقها ما يسميه بالجمهورية المسيحية Republica Christiana في أوروبا الغربية ، تلك « الجمهورية » التي أقر فيها الحكام العلمانيون بالسلطة الروحية الملقاة للكنيسة .

(كان هيلدربراند - الذى أصبح عام ١٠٧٣ البابا جريجورى السابع - مهيمنا بصورة فعالة على السياسة البابوية فى السنوات العشرين السابقة تقريبا) . ومع ذلك يعتقد توينبى أن هيلدربراند (أو جريجورى) وأولئك الذين اتبعوا سياساته قد أخذوا بنشوة نجاحهم وحاولوا كسب المزيد من « الغايات الروحية بطرق عسكرية مختصرة » . وإذا كان هذا يشير فى المقام الأول إلى أحداث معينة وقعت فى أوروبا الغربية ، إلا أن توينبى ينظر أيضا - من نفس وجهة النظر هذه - إلى الحملات الصليبية باعتبارها « ترجمة خاطئة للحنين الروحى للماضى إلى احتلال عسكرى »^(٣) .

ويذهب توينبى - ومعظم المؤرخين الغربيين المعاصرين الآخرين فى الحقيقة - إلى التسليم بأن الحملات الصليبية شكلا من أشكال الاستعمار . فمن المؤكد أن بعض الصليبيين كانوا يتطلعون إلى أراض يتولون فيها زمام الأمور كحكام محليين فى كنف أحد الملوك ذوى الحول والطول . وهذا نوع من الاستعمار . إلا أنه لم تكن هناك استعمارية بمعنى توطين أعداد كبيرة من فيض السكان فى مناطق جديدة . على النحو الذى حدث عندما ذهب الأوربيون الغربيون إلى أمريكا وأستراليا وأجزاء من أفريقيا . « فالمؤسسة العسكرية الأولى لمملكة القدس التى أقيمت بعد عام ١١٠٠ لم تكن تضم - فيما يبدو - سوى ٣٠٠ فارس و ١٢٠٠ جندي مشاة »^(٤) .

وعلى أى حال ، فإن توينبى إذا كان يسلم بأن الحملات الصليبية كانت تنطوى على درجة من الاستعمارية ، فإنه يؤكد أيضا أن الدافع الدينى كان هو الدافع الأعلى فى أذهان معظم المشاركين فيها :

فالصليبيون كانوا يحاولون الظفر بالاستيلاء على فلسطين ، التى كانوا ينظرون إليها كمكافأة تستحق أن يناضلوا فى سبيلها . ليس من أجل قيمتها الاستراتيجية والاقتصادية البادية للعيان ، بقدر ما كان من أجل تلك التدايعات التاريخية المرتبطة بمنشأ وماضى المسيحية التى طالما جعلت من

بيت لحم . والناصرة . والقدس أهدافا للحجاج المسيحيين المسلمين^(٥) .
وربما كان أفضل تعبير عن الموقف العام للمؤرخين الغربيين المعاصرين . هو
كلمات السير ستيفن رونسيمان Sir Steven Runciman التي جاءت في نهاية
كتابه ذو المجلدات الثلاثة عن تاريخ الحملات الصليبية :

لقد كانت انتصارات الصليبية انتصارات للإيمان . لكن الإيمان دون
حكمة أمر خطير . وبموجب قوانين التاريخ الصارمة التي لا ترحم فإن العالم
بأسره يدفع ثمن جرائم وحماقات كل واحد من مواطنيه .

وفي السلسلة الطويلة للتفاعل والاختلاط بين الشرق والغرب الذي تمت
حضارتنا من خلاله . كانت الحملات الصليبية حلقة مأساوية وهدامة .
وعندما يعيد المؤرخ تدقيق النظر عبر القرون في قصة هذه الحملات
الصليبية التي تحوطها هالات النبل . لا بد أنه سيجد أن إعجابه مسربل
بالأسف إذ يشاهد أن هذه القصة محملة بقصور الطبيعة الإنسانية . فقد
كان فيها كثير من الشجاعة وقليل من الشرف . كثير من التقوى وقليل من
التفهم والمثل العليا لطختها القسوة والجشع ، والتفاني والجلد لوتهما
الإحساس الذاتي الأعمى وضيق الأفق بالسمو الأخلاقي عن الآخرين .
والحرب المقدسة ذاتها لم تكن شيئا أكثر من ممارسة طويلة لعدم التسامح .
باسم الرب . والتي هي الخطيئة تجاه الروح القدس^(٦) .

وعندما نتقل من هذه التصورات الغربية للحملات الصليبية إلى النظر في
الكيفية التي تبنت بها نفس الحملات للمسلمين في القرنين الحادى عشر والثانى
عشر . نجد اختلافا كبيرا . ففي حين كانت الحملات الصليبية - بالنسبة للعالم
المسيحى - ملازمة لارتفاع هائل في الحماسة الدينية ، فإنها كانت - بالنسبة
للمسلمين عموما - حرب حدود صغيرة . وحتى في وقت استرداد صيلاح الدين
للقدس عام ١٠٨٧ . لم تكن أغلبية المسلمين حتى قد سمعت - على الأرجح -
عن الحملات الصليبية . وقد تم إبلاغ الخليفة في بغداد عن الغزو الصليبي .

وطولب بتقديم العون ، لكنه لم يفعل شيئا . وفي الحقيقة فإنه لم تكن لديه في هذه الفترة سلطة سياسية يعتد بها . أما القوة الرئيسية في العالم الإسلامي فكانت للسلاجقة ، الذين كانت مراكزهم الرئيسية قائمة في إيران على مسافة مائة ميل من بغداد ، والذين كان حكمهم يمتد إلى أفغانستان وآسيا الوسطى . وإذا كانوا قد عرفوا بأمر الحملات الصليبية . فإنهم ربما نظروا إليها كمجرد شكل مختلف من أشكال التزاعات التافهة التي ظلت تدور في هذه المنطقة على مدار نصف قرن .

وبالطبع ، فإن الأمر كان مختلفا تماما بالنسبة لأولئك الحكام المحليين الذين تعين عليهم تحمل وطأة التقدم الصليبي . إلا أنهم - في البداية - نظروا إلى الصليبيين ببساطة كقوة غازية بيزنطية أخرى ، وهو أمر كانوا معتادين عليه . وفي الواقع لم يمض وقت طويل حتى أصبحوا مدركين أن الصليبيين ليسوا بيزنطيين وإنما فرنجة ، لكنهم استمروا في النظر إليهم كعصابات صغيرة من الغزاة ، ولم تتوفر لديهم أى فكرة عن الموجة العاتية من الشعور الديني المؤازر لهم في أوطانهم ، أو عن الخطط الطويلة الأمد التي كان البابوات يفكرون فيها . وبعد إقامة الإمارات الصليبية في القدس وطرابلس وانطاكية والرها . اتخذ الفرنجة . الذين عاشوا فيها فترة من الزمان ، الأشكال المحلية للزى وغيره من العادات . وعلى هذا النحو بدأ حكام هذه الإمارات مشاهين تماما للحكام المحليين الآخرين باستثناء أنه تصادف أنهم مسيحيون . ومع ذلك فإن هذه الحقيقة الأخيرة (أى كونهم مسيحيين) لم تمنع بعض الحكام المسلمين من إقامة تحالفات مؤقتة مع مسيحيين ضد خصومهم المحليين المسلمين . وكان هذا الانقسام في الصف الإسلامي هو الذى مكن الصليبيين من تحقيق النجاح الذى أحرزوه .

وكما أشرنا من قبل ، فإن تغيرا حدث بظهور حاكم مسلم أقوى بين الحكام المحليين في سوريا والجزيرة . كان هذا الحاكم هو (عماد الدين) زنكى الذى استطاع - بعد أن عينه السلطان السلجوقى عام ١١٢٧ واليا على الموصل - أن يعزز قوته بصورة فعالة حتى تمكن من طرد الصليبيين من الرها عام ١١٤٤ .

ورغم أن (عهد الدين) زنكى كان من الناحية الإسمية تابعا للسلاجقة . فإن نفوذهم عليه لم يكن يعتد به . وبعد وفاته عام ١١٤٦ انتقلت الولاية على أقاليمه السورية إلى ابنه نور الدين محمود الذى عزز وضعه فى مواجهة كل من الفرنجة والقضاة . وفى عام ١١٦٩ تمكن الجيش الذى أرسله نور الدين إلى مصر من منع الملك الفرنجى لإمارة القدس من التدخل هناك . أما صلاح الدين - الذى أصبح قائدا للجيش بعد وفاة عمه فى نفس العام - فسرعان ما وُطد مركزه فى مصر كأبرز قائد فيها وقضى على الحكم الفاطمى . وعندما توفى نور الدين عام ١١٧٤ وجد صلاح الدين مناطق كثيرة من امبراطوريته تحت سلطته . ونصبه الخليفة سلطانا بعد انتصاره فى معركة حربية على أمير حلب الذى ينتمى إلى آل زنكى . والذى كان يحظى بالمساندة من كل من قوة من قوات الفرنجة . وانسلمين التابعين للمذهب الاسماعيلى المعروفين باسم الحشاشين . ومنذ هذه اللحظة وحتى وفاته عام ١١٩٣ وضع صلاح الدين نصب عينيه هدفا مزدوجا : أولا : بسط وتعزيز حكمه على كل المنطقة الممتدة من الموصل إلى القاهرة . ثانيا : طرد الصليبيين .

وقد أظهر صلاح الدين رحمة وفروسة كبيرتين فى تعامله مع الفرنجة . وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر وتجنب ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة فى هذا الوقت . ويبدو أنه تصور إمكانية احتفاظ بعض الحكام المسيحيين بمواقعهم شريطة أن يقبلوا به سلطانا عليهم . إلا أن تنفيذ مثل هذه الخطة قد حالت دونه الأعمال الحمقاء والاستفزازية التى قام بها الصليبيون القادة مؤخرا . رينالد أوف شاتلون . فقد استولى هذا الرجل على ميناء «أيلة» (الواقع على خليج العقبة) عام ١١٨٢ وأرسل أسطولا بحريا للإغارة على الموانئ التى تخدم مكة والمدينة . وقام هذا الأسطول بالاستيلاء على سفن تجارية وإغراق سفينة حجاج . وفاق أمر هذه العمليات بصورة كبيرة . وتسببت فى سريان موجة من السخط فى المغرب الإسلامى أكبر من تلك التى رافقت إقامة إمارات الفرنجة . وأعلن صلاح الدين الجهاد ودعا كل المسلمين لمساندته ضد أولئك

الذين اشتركوا في مثل هذه الأعمال . ويمكن القول بأن هذه الأحداث سجلت الإدراك الأكمل من جانب المسلمين للخطر الذي تمثله الحركة الصليبية لهم ككل . حتى رغم أن صلاح الدين نفسه ظل محافظا على علاقات ودية - لفترة - مع الكونت ريموند أمير طرابلس . وربما مع آخرين .

وتوجت سياسات صلاح الدين بالنجاح في يوليو ١١٨٧ عندما دمر جيش الصليبيين في موقعة حطين . وكتيجة هذا الانتصار العظيم سقطت معظم فلسطين في يده . وبعد ثلاثة شهور دخل القدس منتصرا . ورغم أن هذه لم تكن نهاية الحملات الصليبية . فإن الصليبيين اللاحقين لم يحققوا شيئا يعتد به . ولم يستطيعوا على الإطلاق تهديد سيطرة المسلمين على الأراضي المقدسة بصورة جدية .

وربما كان الحكام المسلمون في كل مكان غربي بغداد قد شاطروا صلاح الدين تصوره للحركة الصليبية باعتبارها نشاطا مدبرا موجها ضد المسلمين عامة . لكن الاهتمام بهذه الحركة الصليبية ظل في الحد الأدنى في بغداد والمناطق الإسلامية الواقعة شرقها .

وقد قدم المؤرخ العظيم ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٣) - الذي عاش في الموصل وانضم لفترة لجيش صلاح الدين - تقييما عاما للحملات الصليبية الأولى . ويسجل في كتابه « الكامل » - الذي قدم فيه رؤيته لتاريخ العالم قبل عام ٤٩١هـ - فتح الفرنجة لإنطاكية . لكنه يشير إلى أن هجمات الفرنجة على الأراضي الإسلامية قد بدأت عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥) بفتح طليطة Toledo بأسبانيا : الذي أعقبه فتح صقلية عام ٣٨٤هـ . ثم يقول إن الحاكم المسيحي لصقلية هو الذي حول مسار حملة افرنجية مزمعة ضد تونس أثناء مرورها بصقلية . لأنها لم تكن ملائمة لصالحه . وأقنعها بالتوجه بدلا من ذلك إلى سوريا والقدس . ويشير أيضا إلى احتمال - رغم أنه يتشكك فيه - مفاده أن الفاطميين في مصر شجعوا الفرنجة على الذهاب إلى سوريا . وذلك خوفا من القوة المتزايدة للسلاجقة . وعلى هذا يرى ابن الأثير أن الحركة الصليبية قد بدأت - بمعنى ما -

في أسبانيا وصقلية . ويذهب حتى أبعد من ذلك إذ يصفها بأنها كانت جهادا ضد المنسحقين . إلا أن الأغلبية العظمى من المسلمين في بلاد الإسلام الوسطى والشرقية لم تشاركه هذا التصوير .

وخلال المائة عام السابقة تقريبا ظهر تصور جديد للحملات الصليبية في التفكير الإسلامي . فعندما انتشر التعليم الغربي بين المسلمين وجاء كثير من المسلمين إلى أوروبا للدراسة . أدركوا أنه كان هناك تشابه ما بين إقامة الإمارات الصليبية وبين الاستعمار الأوربي للكثير من بلدان أفريقيا وآسيا من القرن السادس عشر فصاعدا - وهو أمر خبروه هم أنفسهم - وبدأوا في النظر إلى الحملات الصليبية بوصفها البداية للاستعمار . ومؤخرا جدا وصف العقيد (معمر) القذافي غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ بأنه كان بمثابة الحملة الصليبية التاسعة : ووصف إقامة دولة إسرائيل بمساندة أمريكية بأنها الحملة الصليبية العاشرة . وإذا كان هناك تسليم فعلا بوجود أوجه تشابه بين الحركة الصليبية وبين الاستعمارية . فإن إقامة علاقة تطابق بينهما على النحو المشار إليه في السطور السابقة ليست ملائمة في مجموعها .

صحيح أن بعض « مسيحيي الكتاب المقدس » الأصوليين قد رحبوا بإقامة إسرائيل . لأنهم نظروا إليها كت تحقيق لنبوءة تورانية . وأنها على هذا النحو دليل على أن الكتاب المقدس صادق . ودحض لأولئك الذين يحاولون تكذيبه . إلا أنه من الناحية الأخرى ارتفعت أصوات مسيحية عديدة : وإن يكن عبثا . ضد اقتراح وضع الأماكن المقدسة المسيحية في أيدي يهودية - الأمر الذي يتناقض تماما مع أهداف الصليبيين الأصليين - كما أن مسيحيين عديدين يرغبون في رؤية القدس تحت شكل من أشكال النظام الدولي .

وفي حين أن الكلمة الانجليزية Crusades (الصليبية) لا تزال لها إحياءات مثالية مرتبطة بها . فإن معظم المسيحيين الذين يعرفون شيئا من التاريخ التفصيلي للحملات الصليبية لا بد أنهم يتقنون المشروع برمته . ومن المؤكد أنهم لا يعارضون حلا عادلا لمشكلات الشرق الأوسط . وللأرض المقدسة على وجه الخصوص^(٧) .

المراجع

1. Edward Gibbon. **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire**, ch. 57 towards the end; the following quotation is the beginning of ch. 58.
2. H.E.J Cowdrey, "The Genesis of the Crusades", in **The Holy War**, ed.T.P.Murphy. Columbus, Ohio 1974, P.15.
3. **A Study of History**, London 1934-54, ix, 101, 159f.
4. **The Holy War**, p.14.
5. **A Study of History**, ix. 100.
6. **A History of the Crusades**, Harmondsworth 1965. iii.480.
7. Also consulted with. "Cruade and Jihid" by John L.Lamonte in **The Arab Heritage**, ed. Nabih Amin Fars. Princeton 1946. pp.159-98.

صلاح الدين : معركة حطين والاستيلاء على القدس (وجهة نظر)

بقلم البروفيسور : ديفيد چاكسون
المستاذ بجامعة سانت أندروز

. لقد سمعت أناسا يقولون إنهم يريدون أن يفتدوا
أعزائهم بأرواحهم . لكن هذه الأقوال كانت
بالنسبة لى مجرد أقوال محاذية كلها . فيما عدا يوم
وفاته (أى وفاة صلاح الدين) لأنى أعلم أنه لو
أمكن أن تقبل تضحيتنا لكنت أنا وغيرى قد
أعطينا حياتنا له

أود - أولاً - أن أقول إننى شرفت كثيراً بدعوتى هنا لأكون معكم اليوم .
وأشعر بأننى حصلت على امتياز كبير لإعطائى الفرصة للحديث إليكم .
لقد مضت الآن بضع سنوات منذ عكفت على دراسة سيرة صلاح الدين .
وهى السيرة التى اشتركت فى تقديمها - مع مالكو لم ليونز Malcom Lyons (سير
توماس آدمز Thomas Adams) الآن أستاذ اللغة العربية بجامعة كيمبردج -
والتي نشرت عام ١٩٨٢ . وإن كنا قد أنجزنا الكتاب نفسه بالفعل فى عام
١٩٧٥ . وبعد كل هذه السنوات حصلت - بمزيد من الامتنان - على فرصة
عرض عملنا وإعداد هذا الحديث القصير . الذى وضعته تحت عنوان :
« صلاح الدين وموقعة حطين والاستيلاء على القدس : وجهة نظر » ، وآمل أن
تنظروا برفق إلى بعض مواطن الضعف التى قد تبيينونها ، آخذين فى الاعتبار طول
المدة التى انقضت منذ أنهيت العمل المعمق فى هذا الموضوع والوقت المحدود المتاح
لنا هنا هذا الصباح .

وأود - بداية - أن أقدم دراسة شخصية موجزة للجدل الحديث العهد ،
الذى دار على نحو واسع فى الغرب . حول قيم صلاح الدين الأساسية وتقييم
سيرته . وهو الجدل الذى تراوح - فى رأي - بين أغلاق المديح الحماسى المبالغ
فيه من ناحية ، والسخرية المفرطة والتى فى غير موضعها من ناحية أخرى .

ووجهة النظر التى أنطلق منها للوصول إلى أطروحتى هى أن سيرة صلاح
الدين يجب النظر فى تقييمها على ضوء استيلائه على القدس ، الذى مهد له
الطريق إلخاقة الخزيمة بجيش المملكة اللاتينية فى حطين فى ٤ يوليو ١١٨٧ . وفى

رأى فإن اهتمام صلاح الدين - كما تبين ذلك في الحقيقة مراسلاته مع الخلفاء المتعاقبين - كان منصبا على « الجهاد » في المقام الأول . باعتباره - على وجه الدقة - وسيلة لاستعادة القدس .

والاعتراضات الرئيسية على وجهة النظر هذه حول أهداف صلاح الدين . بل وفي الواقع على فكرة أنه كانت لديه رؤية شاملة على الإطلاق . نبعت من الفترة التي سبقت حملته على الصليبيين عام ١١٨٧ . وهي الفترة التي قضاها في قتال زملائه المسلمين . ولهذا تبدو غير متسقة مع الفترة اللاحقة عليها . (وقد توصلنا - ليونز وأنا - إلى تقدير ذكرنا في السيرة الذاتية التي كتبناها عن صلاح الدين . مفاده أنه في الفترة الواقعة بين خريف عام ١١٧٤ وحتى توقيع معاهدته مع الموصل عام ١١٨٦ قضى صلاح الدين ما يقرب من ١٣ شهرا في قتال الفرنجة و٣٣ شهرا في حملات موجهة ضد زملائه المسلمين) . ومع ذلك . وفي مواجهة هذه الاعتراضات ، فإنه يجب التأكيد على أن صلاح الدين قد نظر إلى وجود قاعدة موحدة ، وإن تكن متنوعة الأصول . للمسعى الإسلامي . بوصفها شرطا ضروريا لتحقيق رؤيته . وقد تكفلت الأحداث بالبرهنة على ضرورة مثل هذا الجهد الموحد .

إن وعى صلاح الدين ، بالتهديد الذي يفرضه الفرنجة في المقام الأول . ومن ثم بأخطار انقسام الصف الإسلامي . قد نما من خبراته المبكرة في مصر إبان عمله نائبا لعمه شيركوه خلال ثلاث حملات مصرية لم يخط فيها الخليفة الفاطمي المريض إلا بمساعدة الفرنجة (الذين دعاهم الوزير الفاطمي شاور - في عهد أمالريك - للتصدي معه لشيركوه وطرد قواته السورية خلال أول الحملات المصرية) ثم تلنى به الأمر بعد ذلك إلى طلب مساعدة آل زنكي لطردهم .

وكنتيجة طبيعية لذلك فإن انشقاق الصف الإسلامي - الذي أدى إلى دعوة الفرنجة للتدخل في أول الأمر - نبه صلاح الدين مبكرا إلى العواقب الوخيمة لفرقة كلمة المسلمين .

لكن تعيين صلاح الدين وزيرا للخليفة الفاطمي العاضد (لدين الله) . عقب وفاة عمه شيركوه . ثم توليه مقاليد الأمور بعد ذلك عقب وفاة العاضد نفسه . أسفر عن نشوب توترات خطيرة بينه وبين مولاه نور الدين زنكي في دمشق . ومع ذلك فإن العلاقات بين الإثنين لم تصل أبدا إلى نقطة اللاعودة . وجاءت وفاة نور الدين عام ١١٧٤ لتربل الصعوبات الناجمة عن كون صلاح الدين نائبا للأمير الزنكي في دمشق وفي نفس الوقت حاكما فعليا لمصر : كما أنها - في الحقيقة - أعطت صلاح الدين مبررات وجيهة للدخول في مجال السياسة السورية حيث إن ابن نور الدين وخليفته . المصالح إسماعيل . كان قاصرا لم يبلغ سن الرشد . ومن الناحية الشكلية جاء تدخل صلاح الدين في سوريا تحت حجة حماية مصالح المصالح . الذي أصبح الآن مولاه الجديد من الناحية الاسمية . وغنى عن البيان أن اندلاع صراع السلطة حول حيازة شخص المصالح فيما بين حلب ودمشق لم يكن من شأنه فقدان عرض مصالح المصالح للتهلكة ، وإنما أيضا مصالح كل البلاد الإسلامية الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط . أما صلاح الدين . الذي قدم نفسه باعتباره النائب القوي الذي يمكن للمصالح ، وسوريا في الواقع . الاعتماد عليه . فلم يكن بمقدوره إحباط إزاحة الحلبيين للمصالح من دمشق إلى الشمال . ومع ذلك كان باستطاعته الادعاء بأنه لم يتدخل في سوريا من تلقاء نفسه وإنما جاء بناء على دعوة لدخول سوريا من ابن المقدم قائد الجيش في دمشق .

وكان تحرك صلاح الدين إلى سوريا وحملاته اللاحقة ضد الحلبيين والموصلين هي النقاط الرئيسية التي استشهد بها أولئك الذين أرادوا الانتقاص من شأن صلاح الدين في الماضي والحاضر . والذين حاولوا الإيحاء بأن أهدافه الأساسية انصبحت على تمجيد شخصه هو وعشيرته . وبالتأكيد فإن حقيقة وجود المصالح نفسه في حلب خلال فترة وجود صلاح الدين في سوريا قبل وفاته (أي وفاة المصالح) ، تجعل من العسير تفسير وضع صلاح الدين تفسيراً كاملاً في حدود كونه حامياً للمصالح .

غير أنه يجب الاعتراف بأن الرغبة في إدخال مصر إلى حظيرة الإسلام السنّي - والتي كانت على الأقل بقدر الخشية من تهديد الفرنجة لمصر - هي التي دفعت إلى استمرار تورط الزنكيين هناك عقب الدعوة الأولية التي تلقوها لتأييد شاور في سعيه لاسترداد منزله كوزير . وللسبب نفسه . مع ما يلزم من التعديل والتبديل . كان صلاح الدين بخبرته المصرية وراءه هو الذي أخذ على عاتقه مسئولية احتواء تهديد الفرنجة لبلاد شرق البحر المتوسط .

وكان موت الصالح إسماعيل في حلب عام ١١٨١ نعمة ميمونة لصلاح الدين من بعض النواحي . منها - كما أشرنا سابقا - أن جانباً من مصداقية بقاءه في المشرق ارتكز على ادعائه الأولى بأنه يعمل من أجل مصالح الصالح . وهي وجهة النظر التي لم يوافق عليها الحلبيون مطلقاً . وعندما بلغ الصالح سن الرشد أصبح موقف صلاح الدين إزاء بيت الزنكيين لا يمكن الدفاع عنه بقوة . وجاء موت الصالح وفشل الزنكيين بعد ذلك في استعادة حلب (التي سلمها عماد الدين زنكي لصلاح الدين في مقابل سنجار - وكان ذلك الأمر موضع اشمئزاز الحلبيين) كعامل حاسم في اقتراب صلاح الدين من إسلام موحد بالقدر الذي يهم الحرب المقدسة .

وبين تسليم حلب ومعاهدة صلاح الدين مع الموصل في مارس ١١٨٦ فإن اشتراك صلاح الدين في الحرب المقدسة بدا كما لو كانت تعوزه الحماسة . ورغم أن ذلك يمكن أن يستخدم بنحو كدليل في يد أولئك الذين يستشهدون بمصلحة صلاح الدين الواضحة في إخضاع الموصل وما حولها لمجال نفوذه كدليل على الطابع الأناني لحكمه ، فإنه لم يكن من قبيل الأمر العملي بالنسبة له أن يحول اهتمامه بالكامل إلى الحرب المقدسة بمجموعة من الأمراء تمثل تهديداً محتملاً في الشمال والشرق . لاسيما البهلوان . عز الدين مسعود . وحتى أيضاً قليج أرسلان .

وعلى أية حال فإن المعيار الذي يجب تطبيقه على أية سلسلة من الأفعال التي

تم تقديم دوافعها المعلنة . هو ما إذا كانت الفوائد المستخلصة من هذه الأفعال تنفضي إلى تحقيق الهدف المعلن . أو على الأقل أنه جرت محاولة تحقيق هذا الهدف باستخدام نتائج ما تحقق منها بالفعل .

ونجب أن نحسب لصالح الدين أنه اجتاز هذا المعيار بنجاح . ففي الوقت الذي جرى فيه إبداء التشكك في دوافع صلاح الدين من جانب بعض الباحثين المحدثين ومن قبل أعدائه المسلمين المعاصرين له . وبصفة خاصة خلال تقدم حملاته ضدهم . فإن هذه الارتياحية - التي تبدو في الظاهر كاتجاه متعلق بنقد العظماء - يمكن . فيما اعتقد . التقليل من أهميتها : إن لم يكن تبيان افتقارها إلى أى أساس من الصحة . نظرا لما يلي :

أولا : كان صلاح الدين حريصا بدقة شديدة على أن يعرض على الخليفة دوافع عمله في مراسلاته معه (على أن ندخل في حسابنا المبالغات المرتبطة بطبيعة المراسلات الدبلوماسية) .

ثانيا : إن الدوافع التي قدمها لأفعاله ترجع دائما تقريبا إلى الحرب المقدسة وإلى الحاجة الماسة للوحدة من أجل تطوير متابعتها بنجاح .

ثالثا : في تعامله مع الزنكيين وأتباعهم . كان صلاح الدين دائما كريما بصورة رائعة بعد هزيمته لهم في المعركة (وهذا واضح بعد كل من معركة حماة ومعركة تل السلطان) . وفي أساليب فرض الحصار عليهم (في حلب والموصل) .

رابعا : (وهو الأكثر أهمية) : بمجرد تحقيق صلاح الدين لهذا التوحيد فإنه شرع في الحال في تحقيق الأمر الذي كان يمثل اهتمامه الأساسي ، وهو تدمير الجيش الميلاني للمملكة اللاتينية للقدس والاستيلاء على القدس . وقد تحقق الأمر الأول في معركة حطين التي تأثرت نتيجتها - ضمن ما تأثرت به من عوامل أخرى - بقدرة صلاح الدين على نشر قوة إسلامية كبيرة موحدة في الوقت الصحيح وفي المكان الصحيح (وهو شرط أساسي

للقيادة الناجحة . والأمر الجدير بالملاحظة أكثر من ذلك أن إنجاز صلاح الدين لا يقف فقط عند حد أنه كان القائد العسكري لقواته بل إنه كان أيضا رجل الدولة الذي حقق الإطار السياسي الذي كان ممكنا داخل نطاقه القيام بانتشار القوات على هذا النحو . ثم كان الاستيلاء على القدس . بعد حوالي ثلاثة شهور ونصف من معركة حطين . نتيجة مباشرة لتدمير الجيش المملوكي للفرنجية في حطين .

وعند تقييم فن إدارة شؤون الدولة والفطنة السياسية الهائلة لصلاح الدين فإنه من المناسب بصفة خاصة أن نلاحظ المدى الذي يذهب إليه في إعداد الأرضية السياسية والدبلوماسية قبل القيام بعمل ما . وعلى وجه الإجمال . فإنه لأحلفاء صلاح الدين ولا خصومه أو المراقبين المتحايدين (في حالة المسلمين) قد خامرهم أدنى شك فيما كان يعترم صلاح الدين أن يفعله أو لماذا يفعله (رغم أنه كان هناك - كما أشرنا من قبل - بعض الاختلاف بين المعاصرين بالنسبة لدوافعه . وبعض السخرية من مبرراته) . ومافعله صلاح الدين هو خلق الشروط التي يمكن في ظلها إحراز النصر إذا ما كانت الفرصة في متناول اليد .

وفي اعتقادي أن صلاح الدين على ما يبدو قد تبني - بعد استيلائه على القدس - نهجا باهتا ومفتقرا إلى الحيوية إزاء تهديد الفرنجة . والأسباب المقدمة لذلك متنوعة :

- كان الجيش . أو على الأقل العديد من عناصره . بعيدين عن بلادهم .
- كان العديد من الأمراء أنفسهم يرغبون في العودة إلى إقطاعياتهم أو مدنهم (يجب أن نتذكر أن بعضها كان وراء الفرات) .
- لكن السبب الذي أعتقد أنه الأكثر أهمية هو أن الهدف المحدد قد تم الظفر به .

وفي أعقاب النصر كانت هناك . من ثم . ضرورة للحفاظ على موقع الإسلام كقوة غالبية في المشرق . مع الإبقاء على القدس - التي تمثل الهدف

الأسى من الناحية الدينية مع أنها لم تكن تكتسب هذه الأهمية من الناحية الاستراتيجية - في أيدي المسلمين . وفي الوقت الذي كانت فيه الضرورة القصوى تتمثل في احتواء القرنجة والاستعداد لحملة صليبية جديدة وشيكة ومؤكدة - حتى عندما ينظر إليها من وجهة نظر دينية أكثر منها علمانية أو استراتيجية - لم تعد لأي مدينة بعينها أهمية أكبر أو أقل من غيرها من المدن بقدر ما تعلق الأمر بأهداف محددة .

وعلى سبيل المثال . فإنه من اللافت للنظر أن المسلمين أهملوا القيام بالاستيلاء على مدينة صور رغم أهميتها الاستراتيجية الحاسمة . وهو مؤشر كاف في حد ذاته على الأساس الإسلامي - من حيث الجوهر - لطموح صلاح الدين ككل . وعلى جاذبية الحرب المقدسة .

وفي اعتقادي - من ثم - أن دافع صلاح الدين المتعلق بالإخلاص الديني . عندما يجرى تقييمه بدقة . يجب منحه حق البراءة لعدم توافر أي دليل معاكس . ورغم وجهات نظر مناقضة فإنني أعتقد بأنه يجب علينا الموافقة على أن الدافع الأكبر لصلاح الدين كان في الحقيقة مواصلة الحرب المقدسة . وأن هدفه الأكبر كان الاستيلاء على القدس . مع تدمير القدرة العسكرية للمملكة اللاتينية باعتبار ذلك الشرط الأساسي اللازم لتحقيق هذا الهدف . وفي حين يمكن النظر إلى مناورته لإلحاق الضرر المباشر بزملائه المسلمين على أنها خدمت مصالحه الخاصة هو وعائلته . فإنني رغم ذلك أعتقد أن سيرته برمتها تقدم الدليل على أن دوافعه ومبرراته الخاصة والمعلنة تظل راسخة وصامدة . وإذا كان التقييم المشكك والساخر لأحد دوافع صلاح الدين لا يقوم إلا عندما يتوقف المعارض لهذه الدوافع عن المضي إلى إدراك أو محاولة إدراك الأهداف التي تؤدي إليها هذه الدوافع . فإن المكانة المرموقة لإخلاص صلاح الدين تظل - من ثم وبكل تأكيد - سليمة لا تمس .

وفي الختام فإن إنجاز صلاح الدين قد تمثل - إذن - في امتلاكه لهدف محدد يمكن بلوغه .

وتمثل في إدراك أنه يتعين عليه استخدام القوة لبلوغ هذا الهدف . وأن استخدام القوة يتطلب رجالاً وأموالاً تدفع هؤلاء الرجال .

وتمثل في الوعي بأن الاحتفاظ بالقوة والسلطة يتعين أن يكون من الممكن تبريره أخلاقياً . بالإضافة إلى أن يكون من الممكن دعمه مالياً .

وإدراك صلاح الدين أيضاً أهمية تصريف الأمور بناء على صلاحية شرعية . وهو الأمر الذي يثريه حرصه على الحصول على موافقة الخليفة على الأعمال التي يزعم القيام بها مقدماً . وتصديقه على نتائجها فيما بعد .

إن صلاح الدين يبرز بين معاصريه كزعيم لأنه كانت لديه الفطنة لإدراك ما هو مطلوب لتحقيق أهدافه . وضرورة إعداد التدابير اللازمة للسيطرة على مختلف القوى الضرورية له . وبمجرد جذب هذه القوى معا فإنه كان بإمكانه جعلها تعمل من أجله .

وما من صورة . أو تقييم أو تقدير . لصلاح الدين يمكن أن تكون كاملة دون الإشارة إلى السجايا الإنسانية التي جعلت منه زعيماً محبوباً . مثلاً هو زعيم يخطئ بالإعجاب . فقد كان إخلاصه ونبله وشهامته هي التي أكسبته الاحترام والمكانة المرموقة في الغرب والشرق على حد سواء . واقرنت باحترامه للتعامل التزيه . لكن عطفه هو الذي أكسبه الولاء الشخصي الكبير للجاعة الخيطة به مباشرة .

إنني لم أستطع تناول هذا الجانب من سيرة صلاح الدين هنا هذا الصباح . لكن كإشارة إلى نوع التأثير الذي أثاره صلاح الدين . أعتقد أنه من الملائم أن أختتم كلمتي بفقرة قصيرة مقتطفة من بهاء الدين بن شداد :

« لقد سمعت أناساً يقولون إنهم يريدون أن يفتدوا أعزائهم بأرواحهم . لكن هذه الأقوال كانت بالنسبة لي مجرد أقوال مجازية كلها . فيما عدا يوم وفاته (أي وفاة صلاح الدين) . لأنني أعلم أنه لو أمكن أن تقبل توضيحتنا لكنت . أنا وغيري . قد أعطينا حياتنا له .. »

صلاح الدين : تطور أسطورة غربيّة

بقلم : بروفيسور كارول هيننبراند
الأستاذ : جامعة أدنبرة

عند تقييم إنجازات صلاح الدين . فإنه من الأهمية بمكان الحصول على صورة كاملة وشاملة له على قدر الإمكان . وسيقوم باحثون آخرون في هذه الندوة بإمعان النظر في التقييمات المعاصرة المفصلة لصلاح الدين التي قدمها كاتب سيرته الذاتية المسلمان : عماد الدين الأصفهاني وابن شداد . والمؤرخون العرب في العصر الوسيط فيما بعد . ولذلك يبدو من الملائم لي أن أركز - بالأحرى - على صورة صلاح الدين التي تبدو في المؤلفات التاريخية التي كتبها أولئك الذين كانوا أعداءه في ساحة القتال . حيث أن هذه المؤلفات كانت المصادر التي تطورت منها مجمل أسطورة صلاح الدين في الغرب العصور الوسطى والعصور الأحدث . وآمل أن تكون مثل هذه الدراسة بمثابة معادل ضروري للمصادر الإسلامية وأن تساعد على التوصل إلى تقييم دقيق لهذا الرجل العظيم .

وعلى سبيل المقدمة سأبدأ بوضع ملاحظات عامة لرسم صورة عامة من السياق التاريخي . وبعد ذلك سأحاول طرح ثلاثة موضوعات رئيسية :

أولا : النظر إلى صلاح الدين في مرآة المصادر الغربية المعاصرة له .

ثانيا : تتبع تطور أسطورة صلاح الدين في أوروبا الغربية لاحقا .

ثالثا : وأخيرا : محاولة اكتشاف السبب في كون صلاح الدين . أكثر من أي زعيم مسلم آخر في عصره ، هو الذي حظى بمثل هذه السمعة الملفتة للنظر بعد وفاته .

إن تقييم المناخ السائد في مجتمع الفرنجة خلال السنوات السبعين الأولى من

احتلال الفرنجة للشرق الأدنى . ولا سيما مملكة القدس . من شأنه أن يبقى ضوءاً قوياً على بعض السمات البارزة لهذا النظام الاجتماعي الأجنبي .

ففي بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . وبعد أن سقطت القدس في أيدي الصليبيين . كانت معنويات الصليبيين مرتفعة ووعيمهم بأهدافهم محمداً بوضوح . صحيح أن قادتهم قد تشاجروا بالفعل حول تقسيم المناطق التي استولوا عليها في طريقهم إلى المدينة المقدسة . لكن حتى في انشغافهم كانت هناك أيديولوجية ملموسة جداً وحدتهم في ساحة القتال وقد دفعتهم قدماً إلى النصر . هذه الرابطة من الوحدة الدينية . واخلف المشترك . وفي الحقيقة أيضاً . التعصب . كانت على طرفي نقيض مع العالم الإسلامي المقتت . الذي مزقته إرباً الخلافات الدينية والتناحرات السياسية . ولم يكن لدى الصليبيين الأوائل معرفة يعتد بها عن الشرق الأدنى أو عن المسلمين . وشأنهم شأن المسلمين . كان الصليبيون - كممثلين للمسيحية الغربية - يعتبرون أنفسهم حراس الدين الحق . و (مثلما كان الحال بالنسبة للمسلمين) كان الصليبيون يعتبرون القدس مدينة مقدسة عندما وصلوا إلى أسوارها عام ١٠٩٩ م . وإذا كانوا مشبعين بالحماسة الدينية فإنهم استولوا على المدينة وسط مزاج من النشوة المتطرفة . وهو ما عبر عنه ريموند أوف أجيلس Raymond of Agiles بقوله :

« في اليوم الذي تم فيه الاستيلاء على القدس انتهت كل صور الوثنية وتم توطيد أركان المسيحية » .

والكتابات التاريخية للصليبي الأول تكشف النقاب عن أن الفاتحين الذين جاءوا من الغرب أظهروا مزجاً من الجهل والتفوق القائم على أساس غير منطقي والعداء للمسلمين . وفي الواقع فإنهم كانوا يعتقدون - على حد تعبير شانسون دي رونالد Chanson de Ronald - بأن :

« الوثنيين مخطئون والمسيحيين على صواب » .

لكن هذا العداء الذي أظهره الصليبيون الأوائل تجاه المسلمين لم يكن نافذ

المنفكون على جميع المستويات . حتى في وقت الحملة الصليبية الأولى . فنجد أن نورمان Norman - المؤلف المجهول لكتاب Cesta Francorum (مآثر الفرنجة) - كان رجلا عمليا ومساهما نشيطا في الاشتباكات العسكرية الأولى بين الصليبيين والمسلمين . ولذلك فإن ملاحظاته تصبح موحية جدا بالنسبة لنظرة أولئك الذين أنشأوا الدول الصليبية الأولى في الشرق الأدنى . ومع أن هذا المؤلف استهجن الإسلام كثيرا - رغم أنه لا يعرف عنه أى شىء - فإنه امتدح المسلمين على قيمهم القروسية . وشهامتهم . وبسالتهم في الحرب . وكان ينظر إليهم كخصوم يستحقون التقدير . عيهم الوحيد هو دينهم :

« إنه لأمر حقيقى . ولا يستطيع أحد أن ينكره . أنهم (المسلمون) إذا كانوا فقط قد آمنوا بالمسيح والنصرانية المقدسة .. فلن تجد جنودا أقوى منهم . أو أشجع . أو أكثر حذقا . »

وفي منتصف القرن . عندما بدأ يتشكل نجاح سياسة نور الدين (محمود) . تغير الوضع وتعدلت المواقف .

ووسط الصليبيين أنفسهم كان هناك بالفعل أولئك الذين ولدوا ونشأوا في الشرق الأدنى . وهم الذين يسمون بالمولدين Pullani ^(١) . والذين كانوا يشعرون بأنهم في وطنهم في هذه المنطقة ولم يخفوا بتلك الجماعات من القادمين الجدد الذين وصلوا من الغرب . وقد نظر إليهم المولدون باعتبارهم جهلة وقليل التجربة بسبب بيئتهم الجديدة . وأيضا بوصفهم عدوانيين على نحو غير ملائم تجاه المسلمين .

أما بالنسبة للقادمين الجدد أنفسهم . فإنهم حملوا المولدين مسؤولية ضياع إمارة الرها Edessa وازدياد ضعف الصليبيين . وقد لخص المؤرخ الأنجليزى المعاصر ويليام أوف نيوبورج William of Newburgh موقفهم بقوله :

(١) Half-caste كلمة لاتينية من العصر الوسيط معناها مولد أو هجين

« إن السكان المحليين (أى هؤلاء الفرنجة الذين وندوا في الشرق) قد
نوّثهم بجاورتهم للمسلمين . ونكونهم بين المسلمين والمسيحيين فإتّهم
لا يبدون متميزين إلى هذا الطرف أو ذاك الطرف الآخر . »

وقد دفعت الضرورة السياسية المسلمين والصليبيين إلى إقامة تحالفات بين كل
منهما . وبعد إحياء الجهاد في صفوف المسلمين وبداية إعادة التوحيد للعالم
الإسلامي تحت قيادة (عماد الدين) زنكي ونور الدين (محمود) . كان من
مصلحة الصليبيين مواصلة إثارة أحد القادة المسلمين أو أحد الزمر الإسلامية ضد
قائد آخر أو زمرة أخرى .

وهكذا . ومع موت نور الدين عام ٥٦٩ هجرية (١١٧٤ ميلادية)
وصعود صلاح الدين إلى السلطة المؤثرة . عدلت الحقائق السياسية والتقارب
الجغرافي من المواقف الصليبية . وتضافرت الخبرة الطويلة مع الضرورة المطلقة
لتكفلا بإجبار العديد منهم على التعرف على العدو بصورة أفضل . وإلى التسليم
بأنه كان أهلا للتقدير . بل وحتى أهل للصداقة في بعض الأوقات .

ويكفي هذا بالنسبة للملاحظات التمهيدية الخاصة بسياق التاريخي .
وأنقل الآن إلى العرض التفصيلي لفكرتي الأولى . أعني : صلاح الدين على
النحو الذي ظهر به في مرآة معاصرة المسيحيين . إن معلوماتنا عن الوضع في
صفوف الصليبيين في عصر صلاح الدين نفسه وعن المواقف الصليبية إزاء صلاح
الدين بصورة خاصة . تعتمد - في المقام الأول - على التاريخ الأول والمؤثر
للحملات الصليبية الذي كتبه رئيس الأساقفة ويليام الصوري William
of Tyre . الذي كان مستشارا للمملكة اللاتينية بالقدس من ٥٦٥ - ٥٨٠
هجرية (١١٧٠ - ٨٤ ميلادية) . ولذلك فإن شهادته تصبح شهادة نفيسة
بالنسبة للتقييم الصائب لمنجزات صلاح الدين . وقد كانت المترلة الفكرية لويليام
الصوري باللغة التأثير . (وكان يحتل مكانة مرموقة في مجالس الفرنجة . ولذلك
كان بإمكانه أن يتحدث بتبصر وثقة عن مواقف ومعتقدات صفوفهم) . ولأنه

وُجد في الشرق الأدنى فقد لاقى مشقة لتعلم اللغة العربية بالإضافة إلى اللاتينية واليونانية والفرنسية . وقد شارك بنشاط في الأحداث السياسية . وبخاصة في فترة بزوغ نجم صلاح الدين وحتى عام ٥٨٠ هجرية (١١٨٤ ميلادية) . ولا يزال كتابه *Belli Sacri Historia* (تاريخ الحرب المقدسة) - المكتوب باللاتينية - مصدرا هاما فُذه السمات الحاسمة . (لاسما وأن خبرته الواسعة تبرز خبرة أى مؤرخ مسلم معاصر له) . ومما يبعث على الأسف المضاعف - بالنسبة لأغراض موضوعنا اليوم - أنه - أولا - تعين عليه مغادرة القدس لأسباب شخصية . وثانيا : لأن المنية قد وافته قبل معركة حطين . ومع ذلك فإن الظروف المشار إليها تجعل تقييمه لصلاح الدين مفعما بالنبوءة على نحو خارق للعادة . (سيتطلب تحليله للوضع في مملكة القدس وآراءه عن صلاح الدين تحليلا مفصلا) .

وفي تعليقه على تبوء صلاح الدين السلطة في مصر عقب وفاة شيركوه عام ٥٦٤ هجرية (١١٦٩ ميلادية) . وصف ويليام الصوري صلاح الدين بأنه : « رجل ذو روح متقدمة . شجاع في الحرب وسخى في كرمه . »

ومع ذلك فإن الصورة التي رسمها لصلاح الدين . في هذه المرحلة . ليست خالية من الأخطاء . وعلى سبيل المثال يذكر أن صلاح الدين شخصيا قتل الخليفة الفاطمي وأبناءه قبل استيلائه على ثروات الخزانة الفاطمية ورشوته الجند بالذهب . وفي وقت لاحق . في عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ ميلادية) . وأثناء سرده للكيفية التي استولى بها صلاح الدين على دمشق . عاب ويليام الصوري على صلاح الدين جموده لسيدته الأسبق نور الدين (محمود) :

« قام صلاح الدين - في ازدياء اللولاء الذي يدين به لسيدته والذي كان عبدا له - قام باحتلال كل المدن في هذا الإقليم (أى سوريا) . »

إلا أن هذه الانتقادات الوقحة التي وجهها ويليام الصوري إلى صلاح الدين . لا تقلل - مع ذلك - من احترامه الكبير له وإعجابه به وخوفه عليه .

ودون سبب منطقي يهون ويلينح انصوري من شأن العدو أو الخطر الذي مثته قوته المتزايدة بالنسبة لمنهكة القدس . وفي أن استمرارات أسنوبه انقصعي المعتاد يقوم ويليام - بعد وصفه للنجاح الأول الذي أحرزه صلاح الدين في سوريا - بتقديم تحليل متحرر من التحيز والجهل بصورة مفتحة للنظر عن أسباب انخراط القوة الصليبية وطبيعة العدو الرئيسي صلاح الدين . وفي مهاراته التفسيرية واتساع رؤيته يبرهن ويليام الصوري هنا أنه النذ الحقيقي الكامل لابن الأثير . وفي الواقع فإن الإثنتين يبرزان في هذا انصدد دون كل من هم سواهم من مؤرخي الحملات الصليبية .

(ويبدأ ويليام بتقديم تقييم منصف لصلاح الدين . فيصفه بأنه :
« حكيم . مفعم بخصافة التقصد . شجاع في الحرب . كريم لدرجة الإسراف ») .

ومزاجه متشائم بصورة عميقة . فلا شيء أقل من تدخل العناية الإلهية يمكنه من أن ينقذ الصليبيين :

« إن كل مجهوداتنا لاضرورة ها . فقد حاولنا عبثا احتواءه (صلاح الدين) وذرفت عيوننا دموعا غزيرة في هذا المشهد . وبازدياد قوته ينهض هذا الأمير ضدنا على الأرض ومن البحر . وليس لدينا أمل في مقاومته بنجاح إذا لم يساعدنا الله » .

ويفرد ويليام ثلاثة عوامل أسهمت في انخراط القوة الصليبية . العاملان الأول والثاني سليمان : فيقارن بين الصليبيين الأوائل . الذين كانوا متدينين وأتقياء وبين صليبي عصره . الذين يتقدمهم بشدة لكونهم ضالين ومجرمين يفتقرون إلى الإيمان الديني الحق . ويلقى باللائمة - ثانيا - على غياب انضباط عسكري حقيقي في صفوف صليبي عصره . على عكس أولئك الذين جاءوا أولا إلى الأرض المقدسة وكانوا معتادين على نظام حديدي للسلوك . أما السبب الثالث للانخراط الصليبي - وفقا لما يقوله ويليام - فهو التغير العميق الذي طرأ

على الجانب الإسلامى . ففى مكان تفتت الصف الإسلامى . الذى كان سائدا فى بداية الوجود الصليبي فى الشرق الأدنى . واجه المسيحيون الآن مشهدا مخيفا للمسلمين الموحدين تحت لواء رجل واحد . وهنا يبرهن ويليام مرة أخرى على أنه رجل ذو بصيرة ثاقبة بصورة لافتة للنظر . (بقدرة المؤرخ الحقيقى على أن يعين الاتجاهات الرئيسية لعصر ما - حتى لو كان هذا العصر عصره هو نفسه) .

وقد أشار وليام إلى زنى ونور الدين - اللذان بدأ عملية إعادة توحيد العالم الإسلامى . ثم انتقل بعد ذلك إلى صلاح الدين :

« إن كل الممالك التى تطوقنا تأتمر الآن بإمرة رجل واحد . وهى تخدمه من تلقاء نفسها فور تلقيها لأول إشارة منه .. كل هذه الممالك الآن تحت سلطة صلاح الدين .. ذلك الرجل ذو المولد المبهم الذى حالفه يمن الطالع فارتفع به من أدنى وضع » .

وكان لدى ويليام الصورى فكرة واضحة عما ينبغى على الصليبيين عمله لاحتواء صلاح الدين .

والأمر المؤسف بالنسبة لهذه الفكرة (من وجهة نظر غربية) أن الصليبيين افتقروا إلى البصيرة والموارد اللازمة لوضع استراتيجية ويليام (موضع التطبيق) . فبعد أن استولى صلاح الدين على دمشق وأسر ابن نور الدين . الملك الصالح . الذى أقام فى حلب معارضا بذلك لصلاح الدين ، يلاحظ ويليام الصورى أنه كان يتعين على الصليبيين استغلال هذا الوضع عن طريق تأييد الملك الصالح . وبدلا من ذلك - كما يقول ويليام بمرارة وحزن - لم يفعل الصليبيون أى شئ . وفى عام ١١٨٢ سقطت حلب فى يد صلاح الدين . وكان ويليام يعرف أن القدس لن تنعم بالأمان إلا إذا استمر العداء المتبادل بين دمشق والقاهرة ، واتحدت أهداف القوتين المسيحيتين : بيزنطة والدول الصليبية . فواحسرتاه على اقتراحاته ! . لأن العكس تماما هو الذى حدث بالطبع .

إن تحليل ويليام ليس شاملا . فهو ببساطة لا يرى بعض جوانب دوافع

صلاح الدين . وعلى سبيل المثال ، فإنه مما يجدر ملاحظته أنه يبدو غير مدرك - حتى رغم حسن اطلاعه على الوضع المحلي والسبل الإسلامية - لأهمية صلاح الدين داخل السياق الخاص لتاريخ سوريا الحديث . فبطبيعة الحال كان صلاح الدين وسلفاء اللامعان ، زنكى ونور الدين ، اللذان اعتمد صلاح الدين على منجزاتها وتطويرها . يساهمون في عملية إحياء دينية سنية كبرى ، ربما كانت العامل الأكثر أهمية في إعادة توحيد العالم الإسلامى التى تم تحقيقها بعناء شديد في مجرى العقود القليلة السابقة .

وكان هذا العامل هو الذى حول اتجاه المد لصالح صلاح الدين . وفي رأى ويليام - ويمكن أن تكون هناك درجة قليلة من الشك في أنه رأى جزءا من الصورة فقط - أن الطموح الشخصى هو الذى كان يحرك صلاح الدين : فهو « يطمح بصورة دائمة ، وبخاسة أكبر ، إلى زيادة انجده لاسمه . وإلى توسيع نطاق سلطته » .

وبعد حملة صلاح الدين على بلاد ما بين النهرين عام ١١٨٢/١١٨٣ ، التى استسلمت له فيها مدن الجزيرة واحدة إثر أخرى . يكتب ويليام أن الصليبيين أدركوا أن هذه المدن الجديدة ستمد صلاح الدين بقوات عسكرية جديدة لاستخدامها ضدهم . وفضلا عن ذلك أعطى فتح هذه المدن لصلاح الدين الحرية اللازمة لتركيز حملته ضد الصليبيين . وعقب استيلاء صلاح الدين على حلب عام ١١٨٢ لم يعد لدى ويليام أدنى شك في أن نهاية الصليبيين أصبحت محتومة :

« لقد اعتقد الصليبيون طويلا أنه إذا ما نجح صلاح الدين في الاستيلاء على حلب ، فإن قوته ستطوق وتحاصر بلادهم بأسرها » .

ويتوقف سرد ويليام الصورى . لتاريخ الحملات الصليبية ، فجأة في عام ٥٧٩ هجرية (١١٨٤ ميلادية) . وعندما وضع قلمه كان مفعما باليأس إزاء النتيجة المحتومة التى تنبأ بها للصراع مع صلاح الدين .

وكان من حسن حظي - لكن من سوء حظنا نحن دارسي الحملات الصليبية كما قلت - إنه لم يعيش ليرى انتصار صلاح الدين في حطين والقدس .

أما بالنسبة لوجهة النظر الصليبية إزاء هذين النصرين الهامين اللذين أحرزهما صلاح الدين في حطين والقدس . فسنعتمد بصددنا على الروايات الأدنى لأولئك الذين أكملوا عمل ويليام الصوري . وهناك اثنان من هؤلاء ، هما برنار الخازن Bernard the Treasurer ورنول Ernoul حامل دروع ابلين Ibelin . كان بإمكانهما تقديم صورة إيجابية لصلاح الدين ، حتى في الساعة المريعة في أعقاب فقد القدس . فقد امتدحا صلاح الدين حتى قبل استيلائه على المدينتين ونقلنا عنه قوله :

« إنني أؤمن بأن القدس هي بيت الله .. ولست راغبا في فرض الحصار على بيت الله . ولن أهاجمه إذا ما أمكنني أخذه بمعاصرة ونجب » .
وامتدحت نفس هذه المصادر سلوك صلاح الدين في القدس بعد فتحها . وأشارت إلى عطفه ورحمته بقاطنيها . وربما كان المثال الأكثر تعبيرا عن كل ما علاه هو الذي ذكره رنولد . أحد الذين أتموا تاريخ ويليام الصوري . ففي معرض الحديث عن إحسان صلاح الدين لزوجات وبنات الفرسان في القدس كتب رنولد :

« لقد أعطاهن الكثير لدرجة أنهن حمدن الله ونشرن في الخارج الكثير عن العطف والإجلال اللذين أسداهما لهن صلاح الدين » .

مثل هذه التعليقات هي الملفتة للنظر أكثر من كل ما علاها نظرا لأنها وردت في مصادر العدو التي كتبت في أعقاب الخسارة الأكثر أهمية التي منى بها الصليبيون . ليس سياسيا فحسب وإنما أيضا من وجهة نظر عاطفية ودينية .

لقد قدمت حتى الآن النظرة إلى صلاح الدين التي يمكن تجميعها من كتاب صليبيين فهم خبرة شخصية بالقتال والحياة في الشرق الأدنى . وحتى أثناء حياته . وعندما كان بمثابة العدو الرئيسي للصليبيين ، فإن مثل هذه المصادر كانت مجبرة

على إبداء الإعجاب المتمنع لشخصيته ومنجزاته . ويمكن اغتاجة بأن مثل هؤلاء الكتاب ربما أرادوا تخفيف مرارة الهزيمة بتقديمهم الشخص الذي هزمهم في ضوء من الإضراء المتبائع فيه . ولا يزال لدى الكثير الذي أريد أن أقوله بهذا الصدد فيما بعد . لكن التفاصيل التي يتم إسباغها على القروسية الشخصية لصلاح الدين . ورحمته . وعظفه . لا تتناسب مع هذه النظرية . فليس هناك دافع لإغلاق المديح على صلاح الدين بهذه الطريقة سوى الرغبة في تقديم وصف حقيقي لما حدث . وشهادتهم المتوهجة تؤكد مديح كتاب انسيرة الذاتية العرب لصلاح الدين .

وبعيدا في أوروبا . حيث كانت المعلومات عن صلاح الدين غير مباشرة وغير دقيقة ومحرقة بصورة كبيرة . كان من المتوقع أنه لابد من تقديمه باعتباره التجسيد الكامل للشر .

وقد تم إحضار الراهب المسيحي يواقيم أوف فيوري Joachim of Fiore الذي اشتهر بنبوءاته عن نهاية العالم . لرؤية ريتشارد قلب الأسد عام ١١٩٠ عندما كان ريتشارد في طريقه إلى الأرض المقدسة في الحملة الصليبية الثالثة . وتحدث يواقيم عن التنين الأحمر ذي الرؤوس السبعة المشار إليه في سفر الرؤيا بالكتاب المقدس . وبالنسبة ليواقيم كانت الرؤوس السبعة للثنين هم أولئك المضطهدون (بكسر افاء) الكبار للكنيسة . ومن بينهم الإمبراطور نيرو Nero والمسيح الدجال وصلاح الدين .

عند هذه الملاحظة الاعتراضية ينبغي أن أختتم مناقشتي لفكرتي الأولى الخاصة بصورة صلاح الدين كما قدمتها المصادر الغربية المعاصرة .

وانتقل الآن إلى فكرتي الثانية : تطور أسطورة صلاح الدين في أوروبا الغربية .

لقد كان لزاما أن يتلاشى تطرف ولا معقولة يواقيم أوف فيوري بسرعة بمجرد ظهور آراء أكثر دقة أو حتى آراء مصورة بطريقة رومانسية عن صلاح

الدين حمئها الصليبيون العائدون معهم .

وقد بدأت أسطورة صلاح الدين تتشكل بالفعل فى عصر دانتي Dante (١٢٦٥ - ١٣٢١) . فنجد أن خمسة مسلمين فقط قد جرت الإشارة إليهم فى كتاب دانتي الشهير « الكوميديا الإلهية » . الذى يتناول الجنة . وعالم النسيان . والجحيم . ومن المثير أن نلاحظ أن دانتي وضع صلاح الدين فى الفئة الثانية من عالم النسيان بين الأبطال الأطهار إبان العصور القديمة . (مثل اينياس Aeneas والحكماء العظام الذين عاشوا قبل ميلاد المسيح) . ولا شك أن هذا أمر ملفت للنظر بصورة كبيرة من زاوية حقيقة أن صلاح الدين كان اخصم الأكثر شهرة للمسيحية فى زمن الحملات الصليبية .

ونفس صورة صلاح الدين . كبطل متسم بالفروسية . تظهر فى العديد من الأعمال الرومانسية الفرنسية فى العصر الوسيط . وأحد الأمثلة النموذجية لذلك الرواية الرومانسية التى ظهرت فى القرن الثالث عشر . والتى نجد فيها أن اليانور أوف أكويتين . الملكة الفرنسية الشهيرة . تقع فى حب صلاح الدين . بعد سماعها عن شجاعته وكرمه وصدقه . وتقدم روايات عديدة أخرى . فى العصر الوسيط . صلاح الدين كفارس مشرب بسجايا الفروسية الغربية .

ومن ثم فإنه يحق أن نفترض أن صلاح الدين دخل بهذا النحو إلى نسيج الفولكلور الأوربي . ومما يثير الدهشة أن أسطورة صلاح الدين اكتسبت حياة جديدة فى منتصف القرن الثامن عشر ووصلت إلى صورتها الأكثر رمزية ونمطية . فقد كتب الكاتب الكلاسيكي الألماني لسنج Lessing مسرحية تدعى Nathan der weise (ناتان الحكيم) تظهر فيها شخصية صلاح الدين . ويكون هو موضع التفضيل الأكبر فى المسرحية عند مقارنته بممثل المسيحية . وهوشاب جامع من فرسان الهيكل . والمسرحية مثال نموذجي للدراما التعليمية فى هذا العصر . ولذلك فإنه ليست هناك للتوقف الزائد عندها هنا . فهدفها هو التبشير بالتسامح الدينى . وصلاح الدين جرى تصويره فيها كنموذج

أصلي للمسلم الطيب . الفاضل والمتسامح تجاه الأديان الأخرى . وبالضبط فإن تقديم لسنج لصالح الدين غير ملائم ومنظور على مفارقة تاريخية .

(فأعمال صلاح الدين الشخصية التي تنطوي على الرحمة تجاه المسيحيين والتي وردت في مصادر إسلامية ومسيحية على حد سواء لا تقتضي ضمنا . بأية حال . أن إيمانه بالإسلام كان واهيا) .

ومع ذلك فإن الروح العامة لشخصية صلاح الدين على النحو الذي صورها به لسنج صحيحة بالنسبة لبدايته - ولأهله لعائلته وسخاءه في منح المال واضمحان بجلاء .

(والأهم من كل شيء هو أنه مما له مغزى أن لسنج اختار صلاح الدين بوصفه المسلم المثالي . فهذا البعث لبطل مسلم عظيم في صالونات ألمانيا بعد أكثر من خمسمائة عام أعقبت وفاته . يعد من بين عجائب التاريخ) .

وأنقل الآن إلى بلوغ أسطورة صلاح الدين أوجها في موطنى - اسكتلندا - ولدى كاتبه الأعظم . روائى القرن التاسع عشر السير والتر سكوت Sir Walter Scott الذى كتب ثلاث روايات عن الحملات الصليبية . والذى كرس إحداها ، الطلسم . لصالح الدين نفسه . ويقبض سكوت - ابن عصره - على العناصر الرومانسية لأسطورة صلاح الدين بشدة . وفي الرواية يبدأ مسيحي وفارس مسلم بالقتال فيما بينهما . ومن جراء انهماكهما في هذا القتال يعقدان هدنة ثم يتحدثان ويصليان معا . وفي نهاية الكتاب فقط يكشف النقاب عن هوية الرجلين : المسيحي أمير اسكتلندى ، والمسلم - الذى هو البطل الحقيقى في رواية الطلسم - هو صلاح الدين .

إن سكوت لم يخطك بالشرق الأوسط على الطبيعة . وقرأ عنه فقط وتحدث مع هؤلاء الذين زاروا المنطقة . لكن صلاح الدين . مثال الفروسية . خلب لب « سكوت » وملك عليه خياله . وهو يقيم الديانتين . المسيحية والإسلام . باستخدام صورة ملفقة للنظر . الفارس المسيحي يقطع صولجانا حديديا ثقيلًا إلى

شطرين مستخدما سيفاً قويا له يلدان . أما صلاح الدين فيضع وسادة حريرية على حافته ويسأل المسيح إذا ما كان يستطيع أن يشقها بسيفه . ويرد المسيح قائلا إن ذلك سيكون مستحيلا نظرا لأنه لن تكون هناك مقاومة . عندئذ أخذ صلاح الدين سيفه المعقوف الرفيع وسحبه برفق على الوسادة التي تمزقت إلى نصفين .

على هذا النحو . قام « السير والتر » . في اسكتلندا البعيدة . بتحية صلاح الدين واخضارة الإسلامية التي عبر عنها بطله .

ومؤخرا بعد السير والتر سكوت ظهر فيض من السير الذاتية لصلاح الدين . كتبها مستشرقون غربيون مثل لين بول Lane Pool وجيب Gibb وجاكسون Jackson وليونز Lyons . (ليس جميعهم ممن يشاطرون التزعة الأدبية لـ « سكوت » . لكنهم جميعا حافظوا على الصورة المتقدمة لصلاح الدين سليمة وغير ملطخة) . لقد نزعوا عنه المسحة الأسطورية بدرجات مختلفة لكنهم لم يلحقوا أى ضرر بالخطوط العامة الأساسية لسيرته . والسمات الأساسية لشخصيته . والنطاق العام لمنجزاته . أما الصوت الوحيد المعارض فكان اهرنكرويتز Ehrenkreutz الذى كتب عام ١٩٧٢ سيرة ذاتية لصلاح الدين مثيرة للجدل والخلاف . وحاول فيها الإطاحة بصلاح الدين من فوق عرشه . ونحاجى اهرنكرويتز بأن سمعة صلاح الدين قامت على تحريره للقدس . وبدون هذا لم يكن بإمكانه التباهى بأى انجازات بارزة . وحتى الانتصار العظيم الذى حققه صلاح الدين فى حطين . جاء - وفقا لمحادثة اهرنكرويتز - نتيجة للاستفادة من أخطاء تكتيكية جوهرية من جانب الصليبيين أكثر مما جاء نتيجة لتخطيط إنجابى وضعه صلاح الدين نفسه . وفى حكمه على صلاح الدين يلمح اهرنكرويتز إلى :

« إنه بسبب مديح عماد الدين الأصفهاني وابن شداد ارتفعت مكانة صلاح الدين إلى مستوى العظمة الأسطورية والتزاهة المبرأة من أى عيب وكل خطيئة . »

وآمل أن الافتقار إلى الحججة المتضمن في هذا التقييم . قد تمت البرهنة عليه في الصورة التي قدمتها المصادر الصليبية الغربية المعاصرة التي تحدثت عن صلاح الدين والتي ناقشتها في هذه الورقة . وإذا كان صحيحا أن صلاح الدين قد ظهر في مرحلة انخراط حرجة للقوة الصليبية . وأن التناحرات البائسة والتافهة قد فاقمت ضعف الصليبيين قبل حطين مباشرة . فإن الأمر الذي يظل مؤكدا ولا يقبل الجدل هو أن صلاح الدين قد عرف كيف يستفيد من هذا الوضع وتحرك بثقة صوب ذروة نجاحه . وتفوقه على معاصريه . مسلمين ومسيحيين على حد سواء . اعترف به أعداؤه الصليبيون أثناء حياته . وظلت صورته غير ملصخة - حتى وسط التعصب الأعمى للعصور الوسطى الأوربية - بل إن صورة صلاح الدين تم تناوفا بطريقة رومانسية في نفس هذا العصر . أى في العصر الذي كان فيه موقف أوروبا تجاه الإسلام مزيجا مؤسفا من الجهل والعداء .

لكن تبقى هناك مشكلة واحدة . هي التي تنقلني إلى الفكرة الثالثة في هذه الورقة . ويمكن اختصار هذه المشكلة بإيجاز في الكلمات التالية : « لماذا صلاح الدين ؟ » . لماذا كان هو . وليس زنكى أو نور الدين . الذى حظى بمناجح الأجيال التالية كلها ؟ ! إن زنكى يمكن استبعاده على الفور نظرا لأن عملياته كانت تدور - نجلاء - ضمن مجال سياسة السلطة فقط . كما أن شخصيته حتى في المصادر الإسلامية تظهر كشخصية تقتصر إلى الجاذبية . ويرفضه ويليام الصورى لكونه « رجلا بالغ القسوة » . لكن ابنه نور الدين كان ذا شأن مختلف تماما . فقد كان موضعاً للمزيد من الإعجاب والاحترام . في حياته . من جانب المسلمين والمسيحيين على حد سواء . وفي الحقيقة فإن ويليام الصورى يصفه بأنه « أمير عادل وحاذق وحكيم ومتدين . على الأقل وفقا للمعتقدات التي يتبناها شعبه » . وفي الحقيقة فإن نور الدين كان سلفا صالحا لصلاح الدين . فلماذا إذن أصبح صلاح الدين الأكثر تكريرا من جميع الزعماء المسلمين في العيون الغربية ؟ من الواضح أن صلاح الدين كان له أصدقاء بين الفرسان الصليبيين . مثل باليان Balian . وأنه كان يحظى بكثير من الاحترام من جانب ريتشارد

قلب الأسد وريتموند أمير طرابلس. وكرمه عند النصر بعد حطين وبعد القدس قد سجلته المصادر الصليبية وأضرت عليه . وعموما كان هناك صدق واضح في الصورة الأسطورية اللاحقة عنه التي قدمته كرجل متحضر وجدير بالاحترام وعظوف . لكن يبقى أن هذا لا يفسر لماذا أصبح صلاح الدين أكثر المسلمين شهرة في الغرب . إذا ما استثنينا النبي (محمد) نفسه .

في التحليل النهائي . ربما كان ذلك لأن صلاح الدين كان هو الذي استولى على القدس ولهذا أصبح نسيج الأسطورة . لقد ظل المسيحيون يتوقون لاستعادة السيطرة على المدينة الأكثر قداسة . نحو خمسة قرون . والآن . وبعد أن انتزعوها من المسلمين بفضل مجهود يفوق طاقة البشر . ووطدوا العزم على رفض التخلي عنها . سقطت في أيدي المسلمين مرة أخرى . وكانت هناك حاسة سادسة بين المسيحيين بأن الكارثة يتعذر إصلاحها هذه المرة . هذا البعد الإضافي جعل سقوط القدس يكاد أن يكون أمرا لا طاقة للمسلمين به . وسواء في المشرق أو في الوطن بالغرب .

ولم يكن التأكيد على أن الرجل الذي هزمهم ذو عزيمة غير عادية . إلا من قبيل « ميكانيزم » الدفاع الطبيعي . فالاعتقاد بأنهم خسروا أمام خصم خارق للعادة ويكاد أن يكون إنسانا أسنى . ربما كان وسيلة للتغلب على خزي الهزيمة . ومثل هذا الأسلوب ليس غريبا بالنسبة للطبيب النفساني .

وأيا كان سبب ذبوع سمعة صلاح الدين فإنه من الصواب أن نقول إنه مامن مسلم آخر على الإطلاق تعلق به خيال أوروبا ونحلب لها مثلما فعل صلاح الدين . وهذا عزاء مناسب لرجل عظيم ..

ملاح خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير القدس بحث مقدم من اتحاد المؤرخين العرب

.. ولذلك أيضا فإن انتصار صلاح الدين هذا
لم يكن نتيجة لضعف الصليبيين. وإنما للحظة
العسكرية الحيدة والياسة الحكيمة التي انتهجها
في إعدادة للمعركة ومشاركته الفعلية فيها.

.. كان وجوده في وسط المعركة من العوامل المهمة التي دفعت العسكر إلى
الاستماتة في القتال.

معركة حطين !

ثم يدخل صلاح الدين في صراع مع الصليبيين في الفترة السابقة لانشغاله بإقامة الوحدة بين المدن والأقاليم الإسلامية التي تمكنه بطاقتها من تحقيق هدفه . وبعد كفاح دام اثني عشرة سنة تمكن من تحقيق وحدة قوية تمتد من النيل إلى الفرات . ولم يبق أمامه - طبقا لمقتضيات الواقع السياسي والعسكري - إلا إعلان الجهاد ضد الصليبيين . بعد أن كسب على المستوى الأيديولوجي والإعلامي ثقة جمهور المسلمين^(١)

وكان كل شيء معدا بالنسبة لصلاح الدين عند نهاية سنة ٥٨٢هـ - ١١٨٦م . نجد أن صلاح الدين كان محافظا على شروط المعاهدة التي أبرمت مع مملكة بيت المقدس سنة ٥١٨هـ / ١١٨٥م . وكان عليه أن ينتظر حتى يزود بذريعة للهجوم عليه^(٢) . وربما أراد صلاح الدين ألا يدفع عسكره لقتال لا يعلم نتائجه . فقد تكون عاقبة الحرب وخيمة .. ولذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب دفعا . ولا يكون هو المسئول وحده عن نتائجها . وجاءت الفرصة مناسبة بالنسبة لصلاح الدين عندما نقض البرنس أرناط أمير الكرك العهد المعقود بين صلاح الدين والصليبيين^(٣) . بعد أن أظهر أنه مع الهدنة وجنح للسلم وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه . وبقي الأمن له شاملا والقفل في طريق مصر من طريق بلده متواصلا وهو يمكن الجاني والناهب حتى لاحت له فرصة في الغدر فقطع الطريق وأخاف السيل .

(١) Look : Suian. L'Islam et la Cresiade, p94 Lane Pool. Ahistoy of Egypt p 208

(٢) جب صلاح الدين ١٤٧ .

(٣) Look. Aliya Crusade. Commerce and Cuiture. (London 1962) p.p48.79.

ووقع في قافلة ثقيلة معها نعيم جليلة فأخذها بأسرها وكان معها جماعة من
الأجناد فأوقعهم في الشرك وحملهم إلى الكرك وأخذ خيلهم والعدة . فأرسلنا
إليه واذمنا فعاله وقبحنا احتياله واغتياله فأبى إلا الأحرار والأحرار فنذر السلطان
دمه^(١) .

كان صلاح الدين آتئذ بدمشق فأرسل إلى جميع الأطراف باستدعاء المعسكر
للسير لحرب أرناط ، فجاءته من كل فج . وخرج هو من دمشق مسرعا إلى الجنوب
في ١ - محرم - ٥٨٣ هـ / ١٣ - ٥ - ١١٨٧ م بعد أن ترك ولده الأكبر الأفضل
عند رأس الماء القريبة من دمشق . يستدعي إليه الأمراء الواصلين ويجمع « الأعارب
والأعاجم والأتراك »^(٢) وتقدم صلاح الدين إلى قصر السلام القريبة من بصرى
ليمنع اعتلاء أرناط على قوافل الحجاج القادمين من مكة والتي قيل إن أخته كانت
فيها^(٣) .

وقد تمكن صلاح الدين من منع اعتلاء أرناط على قافلة الحجاج . التي
وصلت إلى مصر بسلام . وبعد ذلك خرج صلاح الدين من بصرى إلى عشترا .
واستعرض عسكره فكان اثني عشر ألف مقاتل رتبهم أطلابا^(٤) وخرج بهم إلى
الأردن يوم الجمعة ١٧ - ربيع الآخر - ٥٨٣ هـ ونزل بئر الأقحوان . وأقام بها

(١) العماد الأصفهاني . انظر الروضتين : ٧٥/٢ ولمعرفة المزيد من غزو أرناط للقافلة الإسلامية وردود
الفعل عند صلاح الدين انظر : النوادر السلطانية : ٧٤ - ٧٥ : الأصفهاني . انفتح : ١٣ .
العلمي . الأنس الجليل : ٣١٩/١ . الدويهي . تاريخ الأئمة : ٨٧ - ٨٨ : تاريخ ابن
الوردى : ١٣٧/٣ .

(٢) العماد الأصفهاني في البرق الشامى : انظر الروضتين ٧٦/٢ .

(٣) مفرج الكروب : ١٨٦/٢ - ١٨٧ : العريني . الشرق الأوسط والحروب الصليبية ١ : ٨٢٣ .

(٤) الأطلاب : جمع طلب وهي كلمة كروية معناها الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان
القتال . وتطلق على قائد المائة أو السبعين . وأول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام في أيام
صلاح الدين . ثم عدل مدلوله وأصبح يطلق على النكبة . انظر : السلوك تحقيق مصطفى زيادة
٢٤٨/١ هامش رقم ٢ .

خمسة أيّام يعين مواقع القتال . ومواقف الأمراء وكان عسكره قد أحاط ببحيرة طبرية^(١) عند قرية القنيطرة^(٢) . ولما بلغ الصليبيين خبر اجتماع العسكر الأيوبي وتقدمه نحو الأردن علموا بأن صلاح الدين قاصدهم . لذلك اجتمعوا واصطلحوا . ودخل القمص معهم . بعد أن كانت بينه وبين صلاح الدين معاهدة سلام . واحتشدوا عند صفورية . بعد أن رفعوا صليب الصليوت^(٣) وكانوا في خمسين ألفا^(٤) ، وقيل في عشرين ألفا . غير أنهم لم يتقدموا لحرب صلاح الدين^(٥) . فاستغل هذه الفرصة للهجوم على طبرية بعد أن ترك أطلابه نجاحتها قبالة عساكر الصليبيين^(٦) . ولم يمضى إلا وقت قليل حتى تمكن من في معيته من الحجارين والتقاين من أن يحدثوا ثقباً في سور البلد ويستولوا عليه في ٢١ - ربيع الآخر - ٥٨٣ هـ / ٢ تموز ١١٨٧ م من دون القلعة التي امتنعت عليه^(٧) .

(١) تقع طبرية فوق جبل مطل على بحيرة طبرية . وعليها سور حصين . وبخيرتها لا يعيش فيها حيوان . كانت في أيدي المسلمين إلى أن ملكها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ وبقيت بأيديهم حتى استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ / ابن شداد . الأعلام الخطرة ق ٢ . ح ١٢٩ : ١٣ - ١٣٢ و ١٣٣ .

(٢) النوادر السلطانية : ٧٥ - ٧٦ : الروضتين : ٨١ / ٢ : مفرج الكروب : ١٨٧ - ١٨٨ . (٣) صليب الصليوت : هو قطعة من الخشب يعتقد الصليبيون بأن المسيح (عليه السلام) صلب عليه . ونذلك أصبح هذا الصليب مقدساً . وقد جاء به البطريرك من القدس ليرفع في المركز ضد المسلمين . اعتقاداً منهم بأنه ينقذهم في أوقات الأزمات .

Rasekault, Saledin Prina of Clivalry p 185.

ومعرفة المزيد عنه انظر مجلة المشرق السنة ٤٣ ج ٢ ١٩٤٩ ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(٤) السلوك : ٩٢ . ١ مفرج الكروب ١٨٩ ، ٢ : الأنس الجليل ٣٢ : ١ .

(٥) لامب . شحنة الإسلام ترجمة عبد الله يعقوب (تعداد ١٩٦٧) ص ١٠٧ .

(٦) النوادر السلطانية : ٧٦ : مفرج الكروب : ١٨٨ ، ٢ .

(٧) النوادر : ٧٦ . الأصفهاني . التفتح : ٢٢ : الكامل ١١ : ٥٣٣ - ٥٣٤ : الأنس الجليل :

١ : ٣٢٠ : زبدة الخلب : ٩٣ : ٣ . وبنات الأعيان : ١٧٢ : ٦ : جب صلاح الدين : ١٤٨

Grousset op cit 11 p.193.

وقد مدح الشاعر ابن الساعاتي صلاح الدين بقصيدة بمناسبة فتحه لمدينة
ضبرية ذكره فيها بأن هذا الفتح . إنما هو مقدمة لفتح القدس وأن هذا النصر قد
أقر عيون المؤمنين . وأن صلاح الدين إنما يقاتل الصليبيين في سبيل الله لأرياء
من أجل ملك الدنيا فقال :

جلت عزماتك الفتح المينا فقد قرت عيون المؤمنيننا
يقاتل كل ذي ملك رياء وأنت تقاتل الأعداء دينا^(١)
وقد أحدث فتح صلاح الدين لطبرية ردود فعل قوية في مملكة بيت المقدس
فكان على أثره اجتماع الملك جاي لوزجنان بالبارونات في عكا . وأصدر قرارا
للتعبئة العامة وافق عليه مجلس النبلاء . بعد إقناع الأمير جيار المتعطرس على
نسيان حقه الذي كان يحمله ضد مقدم الاستتارية وباليان أمير بيت
جديل^(٢) .

وقد انضم الداوية والاستتارية بكل مالديهم من فرسان وأموال . وتقرر
حضور البطريك هرقل للاشتراك في الحرب بصحبة الصليب المقدس . غير أن
المرض منعه من الحضور فأرسل الصليب إلى أسقف عكا^(٣) . وبذلك تبين أن
الصليبيين كانوا يخططون للقيام بحرب شاملة وقوية ضد صلاح الدين . وأن دعوة
البطريك والصليب المقدس للاشتراك في الحرب معناه أن الملك والنبلاء قرروا
خوض حرب حاسمة ضد صلاح الدين لا مجرد غزوة عابرة .

وكان الصليبيون وقتذاك بصدد إحدى خطتين : إحداها هجومية تقدم بها
البرنس أرناط . والأخرى دفاعية تقدم بها ريموند الذي نصح الملك والنبلاء -
بحكم معرفته بظروف المنطقة . وصداقته لصلاح الدين السابقة - بعدم مغادرة
صفورية - التي كانت مركز تجمع القوات الصليبية - حتى لو سقطت ضبرية

(١) ديوان ابن الساعاتي : ٢ : ٤٠٦ : ١ : ٥ انروستين : ٢ : ٨٤ - ٨٥ .

(٢) Grounset op cit II p.187 . (٣)

Rosekoulit op. cit p.177 (٢)

جميعها بيد صلاح الدين . لأن صفورية تتمتع بموقع جغرافي ممتاز . نظرا لظروف الطبيعة الملائمة . وخلق المناطق الأخرى من المياه^(١) . إلا أن أرنأط اتهم ريموند بالميل نحو صلاح الدين . وتمكن من التأثير على الملك جاي . ودفعه إلى إصدار أوامره بالتقدم نحو صلاح الدين من دون استشارة بقية النبلاء^(٢) وبذلك سار الجيش الصليبي إلى مصيره البائس . وكان أملهم الوحيد . قطعة الصليب المقدسة التي اعتقدوا بأن يخدمها حارس خاص . وأنها ستفعل المعجزة وتنصرهم^(٣) .

وبمغادرة الصليبيين موقعهم في صفورية . تحقق النجاح الأول لسياسة صلاح الدين الحكيمة التي قضت بإخراج الصليبيين من صفورية عن طريق الهجوم على طبرية . لأن صفورية كانت مشهورة بغزارة مياهها . حتى في زمن الصيف . وكان بإمكان الصليبيين الاستمرار بمقاومة صلاح الدين لو مكثوا فيها لكثرة موجوداتها من المراعى والمواد الغذائية . وهذا هو السبب الذي دفع ريموند من قبل أن يطلب من الملك جاي بمغادرة صفورية^(٤) .

وهكذا تبدو سياسة صلاح الدين العسكرية في إخراج أعدائه إلى ساحات القتال الواسعة بعيدا عن الظروف الملائمة ، لأنه كان يتوق للاشتباك معهم بمعركة فاصلة . ومما يدل على أن صلاح الدين كان يخطط لمثل هذا الأمر ، وأنه كان ينوى القضاء على الصليبيين وتحرير أرض الشام من أيديهم ، ما قاله لسكره عندما سمع بمغادرة الصليبيين صفورية : هذا مانريد ونحن أولو بأس شديد وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ولا عن فتحه وازع^(٥) وفي الوقت

(١) steuenson op. cit pp. 244-245.

(٢) King the knights p.125.

(٣) hoekout op cit p1888.

(٤) Lane Pool. saladin pp. 205-206 hoekaut op cit p 184.

(٥) العهد الأصفهاني في النبرق الشامى : انظر الترويضتين ٧٦٠٢ .

لذى استعداد فيه الصليبيون للهجوم . كان صلاح الدين كما ذكر الأصفهاني - يسهر
ليل . ويعين مواضع القتال لأجناده . ويأمر بملء الجعاب وكنائنها بالنبال . حتى
نه فرق من الشباب أربعمائة حمل : كما عين سبعين موضعا ملأها بالشباب .
ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها^(١) .

وفي صباح يوم الجمعة ٢٤ - ربيع الآخر - ٥٨٣ هـ / ٣ تموز ١١٨٧ م وصل
العسكر الصليبي على جبل طبرية في منطقة تعرف باللوييا فأسرع صلاح الدين إلى
التقدم نحوهم والاصطدام بهم . قبل أن ينتقلوا إلى موضع آخر يتحصنون فيه . لأن
المنطقة التي وصل إليها الصليبيون كانت أرضا مكشوفة خالية من كل شيء . عدا
حرارة الشمس المحرقة والحصى والرمال : وكان صلاح الدين قد ردم من هذه
لمنطقة صهاريج لمياه . ومنع الصليبيين من القرب من المياه القريبة من طبرية .
لذلك وجد الصليبيون من العطش كبيرا ، ولما وجدوا بأنهم لا يقوون على المسير
بسبب الإتهاك والعطش قرروا المبيت فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين .

وفي صباح اليوم التالي الموافق السبت ٢٥ - ربيع الآخر / ٤ تموز اكتشف
الصليبيون بأنهم محاصرون بعيدا عن المياه . فتركوا مسرعين إلى فرون حطين وهناك
دارت معركة رهبة انتصر فيها العسكر الأيوبي انتصارا عظيما بعد أن أحرق تحت
أقدام الصليبيين الأعشاب . فاجتمع عليهم العطش ومر الزمان وحر النار
والدخان وحر القتال^(٢) .

(١) نفس المصدر والمكان السابق .

(٢) ابن الأثير . الكامل ٥٣٦: ١١ ولمعرفة المزيد عن تفاصيل هذه المعركة التفصلة التي اعتبرت حلا
حاسما في العلاقات السياسية بين صلاح الدين والصليبيين . انظر انعم الأصفهاني . الفتح المقدسي
١٢ - ١٤ : ابن شداد النوادر السلطانية : ٧٦ - ٧٩ : ابن أيوب المنتخبات : ٢٨٩ - ٢٩٢ :
ابن واصل . مفرج الكرب ١٨٩/٢ - ١٩٤ : أبو شامة . التوضيحين ٧٦/٢ - ٧٩ المقرئ
السلوك ٩٣: ١ ابن التميمي زبدة الخلب : ٩٣/٣ - ٩٥ ابن تغريدي النجوم الزاهرة : ٦ .
٣٢ - ٣٤ . تاريخ ابن الوردي : ١٣٨/٢ - ١٣٩ أبو الفداء . المنتصرة : ٩٥.٥ - ٩٧ ضبط =

ولذلك فقد تمكن صلاح الدين من قتل عدد كبير منهم . وأسر مقدميهم . وكان منهم الملك جفرى^(١) الذى فقد كل فرسانه . ولم يبق حوله إلا مائة وخمسون فارسا . قاتل المسلمون حوهم وأسروهم^(٢) كما أسروا البرنس أرناط وأخا الملك وابن الهنفرى وابن صاحبة طبرية . ومقدم الداوية والاستتارية . وصاحب جبيل ولم ينج إلا القونس الذى هرب إلى صور فى بداية المعركة . بعد أن عرف أمارات الخذلان عليهم . وقد أمر صلاح الدين بقتل مقدمى الداوية والاستتارية . كما هو قتل بيده البرنس أرناط لأنه كان قد نذر دمه لاعتدائه المتكررة على قوافل المسلمين وتهجمه على النبی محمد (ﷺ) بينما أكرم الملك جاي وعومل بالإحسان^(٣) .

ومن الجدير بالملاحظة أن العسكر الصليبي كان يفوق فى العدد والعدة العسكر الأيوبي . وكان المقاتل الصليبي محميا بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه وكان الفارس منهم يحمل من الأتعة ما يجعل السهم والرمح لا يؤثر فيه . وكان الخطر الوحيد الذى يهدده هو السقوط من على ظهر الفرس^(٤) .

= ابن الجوزى مرآة الزمان ق ١ ج ٨ - ٣٩٢ - ٣٩٤ ابن كثير البداية والنهاية : ١٢ / ٣٣٠ - ٣٣٢
المظاهرى كتاب زبدة كشف المالك : ٤٣ العليمى . الأنس الجليل ١ / ٣٢٠ - ٣٢٣ :
القلقشندي مآثر الأتانة : ٣ / ٣٠٤ - ٣٠٨

Lasepoel Ahistoy of Egypte P P 207-208

Lasepool. Saladia PP.197-216 Grousat cit. 11. PP 193-7983 Steuensan op cit PP. 243-246

(١) الملك جفرى أوجى . هو الملك جاي لوزجتان ملك بيت المقدس وقد أطلقت عليه المصادر
التعريبية التسمية الأولى . وقد تولى الملك بعد وفاة بلدوين الخامس سنة ١١٨٦ هـ .

(٢) Besant op cit p 391

(٣) ابن شداد . النوادر السلطانية : ٧٧ - ٧٨ . وانظر ما فات من مصادر فى هامش رقم (١) من
الصفحة السابقة .

(٤) Rosenkawu op cit p.185

لذلك لم تكن الهزيمة التي أصابت الصليبيين نتيجة لضعف أو فساد كان فيهم إنما كانت قيادتهم ضعيفة وقابلهم جيش موحد من المسلمين له قائد محنك هو صلاح الدين . الذي أصبح معروفا في أوروبا النصرانية بعد انتصاره هذا وأصبحت سياسته حديث الساعة التي تناقلها الناس . حتى ظهرت في العصور الوسطى أسطورة أوربية تدعى بأن صلاح الدين سافر إلى أوروبا واعتنق النصرانية إلا أنه تركها بسبب تصرف رجال الدين السيئ . ثم عاد إلى الشرق ليحاربهم بعد أن تعرف على أساليبهم وسياستهم^(١) .

ولذلك أيضا . فإن انتصار صلاح الدين هذا . لم يكن نتيجة لضعف الصليبيين أو لقلة عددهم وعددهم . إنما للخطة العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التي اتبعها في إعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها^(٢) فقد أحسن اختيار أرض المعركة وزمن وقوعها . الذي كان في شهر تموز أشد أشهر السنة حرارة وأقله ماء في الصحاريج إضافة إلى أنه جثم بعسكره على طبرية . وبذلك أصبح بقواته العسكرية حائلا بين الصليبيين وبين الماء . علما بأنه كان قد أمر بردم الكثير من الصحاريج التي كانت منتشرة في المنطقة . فأصبح العطش والحر من بين الأسلحة التي استخدمها صلاح الدين ضد عدوه . إضافة إلى أن وجوده وسط ساحة المعركة كان من العوامل المهمة التي دفعت بالعسكر إلى الاستماتة في القتال . خاصة وأنه كان إذا ما وجد ضعفا في جماعة من أجناده . كان يتقدم إليها ويصيح بأعلى صوته مكررا «كذب الشيطان»^(٣) فيعيد الثقة إلى نفوسهم . ويذكرهم بأن الهزيمة من الشيطان . وأن المعركة إنما هي جهاد في سبيل الله ومضى فيه حتى النهاية ، ومن الأدلة على ذلك ما ذكره الملك الأفضل نور الدين عن والده صلاح الدين قال : كنت إلى جانب أبي في ذلك المطاف .. فلما رأيت

(١) لامب . شعلة الإسلام ١١١ هامش رقم ٢ .

(٢) Ranil Tslam amd the weast (Edinkwah 1966 p.246

(٣) الكامل ٥٣٦/١١ مفرج الكروب ١٩١/٢ .

الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم . صحت من فرجى : هزمناهم . فالتفت
إلى والدى وقال : اسكت ما-هزمهم حتى تسقط تلك الخيمة . يعنى خيمة
الملك^(١) .

ولقد كان لانتصار صلاح الدين فى حطين صدى بالغ الأثر فى نفوس
المسلمين عامة . وأهالى دمشق خاصة - لأن دمشق كانت فى تلك الفترة مركز
أعمال صلاح الدين ومقره وفيها قضاته وكتابه - الذين كانوا طوال أوقات المعركة
ساجدين لله وقائمين يدعونه النصر على الأعداء . وكما سمعوا نبأ الانتصار عبروا
عن فرحتهم بقصرات الدموع التى أخذت تساقط من عيونهم تارة وبالكلمات
المؤثرة التى تضمنت عبارات الشكر والحمد لله تارة أخرى . حتى أن من أراد
دخول الحمام بدمشق عدل عنها بدخول الحمام فى طبرية . وقد جاء بنص الكتاب
الذى أرسله القاضى الفاضل فى دمشق إلى صلاح الدين مايدل على ذلك :

يمنى المولى أن الله قد أقام به الدين القيم . وأنه كما قيل أصبحت مولاى
وموتى كل مسلم .. الرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من
خدودها . وكما فكر الخادم أن البيع تعود مساجد والمكان الذى كان يقال فيه إن
الله ثالث ثلاثة يقال فيه إنه الواحد . جدد لله شكرا تارة بفيض من لسانه وتارة
بفيض من جفنه .. والممالك ينتظرون أمر المولى فكل من أراد أن يدخل الحمام
بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية . وللإنسان بعد فى هذا الفتح شرح طويل
وقول جليل^(٢) .

ولم يكن من نتائج معركة حطين أسر الملك جاي لوزجتان ملك بيت المقدس
وضياع هبة مملكته . ووقوع العسكر الصليبي بين القتل والأسر فحسب بل كانت
هذه مفتاح الفتوح الإسلامية^(٣) فى المنطقة . فقد اتجه صلاح الدين بعدها إلى

(١) نفس المصدر والمكان السابق .

(٢) التوضيحين : ٢ : ٨٢ - ٨٣ .

(٣) مفرج الكروب ٨٨ : ٢ .

سائر المدن والقلاع الصليبية . وأخذ يسقطها الواحدة تلو الأخرى . وبدأ وكأن روح الجهاد الذي كان قد استوى على النصارى فى سبيل استرجاع الأرض المقدسة فى أيدي المسلمين قد انتقلت الآن إلى المعسكر الثانى ^(١) .

فى يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر - ٥٨٣ هـ تموز ١١٨٧ م نزل صلاح الدين على طبرية . بعد أن كانت أصوات عسكره طوال الليل ترتفع بالحمد والتكبير لله تعالى . مما أحدث قلقاً لدى زوجة ريموند التى كانت قلعة صبرية بيدها . لذلك لم يسعها بعد أن تخلص زوجها عنها وتعذر رجوعه إليها - إلا أن تطلب الأمان لها ولأصحابها . فأمنها صلاح الدين ووفى بوعده . فخرجت بما لها ورجاها وسارت إلى طرابلس بلد زوجها ^(٢) علماً بأن صلاح الدين أمر العسكر بأن لا يلحق أى أذى بفرسانها وأن يعاملوا بالاحترام والأمان .

وفى يوم الأربعاء ٢٨ ربيع الآخر ٨ تموز ١١٨٧ م تقدم صلاح الدين نحو عكا ^(٣) . وما أن وصلها حتى خرج إليه أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان . فأمنهم على أنفسهم وأموالهم . وخيرهم بين الإقامة والرحيل . فاخترأوا الرحيل وأخذوا ما أمكنهم حملة وتركوا الباقي فى المدينة ^(٤) . حيث دخلها العسكر الأيوبي يوم الجمعة

(١) حتى فيليب لبنان فى التاريخ . ترجمة أنيس فرخه (بيروت ١٩٥٩) . ٣٦٦ وبالرغم من سلامة قول حتى فى هذا الخصوص إلا أن روح الجهاد لم تنتقل إلى المسلمين بعد هذه المعركة . إنما ظهرت فيها منذ دخول الصليبيين الغزاة بلادهم سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٧ م .

(٢) النوادر السلطانية : ٧٩ : مفرج انكروب ١٩٥٢ . Lanepool Saladin p. 223

(٣) الروضتين ٧٩/٢ مفرج انكروب ١٩٦٢ .

(٤) عكا مدينة واسعة كثيرة الضياع لها مرسى مأمون . ابن شداد الأعلاق الخطيرة فى ٢ - ١٧٥ . وقد ورد ذكرها فى التوراة . وهى أعمال سبط أمر . وتقع فى أول حدود فلسطين . فى موقع ملائم من البحر لها ثغر كبير ترسو عنده السفن المسافرة إلى أطراف القدس . فتحها عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) سنة ٦٦٨ م واستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ م واستعادها منهم صلاح الدين بعد معركة حطين سنة ١١٨٧ م . انظر : رحلة بنيامين ترجمة عزرا حننا (بغداد ١٩٤٥)

٢ جهادى الأولى . وأطلقوا من كان فيها من أسرى المسلمين . وكانوا أربعة آلاف . من دون أن يلحقوا أذى بأهالى البلد .

لهذه السياسة السمحة التى اتبعها صلاح الدين مع أهالى البلد فوائد كبيرة فقد حافظت على استمرار الحياة الاقتصادية . لأن أولئك التجار الأوربيين استمروا بأعمالهم التجارية بعد أن لمسوا من صلاح الدين العدل والصلاح^(١) وبالإضافة إلى أن تلك السياسة المعتدلة ، ساعدت على تسهيل سرعة فتح المدن التى كانت تحت السيطرة الصليبية ، كما أن هذه المعاملة الحسنة - أتاحت للنصارى مغادرة عكا وغيرها من الحصون فتخلص المسلمون من الصليبيين دون حرب .

وتتضح سياسة صلاح الدين الحكيمة وبعد نظره العسكرى فى توجيهه نحو الساحل الشامى بعد معركة حطين وفتح المدن والحصون الصليبية المنتشرة هناك وعدم توجيهه مباشرة نحو القدس . فقد اختار أن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجى . وبخاصة الغرب الأوروبى . ليمسوا محصورين داخل بلاد الشام^(٢) وربما قصد أيضا تسهيل الاتصال البحرى السريع بين موانئه البحرية الموجودة فى الساحل المصرى . وبين تلك الموانئ المنتشرة فى الساحل الشامى^(٣)

ولذلك بعد أن فتحت عكا تقدم العسكر الأيوبى نحو فتح الحصون المجاورة لها أمثال الناصرة . قيسارية . حيفا ، صفورية ، الشفين ، الطور وغيرها ثم تقدم حسام الدين بن لاجين . بأمر من خاله صلاح الدين . نحو مدينة نابلس وحاصرها واستترل من كان بها من الصليبيين بالأمان . وتسلم قلعتها . وأقرأ أهالى البلد على أموالهم وأملاكهم . لأنهم كانوا مسلمين ، وقد مكثوا فى مدينتهم بعد

(١) Grounit op. cit 11 p805

(٢) عاشور الحركة الصليبية : ٨١٣/٢ .

(٣) Stevenson cit p249

استيلاء الصليبيين عليها^(١) .

وفي الوقت الذي دخل فيه صلاح الدين عكا وفتحت نابلس . كان الملك المظفر تقي الدين عمر يخاصر تبين . ولما لم يتمكن من فتحها - لأنها كانت قلعة حصينة على رأس جبل . كتب إلى عمه صلاح الدين يستدعيه ليتولى أمر فتحها بنفسه وهذا اعتراف ضمني من أمراء الأجناد بمقدرة صلاح الدين العسكرية الممتازة . التي لا يقف أمامها أي حصن مهما كانت مناعته .

وقد خرج صلاح الدين إلى تبين استجابة لنداء الملك المظفر . وحاصرها حصارا شديدا حتى اضطرها إلى طلب الأمان . وتسلمها يوم الأحد ١٨ جمادى بعد أن استمهل الصليبيون خمسة أيام ليتزلوا بأموالهم . وقد بذلوا رهائن من مقدميهم وتقربوا إلى صلاح الدين بإطلاق ما كان عندهم من أسرى المسلمين وكانوا يزيدون على مائة رجل . فكساهم السلطان وسيرهم إلى أهلهم . ولما أدخل الفرنج البلد سيرهم السلطان إلى مأمهم ومعهم جماعة من العسكر . فأوصلهم إلى صور^(٢) .

وفي النص السابق ما يدل على سياسة صلاح الدين وخلفه . فبالرغم من احتياجه للعسكر في هذه الأوقات الحرجة . نجده يرسل بالأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم إلى أهلهم بعد أن كساهم ليكسب ودهم وثقتهم . وليكونوا هم بأنفسهم أيضا دليلا ماديا على انتصاره . حيث سينقلون أخبار انتصاره إلى المدن التي سوف يمرون بها ، ثم لا يخفى بأن إرسال بعضا من عسكره لحماية القوة الصليبية المغلوبة على أمرها وإيصالها إلى مأمها - صور - مكرمة من دون إلحاق أي ضرر بها . كانت سياسة في غاية النبل والشهامة وبعد النظر . وربما أراد صلاح الدين بذلك أن يبرهن للصليبيين عامة . ولأهالي صور خاصة . بأنه إنما جاء ليعيد البلاد إلى أصحابها الشرعيين .

(١) الروضتين : ٨٧/٢ - ٨٨ : مفرج الكروب : ٢٠٢٢ - ٢٠٣ السنيك : ٩٤/١ - ٩٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ٢٠٦٢ .

وأن أهدافه سامية تترفع عن إراقة الدماء إلا عن الضرورة . كعاملته لأولئك الذين يغدرون بالمسلمين ويخونون العهود . كما فعل بأرناط مثلاً . ومن ثم ليدفع بصليبي صور إلى طلب الأمان قبل أن يتقدم لفتحها لأن فتح صور كان هدفه الثاني عد فتح القدس^(١) .

وبعد أن استعاد صلاح الدين تبين خرج نحو مدينة صيدا^(٢) . فلما علم صاحبها الخبر . غادرها هارباً وتركها من غير مدافع . وجاءت رسل صاحبها بمفاتيح البلد إلى صلاح الدين فدخلها آمناً مطمئناً . ونصبت على سورها أعلامه الصفر وكان ذلك يوم ٢١ جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ^(٣) .

ومن صيدا خرج صلاح الدين إلى مدينة عسقلان ، ولم يتجه نحو صور ، لأنها أصبحت في هذه الفترة مركز تجمع صليبي الساحل الشامي ، فرأى صلاح الدين قصد عسقلان لأن أمرها أيسر^(٤) ، وربما لانتشار عسكره في الساحل ، وعدم

(١) ذكر ابن القادسي بأن صلاح الدين أرسل إلى بعض أهله كتاباً أوضح لهم فيه انتصاراته وأهدافه ومما جاء فيه (.. ولم يبق في الساحل من جليل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور . والغزو مضمم على قصد القدس .. فإذا يسر الله فتح القدس ملنا إلى صور والسلام » انظر الروستين : ٩١/٢ .

(٢) كانت مدينة صيدا من المعاقل الإسلامية القوية والمهمة لدى المسلمين . وقد قاومت لوحدها الغزو الصليبي ولم تستسلم خوفاً كباقي الحصون الأخرى من الساحل الشامي . إلا أن المدينة نتيجة للضغط الشديد الذي لاقته من الجوع الأكيد والعدة الوفيرة . سقطت بيد الصليبيين سنة ٥٠٤هـ بالأمان بعد أن أخذ أهالي البلد على أنفسهم من بلدوين الأول عهداً بعدم الغدر بهم . إلا أن الصليبيين لم يلبثوا أن وضعوا على رؤوس المسلمين المقيمين بصيدا ٢٥ ألف دينار واستحصلت أموالهم بالباطل . انظر ابن القلائس . ذيل تاريخ دمشق ١٧١ . سالم . عبد العزيز . دراسة في تاريخ مدينة صيدا (بيروت : ١٩٧٠) : ٩٢ - ٩٣ و ٩٧ و ١٠١ - ١٠٣ .

(٣) الكامل : ٥٤٢/١١ الأصفهاني الفتح القدسي : ١٠٢ / ١٠٣ . الروستين ٦٠/٢ . مفرج الكروب : ٢٠٦/٢ ولمعرفة المزيد عن فتح صلاح الدين لمدينة صيدا وأحوال المسلمين فيها انظر صالح بن يحيى . تاريخ بيروت نشره الأب لويس شيخو (بيروت ١٨٩٨) : ٣٤ - ٣٨ . سالم دراسة في تاريخ مدينة صيدا : ١١٤ - ١١٨ .

(٤) التوادر السلطانية .

اجتماع كلمتهم في صور ، ففضل عسقلان لأنها تقع في ملتقى الطرق بين سوريا ومصر^(١) ، علما بأنه دخل إلى صور المركز (كونراد دي مونتفرات) في هذه الفترة وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال . فلما دخل صور وجد أن كلمتها متفرقة - رغم الأعداد الكثيرة التي بداخلها - لأنه لم يكن لهم أمير . ولا مقدم يجمعهم ، فعمل على توحيد كلمتهم بعد أن اشترط عليهم البيع والطاعة له . فأجابوه إلى ذلك فشرع في تحصين البلد وتجديد حفر الخندق ، استعدادا لملاقاة صلاح الدين^(٢) .

ومن الجدير بالملاحظة أن عددا من المسلمين كان يسكن صور بجوار الصليبيين في هذه الفترة ، إذ بعد أن احتلها الصليبيون ، استهوى حب البلدة بعض المسلمين فبقوا فيها مع معاناة الذل والمسكنة . ومشاهدة أسرى المسلمين يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصرف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك في أطواقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الأفتدة ولا يغنى الاشفاق عنهن شيئا^(٣) . ولما خطط صلاح الدين عسكريا بأن يكون فتح صور بعد فتح القدس . لذلك ركز جهده الآن على فتح عسقلان ، واستحضر أثناء فتحها الملك جاي لوزجتان وجيرارد دي مونتورا مقدم اللاوية من سجنها بدمشق . ووعدهما بإطلاق سراحهما إن هما ساعداه في فتح الحصون الصليبية . فاستجابا له وأرسلا إلى أهالي عسقلان وطلبا منهم تسليم البلد إلى صلاح الدين . غير أن أهالي عسقلان رفضوا . فشدد عليهم الحصار . حتى تمكن التقابون من جزء من الصور . فاضطر أهالي البلد إلى طلب الأمان فأمنهم صلاح الدين وسيرهم ونساءهم إلى بيت المقدس^(٤) .

(١) Lanepool Saladin. P223

(٢) مفرج الكروبي ٢٠٨/٢ - ٢٠٩ .

(٣) رحلة ابن جبر (لیدن ١٩٠٧) : ٣٠٧

(٤) النوادر السلطانية : ٨٠ - ٨١ : الروضتين : ٩٢ : مفرج الكروبي : ٢٠٩.٢ - ٢١٠ .

وقد أضيق صلاح الدين سراح جيرارد وفاء بالعهد . لأنه ساعده في فتح حصن غزة . أم الملك جاي فقد أعاده إلى نابلس مسجوناً . وبعث إلى زوجته كتاباً دعاها فيه لتتضور إلى نابلس والإقامة مع زوجها إن شاءت . فرحبت بالعرض وقدمت إلى نابلس^(١) .

وقد امتزجت سياسة صلاح الدين العسكرية تجاه الصليبيين في هذه المرحلة . بعدم استخدام القوة . ومنح الأمان للبلد الراغب في السلام ، والإيفاء بالعهد عن طريق إيصال المنكوبين إلى مأمهم (صور أو القدس) من دون إلحاق أى ضرر بهم . وقد عاب بعض المؤرخين على صلاح الدين هذه السياسة . واتهمه ابن الأثير بتحمل مسؤولية عدم التمكن من فتح صور فقال : ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين . فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان وغير ذلك . كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور^(٢) .

والحقيقة أن صلاح الدين لم يكن مخطئاً في اتباع هذه السياسة . لأن هدفه الأول كان تحرير القدس . وكان عليه أن يتخذ أحد السبلين : إما أن يتجه مباشرة بعد معركة حطين نحو القدس ويحررها . ومن ثم يفتح بقية الحصون والمدن المجاورة . أو أن يفتح المدن والحصون المجاورة ثم يتجه نحو القدس . وقد فضل صلاح الدين الخطوة الثانية . لأنه في حالة تنفيذ الخطوة الأولى ستكون خطوط رجعتة إذن مهددة . وسيطلب منه لتنفيذ هذه المهمة قوات عسكرية كبيرة محاصرة المدن والحصون المجاورة . أو قطع طرق مواصلاتها المؤدية للقدس كي يتمكن من التصدي لفتح القدس بسلام . كما أن هجومه على القدس مباشرة يؤدي إلى استنفار قوات الصليبيين كافة . فتكون عندئذ قوى الصليبيين مع قوات القدس مجتمعة ضده .

(١) عاشور . الحركة الصليبية : ٨١٨.٢ - ٨١٩ .

(٢) ابن الأثير الكامل ٥٥٠.١١

ولما عزم صلاح الدين على تنفيذ خطته الثانية - فتح الحصون أولا ثم القدس ثانيا - واجه أمامه عدة مدن وحصون كان عليه أن يفتحها مثل عكا . صور . عسقلان . بيروت وصيدا وغيرهم ، ولو لم يتبع صلاح الدين السياسة السليمة . لكان عليه أن يضرب بقوة تلك المدن والحصون . وفي هذا نتائج خطيرة على مستقبل فتوحاته وسمعته . ثم لو اتبع صلاح الدين السياسة الخريبة القاسية ضد الصليبيين . لامتنتع عليه كثير من تلك المدن والحصون . ولشغلته طويلا عن تحقيق مهمته الأولى .. فتح القدس .

ومن جهة ثانية . فإن صلاح الدين لو لم يمنح الأمان للصليبيين ويرسلهم إلى صور لأصبح الزخم في القدس شديدا ، ولاستعصى عليه فتحها . ثم لو لم يعلم الصليبيون أن صلاح الدين يسمح لهم بمغادرة حصونهم نبلاء مكرمين إلى القدس أو صور ، لقاتلوا صلاح الدين حتى الموت .

ولما كان صلاح الدين قد خطط لفتح القدس أولا ثم صور . لذلك فإن إرساله للصليبيين المغلوبين على أمرهم إلى هذين المدينتين كان تكتيكا عسكريا منه ، قصد به اشتغال الصليبيين بمهمة الانتقال . وإضعاف مقاومتهم لأن القدس وصور سوف تصبحان بيده إذا ما نجحت سياسته .

أما ما قدر لصور من أن تبقى بعد فتح القدس . عاصية وأن تكون معقلا للصليبيين ، فإن صلاح الدين لم يكن يتوقع مجرى الأحداث في المستقبل . ولم يكن له علم بأنه حملة صليبية ثانية . ستكون قوية . وستضم أعظم ملوك النصرانية آنئذ . ستجبه إلى صور وتتحصن فيها قبل أن يتمكن صلاح الدين من فتحها . ولذلك فمن عبر التاريخ أن نتصور صلاح الدين وكأنه يعد الخطط ويودع قواته للتصدي للهجوم الوشيك من الغرب^(١)

(١) جب - صلاح الدين ص ١٥٢ .

معرفة حطين الإطار والنتائج

كلمة : الدكتور صفى الدين أبو العز
رئيس معهد البحوث العربية

بسم الله الرحمن الرحيم
السادة والسيدات الأفاضل

لقد تحيرت كثيراً في اختيار عنوان لهذه المحاضرة .. هي ليست محاضرة بالمعنى الأكاديمي لكلمة محاضرة .. ولكنها مجرد خواطر .

دفعني إلى الإسهام في هذه الندوة الموضوع الهام الذي تتطرق إليه وهو صلاح الدين ومعركة حطين والموقف العربي ، حتى يمكن أن يكون لنا من استقراء هذا الواقع الذي كان يسود وقتذاك ، أن نتوصل إلى نتائج يمكن أن تكون بمثابة دروس مستفادة كما تفضل السيد الأستاذ رئيس هذه الجلسة .
وعليتنا ألا نكون دائماً أسرى للجوانب الإيجابية من تاريخنا - بل لابد أن نذكر دوماً ما لنا وما علينا .

العنوان الذي تحيرت أمامه هو .. هل أتكلم عن معركة حطين من حيث وراءها الجيوبولوتيكي العام والنتائج التي ترتبت عليها ، أم أتكلم عن معركة حطين في إطار منطقة جغرافيا . وأيا كان ما يقال من أن حروب صلاح الدين إنما كانت في المقام الأول حروباً تهدف من بين ما تهدف إلى تحقيق وحدة الإسلام وإعلاء كلمته ، ولكنها حروب دارت في منطقة سياسية هي منطقتنا العربية .

من هذا المنطلق ، هناك جغرافية محددة المعالم والقسمات قامت فيها هذه الأحداث الجسام التي أثرت ، ليس فقط في تاريخ هذا الجزء من العالم ، ولكنها أثرت في تاريخ المجتمع العالمي والإطار العالمي الشامل . ومن هنا وصلت إلى

عنوان وسط . ألا وهو أن عنوان هذه المخاضرة أو هذا اللقاء هو « معركة حطين .. الورا والتائج » طالما أن معركة حطين لا يمكن لنا أن ندرك ونستكشف كافة أبعادها إلا في هذا الإطار العام ، وفي إطار الحملات الصليبية التي مثلت أول غزوة استعمارية استيطانية للاستعمار البحري الغربي في منطقتنا العربية .

معركة حطين التي دارت على سهل حطين . الواقع بالقرب من بحيرة « طبرية » حدثت كما تعلمون جميعا في شهر يوليو من عام ١١٨٧ ميلادية . وانتصر فيها الناصر صلاح الدين وجيوش المنطقة العربية . وأصبح الطريق أمامه طريقا ممهدا إلى بيت المقدس . غير أن ما يسترعى الانتباه هو أن هذه المعركة لم تحدث إلا بعد مضي قرن كامل من الزمان منذ بدأت الحملة الصليبية الأولى . كما أنها حقيقة لم تمثل المعركة الفاصلة . الحاسمة التي أدت إلى القضاء على الحملة الصليبية ودخولها ذمة التاريخ وانسحاب فلول الصليبيين إذ أن هذا حدث بعد قرن آخر تقريبا . مما يجعلنا نتوقف وقفة هادئة أمام هذا . فما الذي أدى إلى تأخر قيام هذه المعركة .. في اعتقادي أن رجحان كفة القوى الصليبية الغربية بعد معركة حطين ، واستمرار هذا إلى أن جاءت نهاية الحملات الصليبية ، إنما جاء بعد وفاة صلاح الدين ، ولعل هذا هو السبب في أنني توصلت إلى أن وجود القيادة الملهمة - « الكاريزماتيك » وظهورها على المسرح السياسي قد تأخر حقيقة هذه العقود العشرة ، وما أن واثت الفرصة لظهور القائد حتى كانت هذه المعركة ، فعامل القيادة عامل حاسم وهام في معركة حطين . وهو عامل حاسم وهام وأساسي في تاريخنا المعاصر بلا جدال .

لم تكن إذن معركة حطين هي الحرب التي أنهت كل الحروب بين القوى العربية الإسلامية وبين الغرب المستعمر الاستيطاني .

مائة عام قبل حطين

ربما هنالك ملحوظة أخرى قبل أن أبدأ في تحليلي ، ألا وهي أن قيام معركة حطين وحدثها ارتبط إلى حد كبير بالتغيرات العامة التي حدثت على ساحة هذا الجزء من العالم وعلى أوضاع القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما يجعلني أقول بأن معركة حطين جاءت لتمثل معركة بأبعاد جديدة تختلف عن نمط آخر من المواجهات كان سائداً طوال الفترة التي سبقتها . يعتمد في أساسه على الكر والفر . أو على ما يشبه حرب العصابات . وهو نفس النمط الذي استمر بعد معركة حطين إلى أن جاءت نهاية الصليبيين .

العقود العشرة التي انقضت قبل الانتصار في حطين هي التي استطاع خلالها الصليبيون والقوى الغربية أن يعزّزوا مواقعهم ويقيموا دولهم المدينية كمملكة بيت المقدس . وهي أكبرهم في حوزها الجغرافي ، وكدوقية وإمارة «إنطاكية» «وطرابلس» .

وهو الأمر الذي ما كان يمكن أن يحدث على الإطلاق قبل نهاية القرن التاسع .

وقد اخترت هذا التاريخ لأن نهاية القرن التاسع تبدأ معها نهاية الدولة العباسية ونهاية التضامن والترابط بين القوى السياسية المختلفة في هذه المنطقة . وعندما كانت الدولة العباسية في عنفوان وفي أوج مجدها وهيبتها السياسية بعد حدوث تلك الموجات المتتالية من المد والحدوى العارم الذي دمج كل شعوب هذه المنطقة في منطقة جغرافية سياسية واحدة ، جعل هذه المنطقة . منطقة جيوبولوتيكية . بالمعنى المفهوم . بعد الانتصار على فارس وبعد الانتصار على الدولة البيزنطية . وقد تم هذا الامتداد الهائل للإمبراطورية الإسلامية في فترة لا تتجاوز الثمانية عقود .

نحن إذن أمام الإمبراطورية الإسلامية التي تمتد من جبال «البرانس» في

الغرب حتى حدود الهند وجبال طوروس . تمثل حدها الشمالى الفاصل بينها وبين الدولة البيزنطية أو بلاد الروم .

هذه القوة بدأت كقوة برية . لأن عملية التوحيد التى انطلقت بعقيدة الإسلام على شكل موجات متتابعة من الجزيرة العربية التى مثلت طوال فترات تاريخها القلب النابض للقارة الآسيوية . تبعت موجات بشرية متتابعة لتؤثر فيما حولها إلى أن كان قيام الإسلام واندماج هذه المنطقة فى إطار هذه الوحدة الإسلامية .

القوة إذن بدأت كقوة برية . ولكن « بيزنطة » الدولة البحرية كانت تمثل خطراً دائماً يهدد سواحل المنطقة العربية الجديدة مما حول القوى البرية بمضى الوقت إلى قوة برمائية أو قوة بحرية - برية . فبنى المسلمون والعرب أسطولاً بحرياً تمكنوا بواسطته من غزو قبرص ورودس وكريت . وجمعت الامبراطورية الجديدة أو القوة الجديدة بين السيطرة على البر والبحر على حد سواء . وإن دل هذا على شىء . فهو يدل على أن الوعي الجيوبولوتيكي العام بهذه المنطقة كان فى ذلك الوقت وعياً راقياً استطاع أن يدرك أهمية توظيف واستثمار معطيات هذه المنطقة الجغرافية التى تمثل حقيقة البرزخ العالمى الأساسى ومعبّر الوصل بين قارات العالم القديم فى ذلك الوقت .

بعد تفكك الدولة العباسية

التفكك إذن الذى أصاب الدولة العباسية فى نهاية القرن التاسع ، وأدى إلى ظهور عديد من الوحدات السياسية على أنقاضها متمثلة فى الدولة السامانية فى شرق إيران . وفى الدولة البويهية فى غربها ضامة كرمان وخوزستان والعراق . وحتى بغداد رغم استمرار الخليفة العباسى فيها . والدولة الإخشيدية فى مصر . أما بلاد الشام فهى طوال فترات تاريخها كما نعلم كانت معبر الاتصال بين الحضارتين النهريتين الأساسيتين فى كل من مصر وفى العراق .

أسفرت إذن عملية التمزق السياسى التى لحقت بالدولة العباسية إلى تحول الدولة البيزنطية للمرة الأولى من مرحلة الدفاع إلى الهجوم ، ولم تعد جبال طوروس حداً سياسياً طوبوغرافياً فاصلاً بين الدولة البيزنطية والمنطقة العربية ، بل تجاوزته قوات الروم وأوغلت فى التقدم ، واستخدمت الهجوم بالبر والبحر معاً ، فاستردت جزيرة قبرص وطرده العرب والمسلمون من جزيرة كريت .

فى الطرف الشمالى من بلاد الشام ، كانت توجد «دولة الحمدانيين» وهى فى موقعها فى تلك الفترة كانت بمثابة دولة حاجزة ، وكم كنت أود أن تكون هنالك خريطة حتى يمكن أن أستعين بها كوسيلة من وسائل إعطاء مزيد من الإيضاح . الدولة الحمدانية كانت تشغل منطقة حلب والقسم الشمالى من بلاد الشام ومنطقة الجزيرة . بمثابة دولة حاجزة بين «البويهيين» فى الشرق وبين «البيزنطيين» فى الغرب وهذا الذى جعل ولاءها يتأرجح بين هاتين القوتين .

صراع بغداد والقاهرة

الملاحظ هو أن مصر قد ظلت بمنأى عن المشاركة فى هذه الأحداث التى تمثل المرحلة الأولى من الصدام مع القوى الاستيطانية الغربية ، إلى أن قامت الدولة الفاطمية فى مصر بعد منتصف القرن العاشر فى عام ٩٦٩ واستطاعت الدولة الفاطمية أن تمتد بالنفوذ إلى بلاد الشام ومن هنا ارتبطت مصر ببلاد الشام ارتباطاً تاريخياً لفترة طويلة قادمة فى حين استمر التنافس بين الفاطميين وبين سهول الرافدين فى العراق ، هذا التنافس استمر لأكثر من مائتى سنة وهو يمثل استمراراً للتنافس التقليدى القديم بين البيهتين النهريتين فى هذا الجزء من العالم . بطبيعة الحال ، احتدام هذا التنافس بين الفاطميين فى مصر وبين الخلافة فى بغداد قد أدى إلى تشجيع الروم على الاستمرار فى التوغل جنوباً حتى وصلوا إلى مدينة دمشق وبدأت بعد ذلك المرحلة الثانية من الحملة الصليبية .

الذى يعنينا فى هذا أن الفاطميين بلغوهم إلى الهجوم ، استطاعوا فى

مرحلة ما إيقاف زحف الروم على بلاد الشام . وفي نفس الوقت أدى التنافس بين الفاطميين والعباسيين إلى توغل الأتراك من سهوب آسيا وبلاد التركستان .

بعد هذه الهجمة التركية تمزقت الكيانات السياسية واشتد التنافس بين القاهرة وبغداد واتخذ بعداً جديداً كتنافس بين السنة والشيعة . وبين الأتراك والعرب . وبين أمراء المواقع الساحلية والمواقع الداخلية : وبين حلب ودمشق . وتحولت المنطقة العربية إلى خليط مربك ومعقد من الوحدات السياسية والكيانات المتصارعة والمتصادمة .

تدهور الدولة الفاطمية وانكفاء مصر على مشكلاتها الداخلية كان عاملاً سلبياً في هذا الصدد .

يبدو لي أنني لم أتعرف على الحدود الزمنية لهذا اللقاء : لأنه كما يبدو هنالك عدداً آخر من الزملاء المتحدثين ، ولعل هذا يجعلني أقفز إلى انتصار حطين الذي حدث في عام ١١٨٧ ، ودلالته .

بداية نهاية الغزوة الاستيطانية

معركة حطين ، يقينا ، تمثل بداية النهاية للغزوة الاستيطانية الغربية . والتي وإن كانت دوافعها دينية إلا أنها في واقع الأمر كانت دوافع اقتصادية وتجارية وسياسية من أجل السيطرة على هذا الجزء من العالم دون أن أخوض في مزيد من التفصيل .

إن هذه المعركة أنهت زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم في المنطقة العربية ، لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر في مواجهة كل الأخطار .

إنها جاءت لتؤكد أن رجل العالم المريض في العصور الوسطى قد بدأ يشفي من مرضه ويستعيد كيانه بعد أن وجد القائد الملهم الذي قاد المسيرة نحو تحقيق النصر ومن هنا عنصر القيادة التي توحد وتحرص على المصالحة بين الأطراف

وليس التصاده كعامل هام جدا في هذا الجزء من العالم .

أبرزت هذه المعركة أيضا أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للوطن العربي واستثمار ميزاته بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية وليس مغنا سهلاً للطامعين، واليقين بأهمية عناصر المخطط «الجيوپولتيكى» العام الذى يحقق أمثل تعظيم لمعطيات المكان فى منطقتنا .

أيضا ، من دلالات هذه المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية ومادية بالغة الأهمية فى الربط بين أجزاء الوطن العربى . كما أبرزت أهمية أرض فلسطين التى تعد بمثابة الجسر أو المعبر العربى الذى يوصل بين جناحى العالم العربى ، ويؤدى إلى التواصل مع المنطقة الحضارية فى المحيط الهندى وفى الشرق الأقصى .

الاستعمار الاستيطانى الغربى إبان الحملات الصليبية كان استعماراً بحرياً كما بينا انحصر فى السيطرة على أرض فلسطين دون غيرها . تاركا الظهير الداخلى بكل إمكانياته متربصاً لحصاره وتصفيته . وقد أدرك صلاح الدين هذه الحقيقة إدراكاً واعياً . وحرص على أن يحرم الغزاة من موانئ الساحل ابتداء من غزة حتى الاسكندرونة . حتى يقطعهم عن الاتصال بقواعدهم فى بلادهم الأصلية .

كم كان بودى كما تصورت فى البداية ، أن تكون فسحة الوقت المتاحة أطول . ولكنى حرصاً منى على الوقت بعد أن وصلت إلى هذا التحليل فى النهاية أشكركم على حسن الاستماع . وشكراً لكم .

التجربة الصليبية في المنظور المعاصر للصراع العربي الإسرائيلي

بحث بquam : الدكتور قاسم عبده قاسم

مدخل :

« الحروب الصليبية » عبارة ذات مدلول غامض بالنسبة للكثيرين . فالصورة التى تمثلها عامة المثقفين فى الغرب الأوروبى والأمريكى ، ترسم مشهد فرسان بواسل أهتمامهم الحماسة الدينية ، يتحرقون شوقا لتحرير قبر المسيح ، والأرض التى خطأ فوقها ، من أيدى العرب المسلمين ، ويتخيل كثيرون أن أولئك الفرسان قد فارقوا الأهل والوطن ، وانطلقوا يمتطون جيادهم الفارحة ، يشنون حربا مقدسة ضد العرب ذوى البشرة الداكنة والعزائم الخائفة ، الذين يفرون أمام الفرسان الصليبيين فى جبن وتخاذل .

هذه الصورة ليست صحيحة جملة وتفصيلا . فقد جاءت نتيجة للخيال الذى كان نصيب الحروب الصليبية منه أكبر من نصيب أية ظاهرة تاريخية أخرى . وعلى الرغم من أن هذه الصورة توافق المفاهيم الشعبية عن الحركة الصليبية فى الغرب ، فإنها تحمل من الخيال أكثر مما تحمل من التاريخ . فلم يكن الصليبيون عمالقة ، كما أن جيادهم لم تكن فارحة . إذ أنهم كانوا أبناء مجتمع يعانى من سوء التغذية بشكل عام ، وكانت خيولهم هزيلة لم تتحسن سلالاتها إلا فى وقت لاحق ، بفضل تهجينها بسلالات الخيول العربية . كذلك فإن العرب لم يكونوا جبناء أو متخاذلين . ولكن التشرذم السياسى والتزاع والتخاصم بين حكام المنطقة العربية هو العامل الحاسم فى انتصار الصليبيين . ومن ناحية أخرى ، كان الصليبيون

من أبناء الغرب الكاثوليكي قد جاءوا إلى المنطقة تحت راية الصليب حقا ، بيد أن أهدافهم لم تكن أهدافا دينية .

والمفهوم الغربى عن « الحروب الصليبية » لم ينشأ فى فراغ ، وإنما تكون عبر سنوات طوال ، بدأت قبل دوران عجلة « الحروب الصليبية » نفسها ومازالت حتى الآن ، وخلال عشرات السنين التى قاربت تسعة قرون من الزمان ، تراكم تراث هائل بفعل الدعاية التزقة التى روجتها البابوية ورجال الكنيسة الكاثوليكية ضد العرب المسلمين من ناحية ، والأشعار والملاحم الشعبية الغربية التى تناولت « الحروب الصليبية » من ناحية ثانية ، ثم كتابات مؤرخى الحروب الصليبية من ناحية ثالثة .

وعلى الرغم من أن المنطقة العربية ، كانت هى المسرح الأساسى الذى جرت عليه أحداث هذه المواجهة الطويلة ، فإن الكثيرين من عامة المثقفين اليوم ، فى عالمنا العربى لا يكادون يعرفون شيئا عن هذا الحدث التاريخى الهام ، اللهم إلا بعض أسماء قليلة من قادة حركة الجهاد ضد الصليبيين . والفكرة العامة عن الحروب الصليبية فى العالم العربى فكرة عاطفية غامضة ، تدغدغ الحواس القوية ، وتداعب مشاعر الزهو الكاذبة عن الانتصار العربى على الصليبيين وطردهم من المنطقة . بل إن كثيرا من الكتابات تحتزل هذه المواجهة التى استمرت على مدى أكثر من قرنين من الزمان فى معركة حطين . ولا تشير إلى الجهد العربى المشترك والذى تخللته هزائم وانتصارات ، وهدن ومعاهدات ، وحشود ومناورات ، حتى اكتملت أسباب النصر ، فقد استمر الصراع بعد حطين أكثر من مائة سنة أخرى .

وربما يكون من أسباب هذه الصورة الضبابية للحروب الصليبية فى الوطن العربى أن البحث التاريخى ظل قاصرا ، حتى الآن ، عن تكوين صورة صحيحة بشكل عام للحركة الصليبية والنضال العربى الإسلامى ضدها . فقد كان الهدف

الأساسى للحركة الصليبية القضاء على العروبة والإسلام فى المنطقة العربية .
وتحويلها إلى منطقة تابعة ومجال حيوى للتوسع والاستيطان الأوروبى . وربما يكون
من أسباب هذا الغموض أيضا ، عدم محاولة معظم مؤرخى الحروب الصليبية فى
العالم العربى حتى اليوم ، لدراستها من منظور معاصر ، يحاول الربط بين الحركة
الصليبية والحركة الصهيونية ، وهى على أية حال ، محاولة غير تعسفية وتقوم على
أسس علمية وطيدة .

لقد كانت الحركة الصليبية واحدة من القوى الكبرى المحركة فى تاريخنا وتاريخ
الغرب الأوروبى على السواء ، فقد دارت معارك الحروب الصليبية على نطاق
واسع ، سواء من حيث النطاق الجغرافى أو المدى الزمنى ، أو من حيث أعداد
الناس التى شاركت فى هذه المعارك . كذلك فإن أخبار الحروب الصليبية وأحداثها
سيطرت على مشاعر الناس وأفكارهم فى العالم العربى وفى أوروبا الغربية فيما بين سنة
١٠٩٥ م وسنة ١٢٩١ م على أقل تقدير . بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن
الأفكار والقيم والمثل التى تبلورت فى أتون الحروب الصليبية ظلت ماثلة فى أذهان
الناس ووجدانهم فترة طويلة من الزمان ، سواء فى الوطن العربى أو فى الغرب
الأوروبى . ومع تراجع الوعى العربى من الفترة العثمانية ثم تحت الاحتلال
الأوروبى . ظل الغرب الأوروبى واعيا بالتجربة الصليبية ، بحيث أن كل من كتب
فى الشؤون الأوروبية منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن الثامن عشر ، كان يشير
بشكل أو بآخر ، إلى التجربة الصليبية على نحو ما يذكر المؤرخ الشهير جوناфан رايبلى
سميث .

ومن ناحية أخرى كان التصدى للصليبيين ، والقضاء على الكيان الصليبي ،
هو الشغل الشاغل للأمة العربية الإسلامية طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ،
بل إن بقايا الصليبيين فى قبرص ورودس ، والمشروعات الصليبية المتأخرة ظلت

تستحوذ على اهتمام الوطن العربي ، وتستنفد جهوده طوال القرنين التاليين .

فرنسا ما وراء البحار

وحتى اليوم لا يستطيع أحد في المنطقة العربية : أو في الغرب الأوروبي والأمريكي أن يقف موقف اللامبالاة من تاريخ الحركة الصليبية سوى عن جهل أو جهالة . فعلى مر القرون كانوا ينظرون في تاريخ الحركة الصليبية لكي يستلهموا الأفكار والأحداث ، ذلك أن الفرنسيين في العصر الحالي يرون في الحملات الصليبية وفي مملكة بيت المقدس اللاتينية أول مشروعاتهم الاستعمارية . إذ كانت غالبية جيوش الحملة الأولى والحملات التالية من الفرنج أجداد الفرنسيين ، بحيث أصبح هذا الاسم مصطلحا يدل على كل الصليبيين أيا كانت جنسيتهم . كما أن الصليبيين أطلقوا على الكيان الصليبي في فلسطين «فرنسا ما وراء البحار» باعتباره امتدادا للوطن الفرنسي الأم ، وهي نغمة استعمارية ردها الفرنسيون بالنسبة للجزائر ولكل مستعمراتهم . كما أن الإنجليز اعتبروا أنفسهم ورثة الصليبيين حين احتلوا فلسطين سنة ١٩١٧ م ، بل إن الصهاينة عندما نهبوا الأرض العربية وأقاموا دولتهم الاستيطانية العسكرية سنة ١٩٤٨ م كانوا ينفذون مشروعا شبيها بالمشروع الصليبي ولكن في مصطلحات صهيونية .

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية كانت في أساسها مواجهة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية الكاثوليكية . وعلى الرغم من أن الصراع الدامي على أرض المعركة قد دار بين أبناء المنطقة العربية وأبناء الغرب الأوروبي ، فإن عددا غير قليل من المؤرخين اليهود دخلوا في مجال بحث تاريخ الحروب الصليبية ، من منظور الصراع العربي الإسرائيلي ، ومن منطلق يختلف عن منطلق كل الباحثين العرب والمسلمين أو الباحثين الغربيين في أوروبا وأمريكا .

فمنذ بدأ أحداث الحروب الصليبية – وحتى قبل أن تبدأ – بدأ المؤرخون في

الكتابة عن تلك الظاهرة التاريخية الفذة ، ولم يتوقفوا حتى الآن . فقد انكب مئات المؤرخين والباحثين يفتشون بين غبار المعارك وأشلاء الضحايا ورماد الحرائق ، بين أنات الجرحى وزفرات المهزومين ، وصليل السيوف وصيحات المنتصرين ، عن أجزاء الصورة التي يريدون استردادها من ذمة التاريخ لهذه المواجهة الطويلة المضنية بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي الكاثوليكي ، وخرج سيل من المؤلفات والدراسات تدور جميعها حول موضوع واحد هو « الحروب الصليبية » .

ولسنا بصدد دراسة بيبلوجرافية لهذه المؤلفات ، ولكن ما يهمنا أن نشير إلى أن الصراع العربي الإسرائيلي ، الذي اشتعل منذ النصف الأول من القرن العشرين ، وماتزال نيرانه تحرق المنطقة العربية بلظاها الحارق حتى الآن ، قد فرض منظورا جديدا لدراسة الحركة الصليبية . ويقوم هذا المنظور المعاصر على أساس من أوجه الشبه القائمة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، ومع تسليمنا بوجود الكثير من الاختلافات الناجمة عن تغير الظروف التاريخية الموضوعية ، وحركة العلاقات الدولية ، ومفاهيم علاقات القوى والتقدم العلمي والتكنولوجي المذهل ، فضلا عن الوعي بالتجربة الصليبية - نقول إنه مع تسليمنا بهذه الفروق والاختلافات بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، ومع إيماننا المطلق بأن التاريخ لا يعيد نفسه ولا يمكن أن يعيد نفسه ، فإننا نرى أن التاريخ لا تحكمه مجموعة من الصدف العشوائية ، وإنما تحكمه قوانين واتجاهات عامة ، تجعل من المشابهة بين الحركة الصليبية في العصور الوسطى والحركة الصهيونية في عصرنا الحالي مسألة تستحق الدراسة والتأمل .

الخلاص والأرض الموعودة

وفي تصوري أن المكونات الأساسية لكل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية متشابهة ومماثلة في بعض الأحيان . فقد ارتبطت كل من الحركتين بفكرة الخلاص والأرض الموعودة على نحو ما ، كما أن مفهوم شعب الله المختار يمثل ركنا هاما من أركان الفكرة الصهيونية مثلما كان يشكل محور الفكرة الصليبية في العصور الوسطى . فضلا عن أن كلا من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية كانت إفرازا لحقائق السياسة الاجتماعية/ السياسية والاقتصادية في مجتمعات بعيدة عن المنطقة العربية . كذلك فإن القوة المسلحة كانت هي الوسيلة الفاعلة في كلتا التجربتين ، فقد تم زرع الكيان الصليبي والكيان الصهيوني بالقوة المسلحة وعلى حساب المهاجرين العرب الذين حل محلهم مهاجرين من خارج المنطقة . وكانت حال الضعف والتفكك في العالم العربي أكبر عوامل النجاح لكل من الصليبيين في العصور الوسطى والصهاينة في العصر الحديث . كما ظل الكيان الصليبي يستمد العون من الظهير الأوروبي ، وهاهو الكيان الصهيوني يعيش بفضل مساندة الظهير الأوروبي/ الأمريكي .

وإذا كان التضامن العربي ، والعمل العربي المشترك ، وتوجيه موارد الأمة العربية في الصراع ضد الصليبيين ، هو الذي كفل نجاح الأمة العربية في هذه المواجهة الممتدة المرهقة ، فإن شرط العمل العربي المشترك يظل مفتاح النجاح في النضال ضد الصهيونية على الرغم من كل المتغيرات ، التي حملتها القرون التي مرت على التجربة الصليبية .

ومن ناحية أخرى ، فإن مشكلات الكيان الاستيطاني المزروع في محيط بشري معاد ، تظل متشابهة على الرغم من اختلاف الظروف التاريخي : فالغربة الضاربة ونقص الموارد البشرية ، والخوف الدائم من العرب الموجودين في الداخل وعلى

الحدود - كلها مشكلات عانى منها الصليبيون ويعانى منها الإسرائيليون .

هذه النقاط التى تجعل للدراسة المقارنة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية مشروعية علمية وسياسية ، لاتغنى أو تلغى ، وجود نقاط أخرى للاختلاف والتباين ، بحكم مرور الزمن وتراكم الخبرة التاريخية لدى الجانبين . كذلك فإن هذه المشابهة لا يجب أن تشكل بالنسبة لنا من « التاريخ العبد » الذى يقعد بنا عن الحركة والعمل اتكالا على أن ما حدث فى الصراع العربى / الصليبي لا بد وأن يتكرر فى الصراع العربى الإسرائيلى ، ولكن الواجب أن تكون التجربة الصليبية نوعا من « التاريخ الحافز » بمعنى أن نعى أن تجربة المواجهة ضد الصليبيين لم تكن مجرد معركة واحدة ، كما أنها لم تكن خطأ يائيا صاعدا على الدوام . لقد كانت التجربة مريرة وطويلة تخللتها المعارك والهدن والحشد والتعبئة والدبلوماسية والهزيمة والنصر ، ولكن العالم العربى خرج منها بدرس الوحدة والعمل المشترك . فحين اتحدت الأمة العربية تحت قيادة صلاح الدين نجحت فى إحراز النصر فى حطين وتقليص المساحة الصليبية على خريطة المنطقة ، وتم استرداد القدس ، وعندما انغمس خلفاؤه من منازعاتهم وخلافاتهم فقدوا المبرر التاريخى لوجودهم ، وطال عمر الصليبيين مائة سنة أخرى ، وعندما توحدت المنطقة مرة أخرى تحت زعامة الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل ، تم القضاء نهائيا على الوجود الصليبي .

وإذ وصلنا إلى هذه النقطة نجد أنفسنا أمام سؤال يطرح نفسه حول مدى وعينا حاليا بالتجربة الصليبية فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى . والإجابة على هذا السؤال تستوجب منا دراسة المنظور المعاصر الذى يرى منه الصهاينة والعرب تجربة الحروب الصليبية ، وإدراك كل من الجانبين للخبرة التاريخية التى تحملها هذه التجربة .

لقد احتلت « قصة الحروب الصليبية » حيزا كبيرا من اهتمام المؤرخين والباحثين وعامة المثقفين منذ بداية الحركة الصليبية وحتى الآن . وبينما يبدو اهتمام كل العرب والأوروبيين والأمريكين بهذه التجربة أمرا منطقيا وطبيعيا ، يشير موقف المؤرخين والباحثين الإسرائيليين عديدا من علامات التعجب والاستفهام .

الصهيونية واستخدام التاريخ

إذ أن اليهود لم يكونوا طرفا أساسيا في تلك المواجهة العسكرية/ الحضارية الطويلة المضنية بين العرب والمسلمين من ناحية والأوروبيين الكاثوليك من ناحية أخرى . ومن ثم فلا يمكن القول بأن الباحثين الإسرائيليين ينحازون إلى أحد الطرفين . بيد أن الموقف الإسرائيلي من تجربة الحروب الصليبية نموذج دال على مدى الوعي الصهيوني بأهمية استخدام التاريخ ضمن أسلحة الصراع ضد العرب . وهذا الموقف يخدم الأهداف الصهيونية من عدة جوانب . فهو تعبير عن الاتجاه العام للإعلام الصهيوني الذي يهدف إلى خلق مجموعة من الأكاذيب التاريخية لتحسين صورة اليهودى في الوجدان الإنسانى العام من ناحية ، ويصور العربى في صورة العالة الحضارية التى تعيش على منجزات اليهود من ناحية أخرى . والموقف الإسرائيلى من الحروب الصليبية لا ينفصل عن الموقف الصهيونى العام من تاريخ العرب وحضارتهم ، وفيما يتعلق بتجربة الحروب الصليبية فى المنظور الإسرائيلى المعاصر ، فإننا نلاحظ عدة مسارات أساسية لهذا المنظور :

أولا : محاولة اختلاق استمرارية ما يطلق عليه الإسرائيليون « تاريخ اليهود » ليس بالمعنى الدينى ، وإنما بالمعنى الحضارى الشامل ، وهو زعم تحاول النظرية الصهيونية أن تخلقه من غيابات الوهم وضباب الأساطير والتحيز . ولا يقوم على أى أساس علمى . ذلك أن أية جماعة دينية تعيش بين جماعة اجتماعية أكبر تعتق دينا آخر ، لا يمكن أن تشكل تاريخا مستقلا أو حضارة قائمة بذاتها . ولا يمكن لقوم

مثل اليهود ، يعتقدون دينا واحدا ، ولكنهم يتشرون بين أمم الأرض ، يتحدثون لغاتهم المختلفة . ويأكلون طعامهم ، ويمارسون عاداتهم وتقاليدهم ، ويشاطرونهم التطور الاجتماعى العام - لا يمكن لقوم هذا شأنهم أن يكونوا شعبا واحدا ، أو أن يكون لهم تاريخهم الوطنى .

ولكن الدعاية الصهيونية تحاول من خلال التجربة الصليبية تأكيد استمرارية هذا « التاريخ اليهودى » المزعوم . فالمؤرخون الإسرائيليون يحاولون تصوير المتاعب وأعمال العنف التى ارتكبتها الصليبيون ضد يهود أوروبا فى أواخر القرن الحادى عشر وخلال القرنين التاليين على أنها حلقة ضمن سلسلة الظاهرة التى أطلقوا عليها « معاداة السامية » وهى الظاهرة التى نفخوا فيها كثيرا لكى يبتزوا بها ضمير العالم ويبرروا بها اغتصابهم للوطن العربى فى فلسطين .

ثانيا : محاولة سرق التاريخ العربى فى فلسطين والمنطقة العربية من خلال اختلاق دور تاريخى لليهود فى التصدى للعدوان الصليبي بشكل يوحى أن اليهود أصحاب الأرض التى اغتصبها الصليبيون ، وأنهم تعرضوا للعدوان ودافعوا عن البلاد مثلما فعل العرب المسلمون . وهو أمر يحاولون به تأكيد حق اليهود التاريخى المزعوم فى الأرض العربية ، فضلا عن تلفيق استمرارية « التاريخ اليهودى » فى هذه المنطقة .

ثالثا : دراسة الكيان الصليبي من منظور معاصر يركز على دراسة المستوطنات الصليبية ، ومحاولة فهم المشكلات التى أدت إلى فشل الكيان الصليبي بآثاره كيانا دخيلا ، ودراسة إمكانيات النجاح للكيان الصليبي المشابه مع مراعاة الثوابت والمتغيرات فى الحركة التاريخية من ناحية ، وعلاقات القوى الداخلية من ناحية أخرى .

وبطبيعة الحال ، فإن المنظور الإسرائيلى للتجربة الصليبية ، لا يستمد قراره من

هذه المسارات الأساسية الثلاثة فقط . وإنما هناك رواقد أخرى أقل أهمية تصب في التيار العام لهذا الموقف . وهذه الرواقد تختلف أيضا ، بدرجة أو بأخرى حسب الرؤية الشخصية والخلفية الثقافية الذاتية لكل من الذين تصدوا بالدراسة والبحث في هذا الموضوع ، فهناك من يهتم ببعض الإسقاطات المعاصرة على الكيان الإسرائيلي في مسائل الأمن والعلاقة بالمحيط العربي المعادي والرافض للوجود الإسرائيلي ، وهناك من يحاول الترويج لبعض الأكاذيب التاريخية ، مثل الدور اليهودي في الحروب الصليبية مثل « يوشع براور » و « جويتين » كما أن هناك من يحاول التقليل من شأن الرموز القومية في التاريخ العربي عامة . وفي المواجهة ضد الصليبيين مثلا تحدث بعض الباحثين الإسرائيليين عن « صلاح الدين الأيوبي » أو « السلطان الظاهر بيبرس » أو « قلاوون » أو غيرهم . هذه كلها وأمر أخرى فرعية قد تميز باحثا صهيونيا عن غيره . ولكنهم جميعا يصبون في الرواقد الثلاثة التي تصنع المنظور الإسرائيلي للحروب الصليبية .

وفيما يتعلق بالموضوع الأول . أي محاولة خلق استمرارية مزعومة للتاريخ اليهودي المزعوم . فإن أهم ما يلفت النظر . هو أن المؤرخين الإسرائيليين يفضلون عادة أن يناقشوا موقف الصليبيين من يهود أوروبا في إطار الموضوعات المتعلقة بتاريخ معاداة السامية وهنا ينبغي أن نناقش المسألة لتبين حقيقة الاضطهادات الصليبية ليهود أوروبا آنذاك .

كان اليهود السفارديم الذين نزحوا من عالم البحر المتوسط ، في العصور الوسطى الباكرة (من القرن الثالث حتى العاشر الميلادي) قد سكنوا على طول الطرق التجارية ، وقاموا بدور في تجارة أوروبا ، مع العالم في تلك الأثناء التي شهدت تدهور اقتصاديات الغرب الأوروبي ، بسبب الغزوات الجرمانية . ولم تكن تجارة أوروبا آنذاك سوى بنظام المقايضة . على حين كانت السلع الثمينة التي يجلبها التجار اليهود مرتفعة الثمن . ومع الانتعاش الذي بدأت أوروبا الغربية تستمتع به

منذ القرن الحادى عشر ، تراجع النشاط التجارى لليهود ، وحل محلهم الإيطاليون من أبناء جنوا ويزا والبندقية . ثم تبعهم التجار من إقليم الراين وغيره من مناطق الغرب الأوروبى . وتقوقع اليهود فى النشاط العالمى وإقراض الأموال بأرباح باهظة ، جلبت عليهم نقمة الأوروبيين . وجاءت الحركة الصليبية وما صاحبها من تطرف دينى ، وهوس وتعصب ، لتصب المزيد من وقود السخط على نيران الكراهية ضد اليهود .

ولسنا هنا بصدد التفاصيل التاريخية للاضطهادات الصليبية لليهود أوروبا ولكننا نود أن نشير إلى حقيقة أن هذه الاضطهادات لا يمكن إدراجها فى السياق العام ، لما يسمى « معاداة السامية » لأن تلك الأحداث كانت إفرازا لظروف تاريخية خاصة بالمجتمع والعصر الذى وقعت فيه ، فلا يمكن ربط ماحدث أثناء فترة الحروب الصليبية بما حدث لليهود بعد ذلك فى ألمانيا النازية . لقد كانت الحروب الصليبية نفسها ميراثا تخلف عن القرن الحادى عشر ، قرن النمو الأوروبى الأول ، والمشروعات الاستعمارية الأولى ، فضلا عن التعصب الدينى والعنصرى . ومن ثم كان لابد للحركة الصليبية أن تصب نيرانها على أعداء الكاثوليك فى الداخل والخارج .

ولسنا نقصد الدفاع عن سلوك الصليبيين بطبيعة الحال ، ولكننا لا نستطيع أن نوافق على المحاولة التعسفية من جانب الإسرائيليين لوضع هذه الظاهرة التاريخية ضمن سياق مخلق لاستمرارية « التاريخ اليهودى » بالمفهوم الحضارى .

ومن الأمور المثيرة للانتباه فى هذا الصدد ، أن الحركة الصليبية قد استخدمت فى دعايتها القصص والأكاذيب التى روجتها البابوية والكاثوليك من الاضطهادات التى يلقاها مسيحيو الشرق على أيدي المسلمين . وانطلق الدعاة البابويون يروجون لهذه القصص ، حتى تأججت نفوس أبناء الغرب الأوروبى

بالرغبة في قتل العرب المسلمين ، ثم امتدت هذه التزعة العدوانية لتشمل اليهود باعتبارهم أعداء المسيح والكنيسة . كذلك فإن الحركة الصهيونية ارتبطت منذ بدايتها بالعمل الدعائي والحرب الإعلامية ، إذ قال تيودور هرتزل في واحدة من خطبه الأولى : علينا أن نخلق أكبر قدر من الضوضاء حول المشكلة اليهودية .

وقد لجأت الدعاية السياسية للحركة الصهيونية إلى استخدام التاريخ والفن لتحقيق مادعا إليه هرتزل . فالفن يتسرب إلى الوجدان بحيث يترك تأثيره التراكمي عبر الأعمال الفنية التي تواصل الإلحاح على مفهوم ما أو فكرة بعينها ، كما أن التاريخ يحمل مصداقية ذاتية ، تجعل من إعادة كتابته لتحسين صورة اليهودي وتشويه صورة العربي أمرا غاية في الأهمية بالنسبة للدعاية الصهيونية . وإذا كان الفن والتاريخ من أهم وسائل الدعاية للحركة الصهيونية . فإننا يمكن أن نفهم حقيقة الموقف الإسرائيلي من استغلال العنف الصليبي ضد يهود أوروبا في أثناء فترة الحروب الصليبية .

وسرقة التاريخ العربي

أما الموضوع الثاني ، وهو محاولة سرقة التاريخ العربي من خلال اختلاق دور تاريخي في المنطقة العربية ضد الهجوم الصليبي ، فهو أمر يتصل بالدعاية السياسية للحركة الصهيونية أيضا . فالمؤرخون الإسرائيليون (من أمثال جويتين ويوشع براور ، وميرون بنفستي) يتحدثون عادة عن اليهود الذين قتلهم الفرنج الصليبيون في فلسطين وهم يدافعون عن مدنها وقراها ، ويركزون الحديث على يهود مدينة بيت المقدس ، ولكن هذا القول مردود بعدد من الحقائق التاريخية الواضحة :

١ - أولى هذه الحقائق أن اليهود في فلسطين عند قدوم الحملة الصليبية الأولى ، ومنذ القرن الميلادي الأول ، لم يكونوا يعيشون ضمن كيانات سياسية

مستقلة ، ولكنهم عاشوا في المنطقة العربية كلها باعتبارهم « أهل ذمة » كما أن أعدادهم في فلسطين كانت ضئيلة إلى حد كبير بالمقارنة مع أعدادهم في مصر آنذاك . وبعبارة أخرى فإن هذا الوضع التاريخي لم يكن يسمح لهم بأي دور عسكري .

٢ - كما أن القول بأن اليهود تصدوا لمقاومة العدوان الصليبي مردود ، لأن العمل العسكري آنذاك ، كان وقفا على المسلمين فقط . وإذا كانت المصادر التاريخية قد حدثتنا عن بعض المهارات الفردية من جانب المسيحيين الشرقيين في أعمال المساعدة ضد الصليبيين ، فإن هذه المصادر التاريخية نفسها لم تذكر لنا مثلا واحدا على قيام اليهود بأي عمل عسكري .

٣ - من ناحية أخرى لم يكن يهود ذلك الزمان أهل قتال . وهذه حقيقة على جانب كبير من الأهمية ، لا سيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن الجنود والمقاتلين في تلك العصور كانوا يتفرغون للحياة العسكرية ، بحيث يمضون حياتهم في التدريب على القتال ، أو في ميادين القتال الفعلي ، نظرا لما كان يتطلبه القتال من لياقة جسمانية عالية ومهارات حربية . ولم يكن اليهود آنذاك من ضمن مصادر التجنيد التي كانت الجيوش تستمد جنودها منها .

٤ - وقد أورد لنا الرحالة اليهودي الأسباني « بنيامين التيطلي » الذي زار المنطقة في زمن (نور الدين محمود) - منتصف القرن الثاني عشر الميلادي - معلومات طيبة عن أعداد اليهود والحرف التي احترفوها في فلسطين . وتكشف أعدادهم الضئيلة والمهن التي عملوا بها عن أن ظروفهم كانت متدنية بالقدر الذي يجعلنا نرفض قبول مثل هذا التبريف للواقع التاريخي .

٥ - ومن اللافت للنظر أيضا أن حركة المقاومة التي بدأها العرب المسلمون ضد الفرنج الصليبيين ، لم تجتذب انتباه اليهود في المنطقة العربية ، ولم يقوموا بأي دور ملحوظ في الصراع السياسي العسكري طوال مائتي سنة تقريبا . وهو أمر يتمشى مع

حقيقة حجمهم العددي ، ووضعيتهم الاجتماعية في الوطن العربي آنذاك . حقا لم تفرق سيوف الصليبيين بين اليهود والمسلمين في مجزرة بيت المقدس ، ولكن بينما تصدى العرب المسلمون لمقاومة الوجود الصليبي بشكل إيجابي ، كان الموقف اليهودي سلبيا تماما . وهذا الدور السلبي لليهود لا يعطى للمؤرخين الإسرائيليين الحق في المساواة بين دور العرب المسلمين (والمسيحيين أيضا) ودور اليهود في النضال ضد الصليبيين .

٦ - وقد ظل العرب على مقاومتهم العنيدة قرابة قرنين من الزمان حتى تم لهم طرد الصليبيين واسترداد فلسطين . وهو أمر يختلف عن موقف الأقلية اليهودية ضئيلة العدد ، التي لم يكن يزعمها في استبدال حاكم بآخر ، سوى احتمال أن يكون الحاكم الجديد أقل تساميا .

وعلى أية حال ، فإن محاولة سرقة التاريخ العربي - بعد اغتصاب الأراضي العربية - من خلال الحروب الصليبية ، ليس أمرا جديدا أو غريبا على الاتجاه الفكري للحركة الدعائية الصهيونية ، ذلك أن كتاب الأدب والتاريخ اليهود منذ القرن التاسع عشر راحوا يعيدون كتابة التاريخ . ولم يقف بهم الأمر عند مجرد تسجيل الوقائع من وجهة نظرهم ، بل بدأوا في عملية تشويه منظمة للتاريخ العربي . ولم تقتصر حركة التأليف التاريخي لديهم ، على الدفاع عن صورتهم من جانب وتشويه صورة العرب من جانب آخر ، وإنما اتخذت لنفسها بعدا ثالثا ، يحاول إيجاد استمرارية تتمثل في الربط واختلاق التابع بين الأحداث المتفرقة والشذرات المتباعدة في التاريخ . هذه الحركة تهدف إلى إحياء ما يسمى (الوعي القومي اليهودي) والدفاع عن الطابع القومي اليهودي على الرغم مما هو معلوم بشأن الاقليات اليهودية ، في شتى أنحاء العالم ، لم تكن تملك لغة خاصة ، أو طابعا قوميا خاصا ، وإنما كانت لغاتها هي لغات المجتمعات التي عاشت في رحابها ، أو خليطا من لغة المجتمع وبعض الكلمات والمصطلحات العبرية .

وبعد نجاح الحركة الصهيونية في سرقة الوطن العربي في فلسطين ، وزرع الكيان الإسرائيلي ، بدأ الإسرائيليون محاولة سرقة التاريخ والتراث العربي . بل إن المشكلة

تعدت حدود البحوث والدراسات التي يمكن الرد عليها وتفنيدها . لقد سرق اليهود الصهاينة الوطن الفلسطيني وراحوا يخبثون لأنفسهم وجودا تاريخيا على الأرض ذاتها وامتدت أيادهم تسرق التراث والفن والتاريخ والتقاليد العربية ثم تنسبها إلى الإسرائيليين . فهناك على سبيل المثال مركز إسرائيلي للدراسات والبحوث الفولكلورية تابع للجامعة العبرية في القدس . وهو يهتم بجمع وتسجيل ما يسمى (التراث الفولكلوري الإسرائيلي) ولهذا المركز أرشيف يضم آلاف النصوص الشعبية . وهو أمر يثير الدهشة والتساؤل ، فكيف يمكن أن يوجد ما يسمى بالفولكلور الإسرائيلي ، ولم يكن هناك قبل سنة ١٩٤٨ شعب اسم الشعب الإسرائيلي ، ذلك أن الحقيقة العلمية تفترض أنه لكي يكون لشعب من الشعوب تراث من أي نوع : لابد أولا من وجود هذا الشعب على أرض يعيش عليها ويتفاعل مع معطياتها وتحدياتها ، ولغة واحدة يستطيع أن يبدع فيها ، وأن يعبر بها عن نفسه . ومن الثابت تاريخيا أن ذلك لم يحدث بالنسبة لليهود . فعلى سبيل المثال . يطلق مصطلح « الأدب العبري » على أدب لم يدون في وطن بعينه أو لغة بعينه ، بل دون في مختلف بلدان الشرق والغرب قديما وحديثا ، وبلغات مختلفة ، والقليل منه هو الذي وصلنا في اللغة العبرية سواء قبل الميلاد أو بعده .

وما يقال عن اللغة العبرية يقال أيضا عن « الشعب اليهودي » الذي يتكون من جماعات تنسب إلى قوميات مختلفة وثقافات متعددة ، ومراحل حضارية متفاوتة لا يجمع بينها سوى الدين اليهودي الذي لا يمكن أن يكون أساسا ، وحده ، لقيام الأمة ووجود الشعب لاسيما إذا وضعنا في اعتبارنا الخلافات والفروق القائمة بين المذاهب الدينية اليهودية وإذا سلمنا بوجود تراث ديني مشترك لليهود . فإننا لا يمكن أن نوافق على أنه كان لليهود العالم تراث شعبي دنيوي واحد منفصل عن تراث الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها .

وعلى أية حال ، فإن الإسرائيليين ، يبذلون جهدا كبيرا من أجل إيجاد ذاتية لهم وتراث أو ثقافة ذاتية تجمعهم . وهم في هذا السبيل يسرقون التراث العربي وينسبونه لأنفسهم ، وبين يدي العالم الآن آلاف الدراسات عما يسمونه

« الفولكلور اليهودى » و « الميثولوجيا اليهودية » و « الفن اليهودى » و « العادات والتقاليد والاحتفالات اليهودية » وغيرها مما ينسبونه إلى إسرائيل والشعب الإسرائيلى .

بل إن الإسرائيليين يطرحون فى أسواق العالم الملابس العربية المطرزة والخلى والجواهر ، والمشغولات المعدنية والخشبية الدقيقة التى اشتهرت بطرازها العربى . فضلا عن أصناف الحلوى والمأكولات العربية ، ويدعون أنها جميعا من نتائج التراث الشعبى الإسرائيلى .

وتأتى سرقة الآثار العربية من المناطق التى يحتلها الإسرائيليون . لتكون برهانا ماديا على جريمة سرقة التاريخ العربى التى يريدون بها تدعيم سرقتهم للوطن الفلسطينى . فقد نشطت سرقات الآثار نشاطا كبيرا مع دخول الجيوش الصهيونية إلى المناطق التى احتلوها فى فلسطين وسيناء وسوريا ولبنان بشكل يهدد السمعة التى تتمتع بها المنطقة العربية فى هذا المجال .

بل إن المشكلة أقدح وأخطر من أن نغض الطرف عنها . فقد بات يوم ينظر فيه العالم إلى الوطن العربى . على أنه يعيش حالة حضارية على تراث إسرائيل وإبداع الشعب الإسرائيلى المستمر المتواصل عبر الزمان والمكان كما يزعمون . والإسرائيليون لا يدخرون وسعا فى هذا . وموقفهم من الحروب الصليبية ومحاولة اختلاق دور إيجابى ليهود العالم العربى فى مواجهتها ، جانب واحد من جوانب متعددة فى هذه المحاولة التى ينبغى التصدى لها بالعقل والعلم والصبر .

ومن المثير حقا أن الإسرائيليين يقومون بالإعداد للذكرى الثمانمائة لمعركة حطين ، وقد أعدوا لهذا الاحتفال الذى تقيمه أكاديمية العلوم التاريخية فى تل أبيب ، بدعوة عدد كبير من المؤرخين والأساتذة والباحثين من شتى أنحاء العالم . وقد وجهت الدعوة إلى عدد من الأساتذة والمؤرخين المصريين كنت واحدا منهم . ولكن أحدا لم يرد على هذه الدعوة بطبيعة الحال .

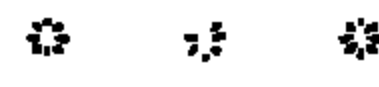
والاستفادة من التجربة الصليبية

أما الموضوع الثالث في الموقف الإسرائيلي من « التجربة الصليبية » فهو تابع من إدراكهم لحقيقة الوظيفة الحضارية للتاريخ ، باعتباره علما في خدمة الجماعة الإنسانية . فهم يدرسون الحركة الصليبية مع التركيز على تجربة الاستيطان الصليبي فوق أرض فلسطين العربية ، وطبيعة علاقات الصليبيين بالمحيط البشرى العربى ، وعوامل النجاح التى حققت لهم الانتصارات الأولية ، ثم عوامل الانخفاق والفشل التى أدت إلى رحيل الصليبيين من المنطقة العربية . وإذا كنا نؤمن إيمانا قاطعا بأن التاريخ لا يعيد نفسه ، فإننا ندرك أيضا أن الظروف التاريخية المتشابهة يمكن أن تؤدي أيضا إلى نتائج متشابهة .

هذه بشكل عام ، هى المسارات الأساسية الثلاثة للمنظور الإسرائيلى المعاصر لتجربة الحروب الصليبية . ويتجسد هذا المنظور الإسرائيلى بشكل واضح فى كتابات الأستاذ « يوشع براور » أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى الجامعة العبرية بالقدس ، وهو صاحب اسم مشهور لامع بين المتخصصين فى دراسة تاريخ الحركة الصليبية . وهو باحث ممتاز متمكن من أدوات البحث ، وعلى دراية واسعة بمصادر تاريخ الحروب الصليبية والدراسات الحديثة التى تناولتها . وهو يهتم فى دراساته عموما بمشاكل الاستيطان الصليبي والموارد البشرية ، والمقومات الاقتصادية والاجتماعية للوجود الصليبي فى المنطقة ، فضلا عن مشاكل الغربة الحضارية والتباين الثقافى بين الكيان الاستيطانى والمحيط البشرى العربى . ويؤكد يوشع براور ماسبق أن قلناه عن المنظور الإسرائيلى للتجربة الصليبية . فهو يقول فى معرض الحديث عن فلسطين والأماكن المقدسة : إن القوة المسلحة هى التى فرضت حكم الأمر الواقع بالنسبة للرومان قبل الميلاد ، ثم البيزنطيين بعد المسيحية ، وبعدهم المسلمون فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) . ثم يقول « ... ولم يزل هناك مطالب آخر بالأرض المقدسة لا يملك قوات عسكرية أو موارد امبراطورية ، ومع ذلك فهو أشد إصرارا وثباتا فى دعواه ، ألا وهو اليهودى الذى يعبر ثلاث مرات يوميا عن حنيه إلى الأرض المقدسة وعاصمتها ، وعن أملة

في الخلاص والعودة . ولم تكن دعواه حقا مكتسبا بالتقادم . كما أنها لم تكن دعوى قابلة للتحويل أو النقل ، فقد ربط الدين الأمة المشتة على مدى أكثر من ألف سنة بتحقيق نبوءة نهاية العالم بالنبوءة القائلة بجمع الشتات والعودة إلى الوطن

أليست هذه دعاية صهيونية صريحة ؟ فالذين يبحثون عن صلة ترابط الحركة الصهيونية بجذور التاريخ وأعماق الماضي يرون في الحركة الصهيونية رمزا لنهاية الآلام ، ويرون فيها أيضا تحقيقا لتحرير اليهودي من حياة الشتات . ونهاية حياة النفي ، وبداية للاستقرار . وهذا كله يعني أن فكرة الصهيونية في تصورهم امتداد لفكرة الخلاص اليهودية . وقد وصفها البعض بأنها حركة خلاص علمانية في الأيديولوجية وفي وسائل التنفيذ . وهو ما يعني أن زعماء الصهيونية قد عمدوا إلى استغلال فكرة الخلاص الدينية اليهودية وحاولوا تنفيذها بوسائل علمانية عن طريق استغلال الظروف السياسية ، وتطبيق سياسة الاستيطان العسكري . ولم يكن يوشع براور في كلماته التي أوردناها سوى أحد الذين يعزفون هذه النغمة المتكررة عن حنين اليهود إلى العودة إلى فلسطين .



هذه هي الخطوط العامة للمنظور الإسرائيلي لتجربة « الحروب الصليبية » .
فماذا عن المنظور العربي للتجربة ذاتها ؟ !!

بداية يجب أن نقرر بأسف ومرارة ، أن موقف العقل العربي المعاصر من التجارب التاريخية التي يحفل بها تراث أمتنا موقف يفتقر كثيرا إلى مقومات الوعي بالوظيفة الاجتماعية/ السياسية لعلم التاريخ . وعلى الرغم من بعض الكتابات الهامة لمفكرين عرب في المشرق والمغرب تكشف عن درجة عالية من الوعي والقدرة على استخدام الرصيد التاريخي لحساب الحاضر والمستقبل . فإن هذه الكتابات تظل جهودا فردية متناثرة هنا وهناك أشبه ماتكون بالزهور البرية . جميلة وأخاذة حقا . لكنها لم تحظ بالرعاية الواجبة من المؤسسات المسؤولة عن إعادة قراءة التاريخ العربي ، بشكل يخرج به من نطاق « الارث » إلى مجال التراث ونحوه من نمط

« التاريخ العباء » إلى نوع من « التاريخ الحافر » .

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزته الدراسات التاريخية فى الوطن العربى بشكل عام ، فإن المؤرخين المحترفين من أساتذة الجامعات والباحثين مايزالون يرون فى التاريخ علما يتصل بالماضى وعلاقته بالحاضر والمستقبل محدودة وضيقة على أحسن الفروض . ومن المثير حقا أن عددا من أهم الكتابات التى رأت فى التاريخ علما يتصل بالحاضر والمستقبل كانت من نتاج نفر من الناس يمكن إدراجهم فى نطاق المؤرخين الهواة ممن لم يتخذوا من البحث التاريخى حرفة ومهنة ومعاشا . ومن ناحية أخرى ، فإن الغالبية الكبرى من هذه الكتابات كانت فى مجال التاريخ الحديث والمعاصر . أما التاريخ القديم ، وتاريخ الفترات التالية فى ظل الحضارة العربية الإسلامية ، فقد ظل البحث والكتابة فيها بهلف التفسير والفهم ، وأحيانا اتخذت هذه الكتابات صفة قصصية سردية ، كما اتخذت فى أحيانا أخرى شكلا أقرب ما يكون إلى قصائد الفخر العربية الشهيرة .

كذلك فإن بعض الذين أدركوا أن التاريخ علم يتصل بالماضى فى موضوعاته ولكنه يتصل بالحاضر والمستقبل من حيث هدفه ، استخدموا مواهبهم فى محاولة إعادة بناء تاريخ أمتنا العربية على أسس جديدة من التفسير التاريخى ، ووفقا لمنهج أو آخر من مناهج التفسير التاريخى التى أفرزها تقدم الدراسات التاريخية فى العصر الحالى . وظلت كتاباتهم أشبه بجزر صغيرة عامرة فى بحر الظلمات . ولم تقم حتى الآن محاولة جامعية لإعادة فهم التاريخ العربى .

واللافت للنظر حقا أننا نكتب تاريخنا بشكل فردى يبعثر الجهود ويبعدها عن مسارها الذى يجب أن يجعل من التاريخ سلاحا من أسلحة النضال العربى صوب التقدم والحرية ويخرج بنا من إطار التبعية الفكرية إلى نطاق الإبداع الفكرى والتطور الثقافى وأزمة الدراسات التاريخية فى عالمنا العربى أزمة واضحة تتمثل فى أننا نتخذ من الثقافة الأوربية ثقافة مرجعية لنا بغض النظر عن صلاحية ، أو عدم صلاحية إفرازاتها فى مجال التاريخ بالنسبة لنا . ومن أهم مظاهر هذه الأزمة

مشكلة تقسيم العصور التاريخية . فنحن نستخدم انقسام الأوربي الثلاثي (قديم . وسيط . حديث) على الرغم من أن العمق التاريخي لأمتنا العربية ضارب في باطن الزمن بمسافة أبعد كثيرا من العمق التاريخي لأوربا . كما أن مشكلات تطوير المنهج ماتزال تعوق البحث التاريخي في عنتنا العربي بالرغم من بروز عدد متزايد من الباحثين والمؤرخين المرموقين . ولعل الوعي بهذه الأزمة هو ما حدا بهيئات كثيرة في الوطن العربي إلى الدعوة لإعادة قراءة وكتابة التاريخ العربي .

وبطبيعة الحال . فإن المنظور العربي « لتجربة الحروب الصليبية » تشوبه هذه النواقص جميعا . ذلك أن الوعي الناعم بالحروب الصليبية يكاد يكون معدوما . ولست أغالى إذا قلت إن عامة المثقفين يتمثلون صورة ضبابية هذه التجربة التاريخية الفذة . وعلى الرغم من أن التجربة الصليبية يمكن أن تخرج لنا مجموعة من الرموز القومية ترصع تاريخنا في هذه المواجهة . فإن غالبية الكتابات العربية عن الحروب الصليبية تنحوص صوب الدراسة الأكاديمية الضيقة للظاهرة . التي تبدو في كثير من المؤلفات العربية وكأنها معلقة في هواء التاريخ لا تربطها صلة ما بالماضي أو الحاضر أو المستقبل . وفي أحيان أخرى تتخذ الكتابة العربية في فترة الحروب الصليبية شكلا عاطفيا يميل إلى اختزال التجربة في عدة أسماء وعدة مواقع .

على أن أهم مايلفت النظر أن كثيرا من الدراسات العربية التي خرجت إلى الوجود في فترة صعود المد العربي . والاحساس المتنامي بالقومية العربية وضرورة العمل العربي المشترك . قد حملت في مقدماتها أو عناوينها على الأقل مايشير إلى إدراك مثقفينا بالعلاقة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية بيد أن الأمر توقف عند هذا الحد .

وإذا كانت الدراسة الأكاديمية للحروب الصليبية في الوطن العربي اليوم قد كشفت عن تصاعد الاهتمام بهذه الظاهرة من ناحية . كما أدت إلى مزيد من الفهم لجوانب الحركة الصليبية وأبعاد الاستيطان الصليبي من ناحية أخرى . فإن الذين حاولوا الربط بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية أو حاولوا دراسة الحركة

الصليبية من خلال المنظور المعاصر للصراع العربي الإسرائيلي قليلون إلى حد الندرة . وإذا كان الدكتور/ قسطنطين زريق قد حاول سنة ١٩٥٩ م إحصاء ما ساهم به المؤرخون العرب في تاريخ الحروب الصليبية . فإن مرور أكثر من خمسة وعشرين سنة على ما كتبه كانت كافية لأن تخرج المطابع عددا أكبر كثيرا مما سبق نشره بحكم تزايد إقبال المؤرخين العرب على دراسة الظاهرة . والمتأمل في عناوين الدراسات والبحوث التي تناولت الحروب الصليبية بأقلام المؤرخين العرب لن يجد من ربط هذه الدراسة بمنظور الصراع العربي الإسرائيلي . وهو أمر يجب أن نتنبه له بشدة .

بل إن المثير حقا أن بعض الفصائل العاملة في الحقل السياسي تحت راية الدين تستخدم مصطلح « الصليبية » استخدما يمسح معناه ، ويجرده من مدلوله التاريخي الرامز إلى تجربة ثرية من النضال والعمل العربي المشترك ضد عدو من خارج المنطقة . فهذا الفريق السياسي العامل تحت راية الإسلام يستخدم مصطلح « الصليبية » للتهوين من شأن خصومه ومنافسيه السياسيين في الداخل ، بل إن بعضهم يستخدمها في إطار فج للنيل من توجهات سياسية وقوى اجتماعية مغايرة .

هكذا ، إذن ، نرى أن المنظور العربي للحروب الصليبية لا يعالج هذه التجربة التاريخية الفذة من خلال مفاهيم التجربة التاريخية التي يحياها العرب في مواجهة العدوان الصهيوني . بل إن قطاعات كبيرة من الجماهير العربية تكاد تسقط التجربة برمتها من رصيدها التاريخي . وفي تقديري أن هذه الحال تحتاج إلى ما هو أكثر من مجرد الرصد والتأمل ، فعدم الوعي بالرموز القومية في تراثنا التاريخي تجعل من هذا التراث شيئا أشبه بالارث الذي يؤول إلى وارث يبدده سفها وحمقا .

وفي تصوري أن الاهتمام العربي الواسع بالاحتفال بالذكرى الثمانمائة لمعركة حطين يمكن أن يكون نقطة بداية صحيحة لإعادة قراءة تاريخنا العربي قراءة صحيحة تستخرج الرموز القومية ، وتبلور الدروس التاريخية التي تجعل من العمل العربي المشترك مفتاح كل نصر ، وسر كل تقدم أحرزته أمتنا العربية على امتداد تاريخها الطويل .

أسباب الانتصار العظيم في معركة حطين

كلمة الأستاذ حسين مطهر - اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى :
« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، والصلاة والسلام على سيد الأبطال
وانجادهين . وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، وعلى من نهج نهجهم ، وسلك
سبيلهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد .

فإن مما يحز في القلب ويترك في النفس أسى ولوعة أن نجد من هذه الأمة
وهي منبع الرسالة الخالدة الحققة ، نجد من يعترهم اليأس ، ويستحوز عليهم
القنوط . اعتقاداً منهم أن لا سبيل لإصلاح الأمة الموحدة في العصر الذى
نعيش فيه . وأن لا أمل إلى إستعادة مجد أبنائها واسترجاع عزتها وكرامتها ، لقد
أصبحنا نسمع على ألسنة من يتمنون إلى العلم والمعرفة أن لا سبيل إلى الإصلاح
إلا أن يرسل الله عز وجل لهذه الأمة من ينجدها كالمهدى المنتظر أو ينزل عليها
من السماء عيسى عليه السلام ، يملأ الدنيا إيماناً وعدلاً كما ملئت كفراً
وجوراً . أو من خلال شعارات جوفاء ومستوردة .

إن هذه الطائفة اليائسة عندما تتبنى هذه الوجهة من اليأس والقنوط إنما
تدلل على هلاكها قبل كل شيء . وليس على هلاك الأمة الصادقة .
الصابرة ، المحتسبة . يقول الرسول الكريم - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -

« من قال هلك المسلمون فهو أهلكهم »

من كان يظن أن تقوم لهذه الأمة قائمة لما استولى الصليبيون على كثير من

بلدانها والمسجد الأقصى بالذات ما يقرب من مائة عام . من كان يظن أن هذه البلاد ستحرر على يد البطل المغوار صلاح الدين في معركة حطين الحاسمة . ويصبح هذه الأمة من الكيان والقوة والعزة ما شرف التاريخ . ومن كان يظن أن تقوم هذه الأمة . وهي خير أمة أخرجت للناس . أن تقوم لها قائمة لما خرب المغول والتار العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه . وفتكوا في الأنفس والأعراض فتكا ذريعا . حتى قيل إن جبالا شامخة أقامها هولاء كوكب . وهذا معروف . من جهاجم أبناء هذه الأمة . من كان يظن أن بلاد هذه الأمة ستحرر على يد البطل المقدام « قطز » في معركة « عين جالوت » الحاسمة أيضا . ويصبح هذه الأمة من الجحد والعظمة والرفعة ما تفخر به الأجيال .

إن التفاؤل بالنصر هو مقدمة للنصر وأن القوة المعنوية في كل أمة هي التي تدفع شبابها ورجالاتها إلى تحقيق المزيد من الانتصارات الخالدة .

إنني أقدر تقديراً عاليا اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية . على هذه المبادرة الحيوية الخادقة التي أرادت ومن خلال هذه الندوة أن تخلق التفاؤل وتجدد الأمل في نفس أبناء هذه الأمة الخالدة .

إن الانتصار العظيم الذي تحقق في معركة حطين لم يكن مجرد رغبة وقتية أو حادث عابر . بل كان نتيجة عوامل عدة . من أهمها في نظري :

١ - أن الله سبحانه وتعالى قيد لهذه الأمة رجلا صادقا . ورعا . تقيا . وليس المهم هنا الحسب أو النسب ، كما يقول البعض . أو تختلف أهور عري أو هندي . لكن الرجل صادق تقى . ورع . حقق لهذه الأمة هدفها ووحدتها فسارت في خط وطريق واحد .

٢ - القضاء على الخلافات وأسبابها ، وإحلال محلها المحبة والإخاء والإيثار .

٣ - توحيد قلوب الناس وأهدافها . فصاروا أمة واحدة على قلب رجل واحد .

٤ - توحيد البلاد سياسيا ، وتوحيد القيادة ، حتى يكون المفهوم واحدا والفكر واحدا والاتجاه واحدا .

٥ - الوقوف صفا واحداً في وجه المؤامرات الداخلية والخارجية والقضاء عليها ومنع أى خروج عن الصف أو مساس بالعقيدة وسلوكياتها .

٦ - كان للقتال هدف هو إعلاء كلمة الله ..

٧ - قضية التحرر كانت قضية الأمة بأكملها .

٨ - الإعداد والتخطيط الجيدين ، والقيادة الروحية المثالية ذات القدوة الحسنة .

هذه هي أهم العوامل ، كما قلت في البداية - في نظرى ، التى أضاعت الطريق . وكانت سببا إيجابيا ودافعا قويا لتحقيق النصر فى معركة حطين الحاسمة . ويمكن القول إن هذه العوامل هى بمثابة الدروس التى يجب الاستفادة منها .

إن تاريخ هذه الأمة حافل بالأحداث ، وليست هذه أول ولا آخر حدث .

إن تاريخ هذه الأمة حافل بالأحداث البارزة ، الساطعة ، التى يجب أن نتذكرها دائما وندرسها دراسة وافية ، نربى بها النفس ، وبالتالى الأجيال ، بهدف العودة إلى الحياة الصحيحة .. حياة القوة الإيمانية ، حياة وحدة الصف والكلمة .. حياة العزة واستقلال الذات .

البعض يحصر الصفات أو السلوكيات الحميدة فى شخصية القائد ذاته ، دون التنويه أن هناك العقيدة السمحاء هى التى ربّت وتربى النفوس ، وعلمت وتعلم أبنائها وقادتها تلك الصفات والسلوكيات الحميدة . فالسماحة والعطف ، وحسن القيادة ، والرعاية ، والصدق والوفاء ، وأمانة الكلمة ، والشجاعة والشورى وغير ذلك ، كلها من تعاليم الإسلام . وبدون هذه الصفات نخالف تعاليم الإسلام روحا ونصا .

أخيراً ، إن التضامن المشهود ، ووحدة الصف هذه الأمة من أبرز عوامل
القوة والنصر في جميع جوانب الحياة السياسية . الاقتصادية . الاجتماعية . فما
أن تتوفر لنا هذه العوامل وتحقق الوحدة حتى نعود إلى مآلف مجدتنا . كلنا أمل
وتفاؤل بأن هذا اليوم ليس يبعد ، وبهذا أكتفي . مؤكداً على أنني فوجئت
باسمى في قائمة المتحدثين . وأرجو من الله أن يثبت بالحق خطانا . ويبارك
أعمالنا ويوحد صفنا . ويقوى عزائمنا ، وإنه على كل شيء قدير.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

القسم الثالث

حَظَّيْنِ
وَدُرُوسِ الْمُسْتَقْبَلِ

حوار حول المستقبل العربي
في ذكرى حطين
وصلاح الدين

بقلم: محمد حسنين هيكل

حضرات السيدات والسادة :

مرة ثانية خلال أقل من عام أجدنى فى نفس هذا المكان . مدعوا من نفس هؤلاء الأصدقاء - اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية بالاشتراك مع مركز الدراسات العربية بلندن - للحديث فى نفس الموضوع وإن اختلف العنوان . واختلف الزمان : ففى الحريف كانت ثلاثين سنة بعد السويس . واليوم ثمانمائة سنة بعد الحروب الصليبية .

كأننا على نفس المواقع نفتش حيارى عن أنفسنا . وندور ملهوفين حول نخوم أرضنا . ونخوض فى أعماق الأعماق من وجداننا نساءل التجارب ونلتمس إليها أن تبوح وأن تفضى وأن تلهم .

ولايد أن أشكر للداعين كرمهم وإن كان لايد أن أعترف أنى فى دعوة الحريف الماضى - عن السويس - أقبلت - لكننى فى دعوة هذا الصيف ترددت .

ما أن سمعت بعنوان الموضوع حتى استهولت مجرد إيقاعه .

٨٠٠ سنة - حطين - صلاح الدين والعمل العربى الموحد .

هذا كله الآن . فى هذه الأوقات ؟ فى هذه الظروف ؟

لو أن هذا العنوان طرح فى الثلاثينات وبداية الأربعينات من القرن الماضى لتجاوزت - فمن حقنا أن نخلم .

ولو أن هذا العنوان طرح فى الخمسينات وبداية الستينات من هذا القرن

الحالى لقلت مع غيرى - ولم لا ؟ من حقنا أن نستعيد الخلم .

أما الآن فإن مجرد النطق بالعنوان يبدو سرايا وضبابا . طيفا غامضا
أسطوريا ضائعا وراء اللامرئى ووراء اللامعقول .

لقد كانت أحاديثنا فى هذه الندوة بالأمس كلها عن الخروب الصليبية
وعن حطين بعد ثمانمائة سنة . ولقد درسنا وتذاكرنا وثبتنا من دروس لم
يختلف عليها أحد :

● إنه ليس هناك سلام بدون قوة - بالمعنى الشامل للقوة .

● إن احتلال الأراضى لا يقضى على الأمم ولكن يقضى عليها احتلال إرادتها .
فطلما بقيت للأمم حقوق حريتها فإن حقوق أراضيها عائدة إليها مهما
استكبرت قوى العدوان .

● إن أى أمة من الأمم تتصر بوحدها ولا تتصر بغيرها . وذلك ينطبق على
الأمة العربية كم ينطبق على غيرها من الأمم . وفى حالة الأمة العربية فإن
انتصارها كان دائما مرهونا بوحدة إرادتها على هذا القوس الضخم المستد
من الفرات وما حوله إلى النيل وما وراءه من غرب آسيا إلى شمال أفريقيا .
الدروس أمامنا واضحة قاطعة بينة - فيما يتعلق بخطين وصلاح الدين .

لكن الأمر الواقع أمامنا محير ومرهق ومؤلم - فيما يتعلق بالجزء الثانى من
عنوان هذه الندوة - وهو : العمل العربى المشترك .

أسألكم هل يمكن أن تتصوروا معى مواطنا مصريا نذهب إليه فى
الأوضاع الراهنة لنقول له : أملك هو العمل العربى الموحد ؟ - ذلك طريقك
للخلاص !

سوف يشعر هذا المواطن أننا بهذا القول نخدعه .

إن بعضنا - وأنا بينهم - يتقنون معاهدة كامب دافيد ويقفون ضدها على
طول الخط . ولكن دعونا لانسى - وإذا لم نقلها هنا فأين نقولها ؟ - إن

المطريق إلى كامب دافيد لم يكن كله خطأ أو خيانة وإنما كانت مسافة منه كبيرة
يأساً وأسى - وبالتالي انسياقا مع ما تنجيء به الرياح !

لقد حدث ذلك حين أحس الشعب المصري في أحيان كثيرة أنه وحده
حرى وقتالا وأن غيره يتفرج على تضحياته وأحيانا يعايره بها .

أسألكم هل يمكن أن تتصوروا معي مواطنا عراقيا نذهب إليه الآن لنقول
له : أملك في العمل العربي الموحد؟ - ذلك طريقك لمواجهة الخطر !
سوف يشعر هذا المواطن العراقي أننا بهذا القول - أيضا - نخدعه .

ها هو منذ سبع سنوات يحارب ويقاقل وغيره يتفرج ويتشفي بل يفعل
أحيانا ما هو أسوأ فبعض النار التي لحقت ببغداد حملتها صواريخ قدمتها مصادر
عربية !

أسألكم هل يمكن أن تتصوروا معي مواطنا فلسطينيا في الضفة الغربية أو
القدس أو غزة نذهب الآن لنقول له : أملك في العمل العربي الموحد - ذلك
طريقك إلى الوطن السليب !

منذ سنة ١٩٤٨ وهو يسمع نفس الكلمات ولقد لاح له أمل في بعض
اللحظات لكن الآمال تبددت ولم يتبق إلا غضب شعب لا يريد أن يلتفت إليه
أحد . حتى لكأن هناك من ينحشون أن يتحول الغضب إلى ثورة تتسع دواثرها
كحجر يلقي في ماء راكد !

أديروا بصركم نحو بقية الأوطان العربية ، وأنا أتحدث عن شعوب هذه
الأوطان بالدرجة الأولى - معظمها تحت الضغوط . الذين لا يحاربون عدوا في
الخارج يجدون في الداخل من ألوان الظلم ما لا يقل جورا عن بعض أنواع
الحكم الأجنبي . فهناك نظم تستهلك أوطانها بدعاوى مختلفة ومتنوعة بتنوع
الظروف والأحوال .

ولقد يقال «إننا كنا ضحية مؤامرة واسعة» - والقول في جزء منه

صحيح ، فالمنطقة التي نعيش فيها مستهدفة باستمرار ولا أحد يريد فيها أمة
مقتدرة ممسكة بأعنة مصائرها .

كانت المنطقة باستمرار بؤرة حاكمة في العالم وبرزت في وديانها وواحاتها
الحضراء دول عظمى في بعض مراحل التاريخ القديم حتى جاء الإسلام فصنع
معجزة إنسانية من طراز فريد . تحولت طاقته الهائلة إلى بوتقة صهر استوعبت
ومزجت حضارات من القلب ومن الأطراف ثم صاغت منها باللغة الواحدة
والثقافة الواحدة والاتصال الجغرافي الممتد والأمن المشترك مشروعاً تاريخياً لأمة
عظيمة .

وهذه الأمة مستهدفة ليس هنالك شك . لكن أى قدر من التآمر
لايستطيع أن يفسر ما نراه حولنا على الساحة الآن .

ولقد كنا نستطيع أن نفهم لو أن التاريخ توقف بعد غارة «الصليبية
الجديدة» سنة ١٩٦٧ - لكن التاريخ لم يتوقف لأن الأمة مضت عبر تجربة
شجاعة ومقتدرة من ٥ يونيو ١٩٦٧ إلى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . ووقفنا جميعاً على
جسور العبور مساء ذلك اليوم المشهود ومعنا تحالف دول هائل وإمكانات
مادية ومعنوية بغير حدود .

ثم حدث شيء ما يصعب تفسيره أو تبريره فإذا نحن من قبة العالم إلى
خضيفه .

كيف حدث ذلك ؟ ولماذا ؟ وبأى منطق ساهمنا نحن في وقوعه لاهين أو
غافلين أو ما هو أسوأ ؟ وأقول على الفور إنتى لا أنوى أن أترك نفسى طويلاً لهذا
النواح على القرص الضائعة فالأمة كلها تحس جراحها وتعيش آلامها . أتذكر فقط
قصة بسيطة وإن كانت معبأة بالمعاني .

ذات يوم جمعنى لقاء مع حكيم من حكماء هذه الأمة وهو الدكتور محمود
فوزى ، وكلكم بالطبع تذكرونه بالخير وترحمون عليه .

يومها . معه وحيدين في شرفة على حديقة بيته . رحت أطرح همومي العامة عليه . وسمعتي وسمعتي ثم جاء دوره ليقول : وقال كعادته بأسلوب الرموز :

- هل تذكر التعبير الانجليزي الذي يقول « إن رجلا قطع أنفه لكي يغيظ وجهه » !

هل تذكر المثل الألماني الذي يقول « الحوادث كبيرة والرجال صغار » !

إنني أعترف لكم أنني يومها اعترضت على الدكتور فوزي وأنا أحد محبيه واهتمته بأنه يتجنب إجابات صريحة ومحددة في أوقات لا تتحمل فيها الظروف أحاديث الرموز . لكنه بحلمه ورقته طلب مني أن أعيد التفكير فيما قال على مهل . وأجبتني الآن على استعداد لأن أقول معه « إننا بالفعل « رجل قطع أنفه لكي يغيظ وجهه » . ثم « إننا فعلا في ظرف « تتعاضد فيه الحوادث ويتصاغر الرجال » !

أخذتنا أهواء وتلاعبت بنا مطامع ثم غلبتنا على أمرنا حقائق حياة وحقائق زمان .

خلطنا بين الثوابت والمتغيرات ، وبين الاستراتيجيات والتكتيك ، وبين مجموعات القيم والتزوات ، وبين الأصالة والتقهر إلى الراء ، وبين التجديد والتقليد الأبله للآخرين .

هكذا لم نتأكد وحدة الأمة وإنما تفككت أوصالها .

هكذا لم تتحول مواردها السائلة إلى ثروة منتجة وإنما تبددت في حقبة عبثية من الاستهلاك .

هكذا لم يصبح الموقع الحاكم أداة قوة وإنما رهينة تتوسل - وأكاد أقول تتسول - الحماية والأمان من القادرين .

هكذا لم تعد في أيدينا سلطة قرار حقيقى على مستوى الاستراتيجية المعنية
للأمة أو استراتيجية أى وطن محورى من أوطانها .

ليكن .

لقد حدث ذلك كله وليست هناك فائدة ترجى من إعادة تكراره واجتراره
فما العمل ؟

لابد أن ألقت النظر ابتداء إلى نقطتين :

١ - إنه ليس لدى أى واحد منا تشخيصا موضوعيا لأحوالنا . لأن رؤى كل
واحد منا محكومة بموقفه وموقعه .

٢ - إنه ليس عند أى واحد منا حلولا عملية . لأن تصورات كل واحد منا
للحل متأثرة بتجربته .

وهكذا فإن متاح لنا جميعا ليس التشخيص المتفق عليه للأحوال .

ولا الحلول القابلة للتطبيق بعد التشخيص المتفق عليه .

ماهو متاح لنا - بالحق وبالضرورة - هو أن نفتح أوسع الأبواب لمناقشة
المستقبل واستكشاف آفاقه .

المطلوب الأول - إذن - هو حوار حول المستقبل .

لعل لا أذيع سرا إذا قلت إن كثيرين هنا في مصر منهمكين الآن في إنشاء
حلقات حوار تتشوق إلى بصيص ضوء يبدو في نهاية النفق المظلم .

في الشهر الأخير شاركت أنا شخصا في ثلاث حلقات من هذا النوع نجرب
إنشاءها بعض ذوى النوايا الطيبة .

وكل مرة حضرت وفي كل مرة شاركت في الحلقات كنت أسأل الأصدقاء
من الحضور :

- « هل أنتم متأكدون من أن لدينا شيئاً نستطيع أن نقوله عن الغد وليس عن الأمس ؟ » .

هل أنتم متأكدون من أننا لسنا جزءاً من الأزمة وبالتالي لانستطيع أن نكون جزءاً من الحل ؟ » .

لابد أن تكون لدينا الشجاعة لتواجه الحقائق في أنفسنا أولاً قبل أن نواجهها في مجتمعنا .

وحتى هنا أمامكم فإنني أعترف أنني لست متأكداً أن لدىّ جديداً أقوله . الجديد أو ما أتصوره جديداً يبدو لي نوعاً من « روايات الخيال » . أو أحلام اليقظة . ومع ذلك يخطر لي أن أجازف وأعرض أمامكم بعض الملاحظات : أولاً - نخل إلى أن الدولة القطرية مهما كان حجمها سقطت أو هي في سبيلها إلى السقوط .

في بداية القرن الحالى كانت تتنازعنا ثلاثة اتجاهات في الدولة :

دولة الخلافة على أساس ديني .

والدولة الوطنية على الأساس القطري أو الإقليمي .

ودولة الوحدة العربية (فيدرالية أو كونفيدرالية) .

إن دولة الخلافة سقطت في الحرب العالمية الأولى وأسلمت الأمة العربية إلى هؤلاء الذين قاموا بتخطيطها وتقسيمها وتوزيعها أسلابة وغنائم على المتصرين . ولا أظن أن مشروع الخلافة أصبح قابلاً للتجديد لأنه لا يملك وحدة اللغة ولا وحدة الثقافة ولا وحدة الأمن ولا وحدة المصلحة التي يمكن أن يقوم عليها تنظيم دولة عظمى .

ولست أعرف على سبيل المثال أى وحدة لغة أو نظرية أمن أو تدخل مصالح يمكن أن يجمع في إطار دولة واحدة كل الشعوب التي تعيش من الملايو إلى المغرب .

هناك مجال لخامعة إسلامية ونيس لدولة خلافة جامعة .
إن سقوط الخلافة العثمانية استبقى أماننا بعد الحرب العنيفة الأولى
إمكانيتين :

الدولة القطرية - بحدودها الوضنية
ودولة الوحدة العربية - بأسسها التراسخة وجذورها القسرية إلى أعماق
الأعماق .

وكان حلم الدولة القطرية قريب المنال سهل التحقيق وشد النكل بريقه .
ومن أعقاب الحرب العالمية الأولى وحتى الآن عشت هذه الدولة حسمها
واستيقظت منه على كابوس .

لماذا ؟

١ - لم تستطع الدولة القطرية حل مشكلة التنمية مهي كانت خطتها
طموحة . وعلينا أن نتذكر أن حل مشكلة التنمية يتصل مباشرة بمشكلة الأمن .
فصر سنة ١٩٥٤ كانت تفكر في التنمية قبل المواجهة مع إسرائيل . وفي سنة
١٩٥٥ تنهت إسرائيل إلى ذلك فإذا هي تعجل بمرحلة ساخنة من الصراع لوقف
التنمية .

والعراق سنة ١٩٨٠ نفس الشيء فإن التفاعل الذرى العراقى دفعه وضوح
هدفه السلمى استوجب غارة مبكرة عليه من نفس الذين قاموا بتوريد السلاح
إلى إيران !

٢ - لم تستطع الدولة القطرية حل مشكلة الأمن . فاستخط الخيق بها
ليس إسرائيل فقط وإنما تناقضات أكبر بكثير من الصراع العربى الإسرائيلى وإن
كان هذا الصراع قد صب هذه التناقضات فى مجرى رئيسى ظاهر .

ومن الواضح الآن أن حجم التحدى أكبر من حدود أى وطن عربى واحد
حتى وإن كان أكبر أوطان هذه الأمة وهو مصر . والتجربة العملية وراءها

وأمامنا وفي انتظارنا مع المستقبل .

٣- لم تستطع الدولة القطرية حل مشكلة التحديث الضرورية للثورة الصناعية الثانية التي سوف تقاس قابلية الأمم للحياة في الأزمنة الحديثة بمقدار الاستعداد لها - فالتجهيزات الأساسية اللازمة للانطلاق إلى هذه الثورة شيء يختلف عما كان لازما للثورة الصناعية الأولى .

فإذا كان واضحا أمامنا أن الدولة القطرية مازالت تتعثر في الثورة الصناعية الأولى فكيف بالثورة الصناعية الثانية وهي مندفعة إلى مجالات الطاقة النووية والفضاء والألكترونيات ... إلى آخره .

٤- لم تستطع الدولة القطرية أن تحل مشكلة الديمقراطية وحقوق الإنسان لأن تفاوت مراحل النمو واختناقات عملية التنمية والضغط الخارجية وضرورات الأمن والتفاعل الطبيعي بين شعوب الأمة رغم كل الحدود - إلى جانب طبائع السلطة التقليدية التي مازالت تحكم منطق الدولة في بلادنا تحول أوطاننا جميعا حتى بغير قصد متعمد إلى حالة حصار تكون مواجهتها التلقائية بحالة طوارئ !

٥- لم تستطع الدولة القطرية أن تتعامل مع القوى والكتل السياسية والاقتصادية والمالية في زماننا الراهن - على قاعدة صلبة وقابلة للاستمرار وربما تذكرنا أن تقارير الأمم المتحدة عن استشراف المستقبل توضح بجلاء أن ظروف القرن المقبل سوف تجعل أى كيان صغير يقل حجمه عن مائة مليون من البشر مشروعا غير قابل للحياة .

ثانيا - أن كل الخيالات أو الأحلام التي تصورناها قادرة على حفظ كيان الدولة القطرية في مرحلة سابقة لم تعد مجدية إزاء تجارب الماضي القريب وعبر الحاضر الماثلة واحتمالات المستقبل التي لم تعد مجالا لظن .

١- ليس من حق أى دولة قطرية أن تتيه عجبا على الأمة بميزة أو بسبق . فالسبق الزمني إلى التقدم يفقد أهميته بسبب سرعة معدلات الجديدة .

وحجم البشر الكبير مع أهميته لا يكتسب أبعاد قوته الفعلية إلا بالتنمية .
وحجم الثراء الضائل لا معنى له إذا لم يتحول الثراء إلى طاقات اقتصادية
منتجة .

٢ - أنه لم يعد في مقدور قطر عربي أن يتوهم إمكانية الاعتماد على قوة
عظمى تساعد نموه وتساعد أمنه وتمسك بيده وهو يخطو إلى عوالم المستقبل .
إن كل القوى معنا بمقدار ما ينسب مصالحها . وكل القوى ضدنا بمقدار
ما يناسب هذه المصالح . وليست هناك قواعد متفق عليها بالأخلاق أو بالقوانين
لنسب تبادل المصالح بين الأضراف وإنما الحكم هنا هو بحجم الإرادات المتعامدة
والمتقابلة .

٣ - أن الدولة القطرية اضطرت إلى ضرب تفسيحات هائلة في سبيل قيامها
ببعض ما هو مطلوب منها .

في التنمية كان الثمن الذي دفع بالديمقراطية وحقوق الإنسان غالياً .
في الأمن كان الثمن الذي دفع بدعوى الاستعداد العسكري والتسلح باهظاً .
وبمطالب الإثنتين معاً - التنمية والأمن - سواء كانت هذه المطالب حقائق أو
ذرائع وصلت الدولة القطرية إلى حالة تشبه الكساح .

٤ - أن الدولة القطرية وصلت رغم إرادتها في بعض الأحيان إلى وضع
أصبحت فيه جماهيرها أقوى من سلطتها . وهذه ظاهرة تبدو ضيقة ومبشرة لكنها
في نفس الوقت تنذر بمخاطر .

ذلك لأن كل الدول اضطرت بحكم ضرورات العصر وضغوطه مرات .
وبحكم واقع وجود الثراء مرات أخرى - إلى نوع من التنمية الاضطرارية
كالصرف على الهيكل الأساسي والتعليم والصحة وغيرها من الخدمات . وبفعل
ظروف العصر ووسائله في الاتصال فإن قوى اجتماعية جديدة بدأت تظهر ويتسع
إطارها ويزداد قربها من حركة الدنيا . والحقيقة أن صداماً مأسوياً يمكن أن ينتج

بسبب هذه المواجهة بين السلطات الحاكمة وبين القوى الاجتماعية الجديدة .
فالسلطات الحاكمة لا تتغير بسهولة ولكن وسائلها في التسلط زادت قوتها وزيادة
رهية بالتكنولوجيا سواء تكنولوجيا التطوير أو تكنولوجيا القمع .

٥ - أن الدولة القطرية في وطننا وبعد عجز المرحلة التقليدية واجهت مرحلة
الانقلاب العسكى - يتحول أو لا يتحول إلى ثورة - وفي كل الأحوال فهذه
مرحلة فات وقتها ولم يعد ممكنا تكرارها ولم يعد لائقا الاعتماد على مصادقاتها أو
مغامراتها .

هكذا أجد نفسى قريبا من الفطن بأن الحل يكمن في إمكانيات العمل العربى
الموحد على كل مستوى من مستوياته .

ولقد نلتفت حولنا فوجد أن الذين لا يملكون أسسا حقيقية للوحدة بينهم
يبحثون عن مثل هذه الأسس . فإذا لم يجدوها قاموا باختراعها اختراعا لأن
الكيانات الشظايا محكوم عليها .

فكيف السبيل إلى عمل موحد .

سوف آخذ مرة أخرى بمنطق الاستبعاد :

١ - لن يتحقق العمل العربى الموحد بظهور البطل الذى يقوده بل إن البطل
فى حد ذاته كفيل بتعويق الهدف بما يحدثه من مشاكل إنسانية - فضلا عن أننى
أعتقد أن ظروف الدنيا تجاوزت عصر الفرد الذى يغير مصائر فالمصائر الآن تتقرر
بوسائل لم تكن قائمة فى العصور التى عرفتها البشرية ابتداء من رمسيس
والاسكندر إلى نابليون وبسبارك إلى لينين وتشرشل .

٢ - لن يتحقق العمل العربى الموحد بدولة نواة كما كنا نتصور وكما رأينا فى
تجارب توحيد أمم قبلنا فالدولة النواة سوف تخلق حساسيات يصعب التغلب
عليها . ولقد تصورنا فى بعض الأحيان أن الدولة النواة لابد أن تكون الدولة
النموذجية وهذا إفراط فى حسن النية - ومع ذلك فلقد رأينا أن دولة قطرية
واحدة لا تستطيع مهما فعلت أن تجعل نفسها نموذجا .

٣- لن يتحقق العمل العربي الموحد بإقناع العالم الواسع أو استجداء ضيعة قلبه أو حتى رشوته . فالمطامع الدولية أكثر ذكاء والقوى العنانية أكثر وعياً بما تريد في المنطقة . وأليس غريباً أن الدول العربية في مجموعها صرفت على الإعلان الصريح عن نفسها في الفترة ما بين سنة ١٩٧٣ وسنة ١٩٨٥ ما تزيد قيمته على خمسمائة بليون دولار في الإعلان عن نفسها وفي حملات علاقات عامة وإعلانات صريحة ومع ذلك فإن صورة العربي ما زالت حتى هذه اللحظة هي صورة الإرهابي - السكير - المنقاصر ... إلى آخر ما تعرفونه (نفس الشيء في مجال الأمن ففي نفس الفترة وجهت الأمة إلى شراء السلاح حوائى خمسمائة بليون دولار ومع ذلك لم تستطع أن تشتري الأمن) .

٤- أن العمل العربي الموحد وإمكانياته لا يتحقق بخلط الهوية القومية بالعقائد الدينية . ولست في حاجة إلى أن أعيد على مسامعكم حقيقة وجود أمة عربية واحدة قام الإسلام بدور العظم في صهر عناصرها الأصلية ومزجها وتشكيلها عقلاً ووجداناً .

٥- أن العمل العربي الموحد لا يستطيع أن يبدأ نجد أو يتصل بأمل إلا إذا اقتنعت شعوب الأمة العربية أن ذلك سبيلها . ومن سوء الحظ أن ذلك حتى هذه اللحظة موضع تشكيك مقصود رغم أنه موضع الأمل الباقي فيما أظن . ولو نظرنا إلى أعماق من مجتمعاتنا لوجدنا أن القمم العربية قابلة للهزيمة من الداخل ولكن المقاومة لا تزال حتى هذه اللحظة تحت مستوى القمم .

كيف السبيل إذن ؟

جوابي بأمانة أنني لا أعرف وقد يتما اتفقوا على أن « من قال لا أدري فقد أفتى » .

ومع ذلك فلقد لفت نظري في مسيرة صلاح الدين بطل حطين أنه بدأ عهده في مصر بخطوتين :

وجد في مصر أربعة عواصم :
الفسطاط التي أنشأها عمرو بن العاص في بداية الفتح الإسلامي
والعسكر التي أنشأها الخلافة العباسية
والقطائع التي أنشأها الدولة الطولونية
والقاهرة التي أنشأها الدولة الفاطمية
ورأى صلاح الدين توحيد الكل في عاصمة واحدة يحيط بها سور واحد
وقلعة الجبل . قلعة صلاح الدين . في وسطها .
وتلت ذلك كله خطوة أخرى . فقد وجد أربعة مدارس للعلم في مصر
واحدة لكل مذهب من المذاهب الأربعة . ورأى أن تكون هناك مدرسة واحدة
تجمع علم المذاهب الأربعة واجتهاداتها .
خطوة نحو التوحيد على مستوى السياسة ، وخطوة نحو التوحيد على مستوى
الفكر .

خطوات تبدو صغيرة .
ولكنها كانت أول الخطى إلى حطين .
وألّيس غريبا أن تكون العبر والدروس ماثلة أمامنا . ومع ذلك يبدو لنا
فهمها واستيعابها نوعا من جموح الخيال وغرقا في بحار الوهم ؟!

بُور الاستنزاف في الوطن العربي وأسباب العجز عن مواجهتها

كلمة الأستاذ : منخ الصالح - لبنان

لابد من توجيه الشكر أولا للجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية
الآسيوية ورئيسها الأستاذ أحمد حمروش على أنها بالاشتراك مع مركز الدراسات
العربية بلندن . قد دعت إلى هذه الندوة الدولية فوضعتنا تحت هذا العنوان
« حطين » من عناوين تاريخنا المجيد أمام تحد كبير من تحديات حاضرتنا هو العمل
العربي المشترك .

لقد قربت صلاح الدين إلينا وهو القريب إلى قلوب العرب والمسلمين
والإنسانية جمعاء . لأنها طرحته مقرونا بالعمل العربي الموحد ، فعسى أن تقترب
الأمة العربية بدورها من فاعلية صلاح الدين عن طريق وعيها لهذا العمل
وضرورته . إذ لا موصول لماضينا المشرف إلى حاضرتنا إلا سلوك هذا الطريق . وقد
أصبحت في بلادنا مدرسة فكرية متكاملة ترى خطرا في الاشارة بالماضي -
واختيار النقاط المضيئة منه دون سواها لأن أنوارها قد تهر وتترك الخطى .
فالواقع والواقع وحده يجب أن يكون الحاضر الدائم .

لو أننا شئنا أن نحدد طبيعة الأزمة التي تعيشها الأمة العربية في الوقت الحاضر
لقلنا إنها أولا أزمة عجزها عن تحقيق أى قدر من العمل العربي الموحد ، في حين
تعدد في مختلف أطراف الوطن العربي بؤر استنزاف مفتوحة . عسكرية وسياسية
واقتصادية لم يسبق للعرب منذ فترة بعيدة أن عرفوا مثيلا لها . إن من حيث النوع
أو من حيث الحجم . كلبنان . والحرب الإيرانية - العراقية ، والصحراء
الغربية ، وجنوب السودان . وتشاد .

ومجرد نشوء هذه الأوضاع الاستنزافية واستمرارها إعلان صارخ عن التردى

الذى تمر به دينامية التضامن العربى ، وقد تلقت هذه الدينامية ضربة كبيرة بغياب الدور المصرى من صدارة العمل العربى وعدم استطاعة الدول النفطية النهوض بمسئولية الدور نفسه وتقلص العامل الفلسطينى فى الحياة العربية نتيجة نكساته المتوالية .

ولعل هذه العناصر الرئيسية هى التى ساعدت أزمة العلاقات العربية المزمته على التفاقم والتضخم بحيث إنه فيما خلا مؤتمر فاس الشهير وما نشأ عنه من مشروع سلام عربى ولجنة سباعية لم يحصل فى المدة الأخيرة ما يصح أن يسجل على صعيد محاولة التحرك العربى الواحد . هنا مع العلم أن مقعد مصر فيهبقى فارغا وأن هذا المؤتمر لم يتابع بالرغم من الضرورة الواضحة لمتابعته فى مبادرات أخرى على مستوى عال .

وهناك إلى جانب موضوع هذا المؤتمر وهو موضوع السلام فى الشرق الأوسط والصراع العربى الاسرائيلى مواضيع أخرى تحتاج إلى مبادرات بالحجم نفسه وأهمها الحرب الإيرانية العراقية التى تقتضى تضامنا العرب فى اتخاذ مواقف عربية صريحة وحاسمة فى العمل على إنهاؤها ونصرة الجانب العربى . وإتخاذ العروبة والإسلام معا من مآسى استمرارها .

كما أن هناك حرب لبنان التى يشكل استمرارها تعريضا لكيان بلد عربى كامل بالزوال . فضلا عما يعانيه هذا البلد من احتلال اسرائيلى هو وصمة عار على جبين كل عربى قبل أن يكون كذلك على جبين اللبناني الذى أدى ويؤدى دوره فى مقاومته .

والإحباط الناتج عن عدم وقف الحرب الإيرانية العراقية والحرب اللبنانية زبما كان أكبر فى هذه المرحلة من ذلك الناتج عن وضع الصراع العربى الاسرائيلى نفسه ، أولا لأن كل عربى يعتقد أنه فى استطاعة العرب حل هاتين المعضلتين لو صدقوا فى عملهم المشترك ، وثانيا لأن اقتتال اللبناني مع اللبناني والعربى مع المسلم قد غلبا مشاكل من نوع خاص ولوثا الفضاء العربى كله بسموم الطائفية

والمذهبية والتفرقة وفعلًا فعلها في الوحدات الوطنية في أكثر من بلد عربي وإسلامي .

وفي بعض الحالات يبدو كما لو أن المسؤولية العربية عما يجري تفوق المؤامرة الأجنبية في الفعالية . فلا أحد يصدق على سبيل المثال أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي هما اللذان تسببا في ما يعانيه لبنان - ولبنان كان صديقا للدولتين وساحة للنفوذيين عندما انفجرت هذه الحرب - فالعامل العربي الجامع والعامل الداخلي كانا باستمرار الأكثر مسئولية في استمرار المأساة . وهذا أمر خطير لو أدركنا كل معانيه واستوعبنا عبره ، ولا يخفف منه معرفتنا بأن الولايات المتحدة قادرة من خلال إسرائيل على لعب دور حاسم في إنهاء هذه الحرب .

إن استمرار غياب العمل العربي الموحد تقع تبعاته أولا على الحكومات العربية وسياساتها الخارجية والداخلية .. ثم ثانيا على الأوضاع الاستبدادية اللاديموقراطية داخل النظم والقوى والحركات السياسية العربية .. ثم ثالثا على عدم نهوضنا جميعا لتتلاقى مقتل اللاوحدوية المتفشى بلا مقاومة في حياتنا . فاللاوحدوية المعاصرة هي أساس أيضا في غياب العمل العربي الواحد - بل إنها المظهر الأساسي لنكستة القائمة في الوطن العربي كله . ولا بد من أن نفرد لها اهتماما خاصا على كل صعيد . بداية بالفكر ونهاية بالتجسيد في الصغير والكبير في أعمالنا .

لقد فهم العالم حركة التحرر العربي منذ الإرهاب بها في أوائل عصر النهضة بأنها حركة تهدف إلى توحيد العرب ، وإقامة وجودهم السياسي على أساس وحدة شخصيتهم التاريخية والجغرافية والثقافية . وكان مطلب التوحيد يرافق دائما مطلب التحرير بل يتنافس ويبرزه ويعزز شرعيته في نظر أبناء الأمة .

ففي مصر والسودان - وفي الهلال الخصيب - وفي الخليج - وفي الجزيرة العربية - كان المشروع الوطني الاستقلالي لا يتفصل إطلاقا عن عملية توحيد ما . سواء شاملة للعرب ككل أو مقتصرة على قسم هام منهم .

بل يمكن القول أن السمة المميزة لحركة التحرر العربي بالمقارنة مع معظم حركات التحرر الوطني في العالم أنها حركة توحيد . ففي هذه الصفة دون غيرها من الأهداف المشتركة بينها وبين حركات التحرر تلخصت خصوصيتها .

وقد كان مجموع العرب ينظرون إلى وحدة أمتهم العربية ولا يزالون. العاديون منهم قبل المثقفين. أحيانا على أنها الضرورة الأم في حاجات وطنهم الكبير. فهي تعطى المعنى التاريخي والمدى الروحي والمادى لمطالبهم المتعددة في الاستقلال والدفاع والتنمية الاقتصادية والثقافية .

ولعل المفارقة التي تعيشها الأمة أن الوحدة التي هي السمة الأبرز لحركة تحررها شبه المرادف لقوميتها الخاصة تتحول أو تحولت إلى نقطة الضعف الأكبر في واقعها السياسي وغير السياسي . وذلك منذ استفحال مأساة العمل العربي الموحد الحالية .

ويكاد الفرد يتفطر ألما وهو يلاحظ أنه قد أصبح هذه الأمة تراث في فشل مشاريع الوحدات يسمح بالقول إن موضوع الوحدة في حياة العرب هو ساحة عجزها الرئيسية .

ويتمثل ذلك لا في مشهد التشتت العربي شبه الكامل والمتأدى في الزمن فحسب ، ومن مظاهره غياب الجامعة العربية مثلا . ولا في أن ما كان مشاريع وحدة جزئية أو شاملة ، إقليمية أو عامة هو مطوى في كل مكان. بل في أن بعض الإنجازات نفسها التي حققها العرب في ميادين الاستقلال والتنمية والتحرر تمت هي نفسها على حساب تراث وحدة العمل العربي . وكأن هذه الإنجازات ما سمح لها أن تقوم إلا لأنها حملت إضعافا بشكل أو آخر للعمل العربي الواحد أو على الأقل بجانبه له .

إن ميادين القصور والعجز والضعف في حياتنا العربية كثيرة . ولكن أبرزها من غير شك في المرحلة الحالية في حياة العرب هو القصور في ميدان العمل العربي الواحد .

ونحن ندفع كئمن لهذا القصور استفحالا لمشاكلنا الإقليمية ، كحرب إيران والعراق ولبنان وسواها ، وضعفا أمام عدونا الإسرائيلى ، وتبعية سياسية واقتصادية وثقافية لطغاة هذا العالم وأقويائه ، وندفع أيضا نموا للمذهبية والطائفية والقطرية الضيقة . وأهم ما ندفعه كئمن عاجل ومدمر هو نمو التيارات الدينية المتطرفة . إذ بدون ذلك النفس التضامنى الوجدوى بالأساس الذى هو نفس العروبة التاريخية الأصيلة - سوف تظل الجماهير العربية تحت إغراء التيارات الدينية المتطرفة ، لأن هذه الجماهير تشعر فيها دفءا ثقافيا وحضاريا آتيا من ماضيها أو من تراثها بينما لا تشعر هى بالدفء نفسه فى أوضاع التجزئة والتناحر والمشاريع والأحلام القطرية الضيقة ، والشىء الوحيد الذى سيخرجها من الدينية المتطرفة ويقرها إلى الحياة وإلى الدين نفسه معا هو النجاح على صعيد العمل العربى الموحد ، إذ من هذا النجاح سيشتد الدفء الثقافى والحضارى الصحيح الذى تفتقده جماهيرنا نتيجة العزلة والتقاعد والأحلام الصغيرة ، ومن هذا النجاح ستعود الأصالة والمعاصرة معا إلى حياتنا .

وروح الوحدة مهما تكن متواضعة التى تنطوى عليها أى خطوة صادقة ومدرسة وموضوعية على طريق العمل العربى الموحد قادرة على تغيير الكثير مما نشكوه فى أكثر من ناحية من نواحي حياتنا .

وشكرا

هذه هي الصّعوبات التي تعوق
وحدة العمل العربي كما أراها

كلمة : عبد الله أحمد حسن
السودان

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

عبد الله محمد أحمد حسن ، ويلزمنى أن أعرف نفسي أكثر لأنى غريب على مثل هذه الاجتماعات لأننا لأول مرة منذ ١٥ - ١٧ سنة نشارك فى مثل هذه الاجتماعات . فأنا على الإطار السياسى ، عضو مكتب سياسى لحزب الأمة . ومساعد رئيس الحزب فى الشؤون الخارجية . وعلى الإطار الرسمى . فأنا عضو فى البرلمان عن دائرة من دوائر العاصمة . ورئيس لجنة الشؤون الخارجية فى البرلمان . ورئيس المجلس الوطنى للتضامن والصداقة والسلام مع الشعوب . ويضم هذا المجلس فيما يضم . لجنة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية . مع أكثر من ثمانين منظمة تدعى وتعمل للعمل الآسيوى والأفريقى والعربى وغيره من الصداقات مع الشعوب . فنحن فى بلد يتسم ويتذوق الآن حلاوة الديمقراطية . ولذلك كل مجموعة تريد أن تعمل تنظيماً . وتعمل ترتيباتها بأنها هى التى تنطلق من الأسلوب الأصح والأسلم فى معالجة القضايا المعاصرة من حولنا ، هذا لزوم التعريف .

أوجه شكرى للأخ أحمد حمروش واللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية على توجيه هذه الدعوة . وهى فى الأصل وجهت للأخ السيد الصادق المهدي ليشارك . ولكنه كلفنى ممثلاً له فى هذه المشاركة .

ليست لدى ورقة مكتوبة . وليست لدى مشروعات منظمة ومرتبطة ، ولكنى أحب أن أساهم من خلال ما استمعت إليه هنا فى هذه الجلسة . ومن خلال مانسعى نحن له ولم يتم ولم ينظم حتى الآن لأن يكون مشروعاً لوحدة عمل عربى .

حقيقة يا إخواني . فإن المعالج للقضايا العربية يتوه توهان كبيرا في شيئين .
أنا في المنطقة العربية . دائما نفتقر إلى الصراحة . ونفتقر إلى التوضيح . ونفتقر
إلى الموضوعية في معالجة قضيتنا العربية . دائما . أما في الستة أشهر الماضية .
قابلت في الخرطوم . وسافرت إلى العديد من البلدان العربية . استمعت إلى
شخصيات شعبية وقيادات غير رسمية . استمعت إلى مسئولين . ولكن نجد
نفسك تائها حول الموضوع . لا شخص يطرق لب الموضوع . ولا شخص يتكلم
الكلام الذي يجب أن يقوله . إطلاقا . نحن ندور حول الموضوعات . ندور
وندور في بلاغة وفي فصاحة .. صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن
من البيان لسحرا » . فنحن عندنا بيان . عندنا سحر . عندنا أنفاض صنانة ورنانة .
ونتكلم ساعات وساعات ولكن أين الموضوع ؟ أين المشروع ؟ أين الحقيقة ؟

ستجد نفسك تائها . قبض الريح . دائما إذا تحدثت مع القيادات العربية
شعبية ورسمية فأنت تقبض الريح .

أنا أسعى من ستة شهور ماضية لما أسميناه اجتماع حكماء العرب . فقلنا نفتش
عن الحكماء . من هم حكماؤنا قلنا : من مفهومنا شخص لا يكون في المسئولية
الرسمية حتى لا تقيد الالتزامات الرسمية المحلية والعالمية والدولية في أن يقول لك
الحقيقة . أو يتعامل معك التعامل الذي يجب أن يتعامل معك به . قلنا :
نفتش عما أسميناهم رجال الدولة . الذي لا يرتبطون بمناصب حتى لا تؤثر عليهم
هذه المناصب . نفتش عن المفكرين . نفتش عن المخلصين الوطنيين ذوي
التاريخ الناصع في القضية العربية والقضايا الدولية . نفتش عن هؤلاء الذين
لهم كلمة مسموعة بين العرب . وظلت في الستة شهور أسافر وأفتش وأسأل
وأبحث . وأنا عندى جداول وكشوف . ولكن نحن نريد أن نصل إلى من هم
الذين يمكن أن يسمع لهم في هذا العالم العربي . لماذا ؟ لأننا نريد من خلال
هؤلاء الرجال أن نجلس بموضوعية وبصراحة وبكلام حقيقى نابع من المسئولين
لنعالج القضية العربية .

دائماً نحن نقول إن هذه الموضوعية حقيقة شيء مهم جداً بالنسبة لنا إذا خرجنا من الإطار العربي إلى الإطار الديني ، واحدة من المسائل الأساسية التي علمها القرآن للرسول وللناس من حوله ، هي لابد من الدخول إلى الموضوعات بصراحة وبوضوح . فالقرآن قال للرسول : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى » كلمه هكذا بصراحة . يريد أن يعلمنا أن نعالج موضوعاتنا بهذه الصراحة وبهذا الوضوح .

وجاءت قضية زواج « زينب بنت جحش » من « زيد » . والرسول أسر في نفسه شيئاً . لا يريد أن يتكلم عنه ، فقال له القرآن . إنك تسرف في نفسك شيئاً وسأكشفه ، وكشف القضية كلها . وقال له أنت تريد زينب . وأنا زوجتك لها .

هذه الصراحة وهذا الوضوح هي المطلوب منا أن نأخذ بها في قضايانا . وليست هي قضية زيد والرسول وزينب بنت جحش . ولا هي قضية الأعمى والرسول لا ، إنها قضية أن نعلم أننا لانستطيع أن نبشر أمورنا بقوة وبوضوح إلا إذا بشرناها بصراحة .

ولذلك . فنحن من هذا المنطلق ، منطلق الوضوح . بدأنا نفتش ونبحث عن من هم الحكماء الذين نستطيع أن نستشير برأيهم ، والذين نستطيع أن نجعلهم رأس الرمح في معالجة القضية العربية .

وما نزال نسعى هذا المسعى .

قائد قد واجه الحقيقة ..

أعود مرة أخرى إلى ما استمعت إليه هنا الآن . أمس واليوم . حقيقة في نظري أن قضية حطين وصلاح الدين . في وقتها كانت قضية إسلامية ولم تكن قضية عربية ، قضية توحيد الناس حول هدف معين ، وقادهم هذا القائد الفذ وحقق بهم انتصارات على خصومهم . أيا كانوا هؤلاء الخصوم ، سواء كانوا الصليبيين أو كانوا استعماريين غربيين فرنجة أو غيرهم . إنما الهدف كان تحرير

هذه الأرض وهؤلاء المسلمين في هذه المنطقة في ذلك الوقت . العبرة إذن في نظري من هذه القضية . هي أننا الآن في شتات وأننا الآن معرضون لأجانب . وأننا الآن يلزمنا قيادات توحدنا حول هدف تحرير بلادنا وأرضنا كما حدث من ذلك . لاهي قضية أنه . هل كان هو مسلم ؟ هل كان هو عربي ؟ هل كان هو كردى ؟ لا . القضية أن هذا الرجل في هذه المنطقة في ذلك الوقت . حكمته مفهومات معينة . هذه المفهومات علينا أن نقبلها بظروفها التي عاشتها .

ولكن العبرة فيها أنها . رجل قد بطل عرف قضيته الحقيقية وطرق هذه القضية ووجد حولها الناس . ثم حرر الأرض وأعاد الحقوق إلى أهلها . نحن الآن في نفس الموقف .. في موقف شتات . في حاجة إلى قيادة . في حاجة إلى توحيد لنخرج من عتق الزجاجة الذي نحن فيه الآن . هذه في نظري هي العبرة من كل هذه القضية .

إذن عندما نتذكر الآن حطين بهذا المفهوم . وبعد خمس سنوات . يبدو لنا أيضا أنه يجب أن نحتفل بمرور ٥٠٠ سنة على سقوط الأندلس . بعد خمس أو ست سنوات . وكذلك يلزمنا أن نجلس ونبحث العبر من سقوط الأندلس . والعبر من سقوط بعض البلاد الإسلامية الأخرى في أيدي غير إسلامية . العبرة من هذا الموقف كله . هي أن نستقرئ التاريخ ونفهمه فهمًا صحيحًا ومنه نأخذ الدروس لنستفيد بها في واقعنا السياسي الجارى الآن . هذا هو في نظري كل الدرس الذي يجب أن ننطلق منه .

الإسلام والعروبة :

النقطة الثالثة التي أريد أن أعرج عليها . هي إذا كنا وعينا درس التاريخ في عهد صلاح الدين في احتفالنا هذا بمرور ٨٠٠ سنة على انتصار حطين .. الآن . ماهي الصعوبات التي تواجهنا في العمل العربي الموحد ؟

وقد أكون مخطئاً، وقد أكون على صواب حين أقول إن أول هذه الصعوبات أن العالم العربي يموج بتيار إسلامي قوى لا يقبل الوحدة العربية . هذه حقيقة موجودة . هناك منظمات سياسية . ولدينا المثل في السودان . حيث أسفرت الانتخابات الأخيرة عن ١٠٢ نائب في الجمعية التأسيسية من حزب الأمة و٦٣ نائباً للاتحادى الديمقراطى . و٣١ نائباً لجنوب السودان . و٥١ نائباً للجهة القومية الإسلامية . وهى صنو للإخوان المسلمين فى مصر وللجماعات الإسلامية فى باكستان . أو توأم لهذه المنظمات السياسية .

هذا تيار -على الأقل هو موجود عندى أنا الآن فى السودان- لا يقبل ما يسمى بالوحدة العربية . ويتحدث ويهدف إلى الوحدة الإسلامية . وإذا تحدثت عن وحدة العرب فإنما هى معبر للوحدة الإسلامية فى نظره . ولذلك فأخلف الأقوى عنده والأسمى وكل استراتيجيته فى العمل السياسى بينها على الوحدة الإسلامية .

إذن هذا التيار موجود . سواء كان فى السودان . فى مصر فى بلاد أخرى بعضه يشتغل علنا وبعضه يعمل تحت السطح . ولكن له وجود مؤثر . إذا جلسنا لتحدث عن الوحدة العربية . لابد من وضع اعتبار لهذا التيار الذى يعمل بهذا المفهوم . .

الأقليات العرقية

النقطة الثانية من الصعوبات التى تواجهنا . وجود أقليات عرقية قوية فى العالم العربى لا تنتمى إلى العروبة . فى بعض الأحيان بعضهم مسلمين . ولكنهم ليسوا عربا ويعتزون بأنهم ليسوا عربا . وأحيانا غير مسلمين . وفى كل بلد عربى توجد مثل هذه الأقليات . فأنا عندى فى السودان أقلية ٢٥٪ فنحن ٢٢ مليوناً وهم حوالى ٥.٥ مليون ، بعضهم مسلمين . وبعضهم مسحيين وبعضهم وثنيين . ولكن كلهم يلتقون على شىء واحد أنهم ضد العرب . عندى فى السودان أنهم ضد العرب بسبب واحد . وهو أن الكنيسة

ظلت على يد الاستعمار البريطاني خمسين سنة تلقنهم أن العرب هم الذين باعوه في سوق الرقيق للأمريكان ولأوروبا ، وأن الكنائس التي هي محل الرحمة ، ومحل الحديث عن العلاقات الإنسانية فيها صور العربي وهو على صهوة جواده أو على بعيره ومن خلفه الأفارقة مشدودين بالجنازير ومسوقين إلى سوق الرقيق . هذه صورة العربي عندهم . ولذلك لا يقبلون إطلاقاً أى كلام عن العروبة . الصعوبة الآن أننا نريد أن نبلغهم العربية وكلمة العربية . الآن ، رغم أنهم يتحدثون اللغة العربية إلا أنهم معنا في البرلمان لا يتحدثون اللغة العربية . ولكنهم يتحدثون باللغة الإنجليزية معنا في البرلمان . إمعانا في عدم التفاهم مع العرب ، رغم أنك تعرف أنه يتحدث العربية . وأنه خارج قاعة البرلمان يتحدث معك بالعربية . لكنه داخل القاعة يتكلم الإنجليزية ليؤكد أنه لا ينتمى إلى العروبة بأى شكل من الأشكال .

هذا الشيء موجود في السودان . وموجود في الشمال الأفريقي في شكل البربر وموجود في شكل أكراد في بلاد أخرى ، وموجود في كل مكان في المنطقة العربية وهذه الأقلية تتحدث الآن بلغة أخرى . هذه اللغة - سامحه الله السيد نيريزى - قال في خطاب من خطبه . وهذا ما يواجهوننا به الآن في السودان . « ليست هناك أغلبية . يتحدثون معكم عن الأغليات ، والديمقراطية التي تحكمها الأغلبية والأقلية . وأن الأقلية لابد أن تخضع لرأى الأغلبية . ليست هنالك أقلية . وتستطيع الأقلية أن تحكم الأغلبية إذا حملت السلاح . تفرض رأيها على الأغلبية أو على الأقل تؤثر في رأى الأغلبية إذا هي حملت السلاح » .. إذن فالأقليات الآن غذيت بهذه المفهومات عندنا في المنطقة الأفريقية . نحن مثلاً في جنوب السودان هذه الأقليات الآن تحمل السلاح لتعمل تحييد لرأى الأغلبية ، لأنه يريد أن يفرض رأيه معك على قدم المساواة لأنه يحمل السلاح ، وأنت إذا حملت معه السلاح تكون أنت المعتدى في نظر جهات أجنبية كثيرة تحميمهم وتغذيهم وتساعدهم باسم الإنسانية والمنظمات الخيرية والمنظمات الدولية وهلم جرا .

إذن فهو يحمل السلاح . وأنت تحرم عليك حمل السلاح بأشكال كثيرة إنسانية ودولية ومقاطعات دبلوماسية وغيرها . واتهامات بالعصية والعرقية وبالتطرف الديني . وكل هذا يحيطونك به ويمنعونك من حمل السلاح لتأديبه . ولكن هو يحمل السلاح (ليحمي حقوقه منك) (أنت الأغلبية التي تتغول عليه) .

هذه الفكرة أبرزها وقواها السيد نيريري في الشمال الشرقي الأفريقي . والآن انتشرت هذه الفكرة . وأصبحت هذه الأقليات مهما تحدثت ومهما لبس بعضها جلود الحملان . إنما بطونهم وضمايرهم تموج بحقد دفين على العربية . غدى مثلاً عندنا بهذه المفهومات .. أن العرب هم الذين باعوكم . هم الذين استرقوكم . هم الذين اضطهدوكم . ولذلك مهما تكلموا معنا بلغة لينة فهم في قلوبهم يحملون حقلاً دفيناً على فكرة الوحدة العربية ويخشونها . هذه الأقليات كذلك مسنودة كما قلت بقوة منظمات دولية . ومسنودة بقوة سلاح . ومسنودة بترتيبات اقتصادية . إذا كنا لانعى ذلك . فيجب أن نعيه . كل هذه الأقليات على مدى كل العالم العربي ، علنا وسرا . مسنودة بهذه القوى .

أغنياء وفقراء :

وعندما نتحدث عن الوحدة العربية كلما يرتفع صوتنا عن الوحدة العربية بقوة كلما تفتح قنوات المساعدة لتقوية هذه العناصر الأقلية الموجودة بيننا . إذن هذه صعوبة من الصعوبات نطرحها قبل أن نستعرض العمل العربي الموحد .

النقطة الثالثة من الصعوبات .. أن العالم العربي الآن فيه قوتين اقتصاديتين قوى تستمتع بكل الرخاء . وقوى بكل الشقاء . هناك طبقتين . بلدان في يدها كل شيء اقتصادياً . وبلدان لا تملك أي شيء . ومثال ذلك السودان ومصر من البلدان الفقيرة .

فى شهر واحد حضرت المنتدى العربى فى عمان ، بعض الأخوان الموجودين هنا حضروه . فى مرحلة من المراحل دار النقاش بيننا حول مبلغ . أحد الأخوان كان يتحدث عنه باعتباره مبلغ تافه ليس له قيمة . الأخ عبد اللطيف الحمد . المبلغ هو ٤٠٠ بليون دولار . حصلت عليها البلاد النفطية بين ١٩٧٨ و١٩٨٢ وأن هذا المبلغ وظف ١٠٪ فقط منه فى البلاد النامية بين أفريقيا وآسيا والـ ٩٠٪ الأخرى منها ٦٣٪ ذهبت إلى أمريكا . و٢٧٪ إلى إنجلترا أو غرب أوروبا .

وكنا نقاشهم لماذا وجهتهم ٩٠٪ من هذه الأموال لأمريكا وأوروبا . فقالوا لأنها بلاد مستقرة وأن عوائدنا من هذه المبالغ تعود على اطمئنان . فأموالنا هناك مأمونة . ليس هناك تأمين أو تلاعب . وعائلاتها وإن كانت ضعيفة إلا أنها مأمونة . أما أنتم فغير مأمونين . فقد تصيبكم حالات جنون فتقومون بثورات وتؤممون وتصادرون وغير مأمونين .

وفى الحقيقة وجهت سؤالاً : هل تستطيع يا أخى عبد اللطيف الآن أن تسترد ٥٪ من المبلغ الموجود فى أمريكا أو فى إنجلترا ؟ فقال لا لا يمكن . فقلت إذن الآن أنت أصبحت عبداً لأمريكا ولإنجلترا بهذه الأموال . لا تستطيع أن تستردها ولا تستطيع أن تسترد أى نسبة منها . بينما أنت تستطيع أن تستردها منى أنا الفقير بحكم القرابة والدم والعلاقة . وتكون قد ساندتني اقتصادياً . وملكنتى بها . فأنا لأقاومك . وهناك أشياء كثيرة بيننا تجعلنى أريد لك أموالك . حتى لو أصابتني ساعات هستيريا وجنون . فأرجع لعقلي مرة أخرى . وأقدم لك حقوقك . وحدث ساعات هستيريا وجنون فى مرحلة من مراحل تاريخنا . ولكن عدنا وعملنا موثيق وأعدنا الأموال . ولكن هل نستطيع أن تسترد ما أصبح الآن جزءاً من نظام مالى قوى مؤسس فى أمريكا وفى إنجلترا . لا نستطيع لا فى هذا القرن ولا فى القرن القادم .

هذه القوى الاقتصادية المتميزة . وهذه الأفهام المتميزة . أموال بهذه

الأحجام عند البعض . وفقر كما هو موجود عندنا وعندكم في مصر . هذه صعوبة كذلك من الصعوبات التي يجب أن تطرح للنقاش عندما نتحدث عن الوحدة العربية .

إذن هذه واحدة من الصعوبات الموجودة ، ولا بد من بحثها بطريقة جادة . فإذا كنا نقول الشمال الغني والجنوب الفقير ، وأن أوروبا وأمريكا أغنياء ونحن فقراء وبائسين في آسيا وأفريقيا ، ويجب أن نبحث عن قاعدة لحل مشكلة الديون التي يرهقونها بها . فمن الأولى أن نبحث عن وسائل لتقارب فيما بيننا .

والخلافاً الحزبية :

الصعوبة الرابعة كذلك . والتي يجب أن نضعها موضع البحث ، هي السيطرة السياسية لأحزاب معينة لها وجهات نظر . فبصراحة ، مثلاً الآن . البعث العراقي والبعث السوري . وهما فكرين من أصل واحد ، ولكن هل الآن تستطيع أن تُجلس السوري والعراقي ليتفاهما معا . تلك واحدة من الصعوبات الآن . كيف نضع البعث العراقي مع البعث السوري معاً ؟ هذا نموذج ، وهناك أحزاب أخرى في أماكن أخرى ، وهناك أنظمة ، كالنظام الديمقراطي في السودان ، هناك ١٧ حزبا . عندنا حزب الأمة والحزب الاتحادي والجبهة الإسلامية الديمقراطية و٧ أحزاب جنوبيين ، وعندنا حزب البعث السوري وحزب البعث العراقي وعندنا اللجان الثورية ، والحزب الاشتراكي الإسلامي . وتقريبا كل الأحزاب المصرية هنا لدينا منها هناك ، كالحزب الناصري . وحزب العمل . وحزب العمال والمزارعين والعمل الاشتراكي . كل هذا موجود . وكل هؤلاء يعتبرون أفكارهم أفضل من أفكار غيرهم . صحيح أن هناك أنظمة ديمقراطية فيها هذه الصعوبة . وحين نتحدث عن موضوع توحيد العرب . نجد حزبا يقول نحن لدينا منطلقات أخرى فاللجان الثورية عندها الكتاب الأخضر ، والوحدة العربية إما تكون طبقا لما جاء في الكتاب الأخضر وإلا فلا . وهكذا .

وهناك أنظمة شمولية أخرى ، عندها رئيس واحد وله رأى واحد ، وإذا قال فختامه مسك ، وهناك أنظمة ملوكية .. ملوك متريعين على العروش وهم أصحاب دماء لها رأى معين .. وهكذا .

وهناك أنظمة أخرى مابين بين . شىء من الديمقراطية و شىء من الشمولية . إذن ، فلك واحدة من الصعوبات .. هذا العالم العربى يوج بهذه الأشكال المختلفة من التنظيمات السياسية . ومن القدرات السياسية . هذه القدرات والابتكارات السياسية الهائلة . كيف تستطيع أن تجمع بينها على حد أدنى من التفاهم ؟ هذه صعوبة من الصعوبات . أنا أقول بصراحة إننا مختارين أمامها .

إسلاميون واشتراكيون :

الصعوبة الخامسة . واحدة من الصعوبات الأساسية . وهى عندنا مثلا فى السودان . أن الرأى العام منقسم بين اتجاهين . فالرأى العام عندنا فى السودان منقسم بين اتجاهين . فعلاً أرغم الأحزاب السياسية على أن تأخذ بهذا الاتجاه أوداك . فتحز فى حزب الأمة . والاتحادى الديمقراطى وغيرهما . لانستطيع أن نواجه الرأى العام الذى يصوت لنا ويؤيدنا إلا إذا نحدثنا عن الإسلام وعن المواثيق الإسلامية وعن أشياء منبثقة من الفكر الإسلامى . بينما هنالك جهات أخرى تتحدث عن الاشتراكية . ولتروا إلى أى مدى قد تصل الأحوال . كان عندنا احتفال بالإمام الهادى زعيم الأنصار . الذى قتله القميرى ودفنه فى محل . وبعد عناء سنة كاملة عرفنا أنه مدفون فى إحدى الغابات ، وحفر رفاقه . وأقمنا احتفالا شعبيا جامعا لكل الناس بدون تمايز سياسى . وأردنا أن نحتفل به كرجل صادم النظام الديكتاتورى وقتل مظلوم . ونحن نريد أن نكرمه . فجاء الإسلاميون وقالوا : لن نجلس مع الاشتراكيين فى أى اجتماع .

وإذا أخذنا ذلك على نطاق العالم العربي ، فهناك إسلاميين واشتراكيين والاشتراكيين أنفسهم درجات مختلفة ومتفاوتة ، إشتراكيات عربية . واشتراكيات دولية ، واشتراكيات محلية .. وهكذا .

وهذا لا يريد الجلوس مع ذلك ، وذلك لا يريد التفاهم مع هذا . ولنتظر إلى اليمن الشعبية حيث حمل الاشتراكيون وهم في حزب واحد السلاح ضد بعضهم البعض .

إذن . تلك واحدة من الصعوبات ، فكيف تستطيع أن تجمع بين هذا الشتات المنقسم بين الإسلاميين والاشتراكيين وغيرها .

التحالفات الدولية :

كذلك . أقول النقطة السادسة والأخيرة .. الارتباطات السياسية الدولية . فالآن ، البلاد العربية المختلفة ، بعضها مرتبط بالشرق وبعضها مرتبط بالغرب ، وكل من الطرفين له مصالح ، وكل من الطرفين مساق وراء هذه المصالح . وأنتم تعرفون من هو المربوط ارتباطاً كاملاً بأمريكا . ومن هو المربوط ارتباطاً كاملاً بروسيا . ومن هو بين بين يتلاعب على الحبلين . وهكذا .

هذا . كذلك . نوع من الخلاف الذي يؤثر على قضية العمل العربي الموحد .

الواقع يا إخواني . واقع العالم العربي الذي ذكره الأخ عبد الوهاب الزنتاني . هو كذلك في مجمله واحدة من هذه الصعوبات ، فالعراق متورط في حرب مع إيران . لبنان بؤرة من النيران ، جنوب السودان فيه قتال . المغرب يقاتل في بقعة في الصحراء . وتختلف معه الجزائر . وليبيا حول موقفه من الصحراء وهكذا ، متورطين في مشاكل كثيرة جداً هي نفسها تشكل واقع . وهو نفسه يشكل أزمة من أزمات الاتفاق العربي .

إذن يا إخواني . نحن الآن نريد كخطوة أولى أن نجتمع الحكماء العرب
ليناقشوا هذه الصعاب - في نظرنا - بهدف أن نجد حلاً أدنى من الاتفاق .
هذا الحد الأدنى في طموحنا يحقق التالي :

- ١ - كيف نخرج مصر من ورطة كامب ديفيد .
- ٢ - كيف نجتمع بين متناقضات الأنظمة العربية نفسها . ابتداء من سوريا
والعراق إلى الخليج .. إلى .. إلى .. إلى السودان وإلى المغرب ؟
- ٣ - كيف ننظم القدرات الاقتصادية فيما بيننا قبل أن نلجأ إلى خصومنا ؟
- ٤ - كيف ننسق بين ارتباطاتنا العربية مع الشرق والغرب بشكل يحفظ
مصلحتنا العربية قبل مصالح هذه الدول ؟
- ٥ - كيف نصنع حلاً عسكرياً استراتيجياً يحمي مصالحنا ويحمي قدراتنا في
هذه المنطقة ؟ خصوصاً وأنه في عالم اليوم إذا ما عرف أن ليس عندك
هذا الحد الأدنى من القوى العسكرية فأنت لاتساوى شيئاً في عالم
السياسة الدولية . ونحن بحمد الله عندنا قوى عسكرية . ولكن كيف
نرتب هذا الحد الأدنى من التنسيق العسكري فيما بيننا لنحمي أنفسنا .
ولنجعل أنفسنا قيمة في المجال الدولي ؟
- ٦ - كيف نوفق بين آرائنا المختلفة حول الوحدة الإسلامية والوحدة العربية
والتعامل مع من هم يشتركون معنا في العقيدة ولكنهم ليسوا عرباً ؟
كيف نوجد علاقة . فهم خط الدفاع الثاني بالنسبة لنا في المجال
الدولي ؟ كيف نوفق بين مصالحنا ومصالحهم . ونوجد هذا الحد الأدنى
الذي يحمينا في المجال الدولي ؟
- كيف نعيد النظر في التنظيمات العربية . كالجامعة العربية والمنظمات
المنبثقة عنها . كي نجعلها فعالية ؟

آسف . فقد أطلت . ولكن يا إخواني في نظري أن هذه القضية . قضية
هامة . ولقد كانت لدى ارتباطات كبيرة وقوية في عدة محلات . وأثرت أن
أهرع إلى هنا لأستمع ولأفكر . لأننا في طريق ترتيب ما يمكن أن ينظم

العمل العربي الموحد وآمل أن أراكم عندما نرتب أمورنا في هذا المجال، أرى
كل من يستطيع أن يكون معنا في الخرطوم . لنستطيع أن نبني هذا البناء .
الذي نطمح في أن يكون بداية لعمل عربي موحد .
وأشكركم على حسن الاستماع . وسعة صدر المنصفة . وآسف على
الإطالة .

تجربة العمل العربي الموحد في ٦ أكتوبر كيف نستعيدُها في الأوضاع الراهنة؟

كلمة الدكتور : محمد حسن الزيات

سيداتي وسادتي :

اسمحوا لي أن أبدأ هذا الحديث بتقديم أصدق الشكر إلى الهيئتين اللتين قامتا على تنظيم هذه الندوة . فإن اختيارهما لموضوعها . وللمشاركين فيها . قد أتاح للقاهرة أن تشهد صباح أمس افتتاح ندوة ترقى إلى أعلى ما ترقى إليه الندوات السياسية والفكرية في العالم كله . الأستاذ الصديق أحمد خمروش والأستاذ الصديق عبد المجيد فريد يستحقان حقيقة أن نسجل لهما هذا الفضل وأن يستريدا منه .

لقد أحسست بالحرمان حقيقة لأن انعقاد مجلس الشعب في جلسات صباحية ومساءية هذا الأسبوع قد حرمني من حضور جلسة مساء أمس وجلسة صباح اليوم وأنا أعتذر مقدما إذا كنت سأكرر ما يمكن أن يكون قد قيل خلال هاتين الجلستين .

سيداتي وسادتي

في أحد التقارير السنوية التي بدأ مستشار الأمن القومي في البيت الأبيض الأمريكي إعدادها منذ عام ١٩٧٠ . عن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية . لتقديمها بتوقيع رئيس الجمهورية إلى الكونجرس الأمريكي فقرة جاءت تحت عنوان (الشرق الأوسط) قرر فيها واضع التقرير أن في هذه المنطقة مشاكل عديدة منها المشكلة العربية الاسرائيلية ثم قال إن أهم ما ينبغي أن يشغل اهتمام بلاده بشأن هذه المنطقة هو ملاحظة أنها أول منطقة من مناطق العالم

المسمى بالنامى (أى فى الحقيقة المتخلف) التى توفر فيها الآن رأس المال اللازم . كما توفرت فيها الخبرة الفنية الضرورية . وأن اجتماع هذين العنصرين من عناصر التنمية فى المنطقة جدير بأن يخرجها قريبا من عداد الدول النامية (أو المتخلفة) إلى عداد الدول المتقدمة . ونبه التقرير إلى أن حكومة الولايات المتحدة مطالبة بأن تستعد للتعامل مع هذه المنطقة فى عهدىها الجديد المنتظر بشكل جديد وأن تعيد بناء على ذلك رسم خطط تعاملها معها فى ميادين السياسة والاقتصاد والتشريع .

تلك كانت فقرة كتبها أستاذ العلوم السياسية على أساس ما كان أمامه من إحصاءات وخرائط وأوراق - تلك كانت نتيجة من نتائج الدراسة النظرية لموارد وإمكانات المنطقة . ولكن أستاذ العلوم السياسية عندما انتقل إلى موضع تنفيذى وهو موضع وزير خارجية الولايات المتحدة قد تكشف له الخطأ الأساسى الذى وقع فيه عندما كتب تلك الفقرة . تكشف له الحقيقة - المخزنة - وهو أنه لا توجد منطقة متماسكة متكاملة اسمها المنطقة العربية أو منطقة الشرق الأوسط وأن رأس المال الذى وجد فى بعض أماكن هذه المنطقة لا يرتبط مع عنصر القدرات الفنية الموجودة فى أماكن أخرى إلا تكاملا ضئيلا عشوائيا وأن الواقع هو أن المنطقة لا تعرف وحدة التخطيط والتنفيذ ورأس المال موجود فى أماكن منها وتوجد القدرات الفنية فى أماكن أخرى وحيث يوجد رأس المال لا تتوفر القدرات اللازمة وحيث توجد القدرات الفنية لا يوجد رأس المال الكافى .

وقبل كل ذلك وبعد كل ذلك فإنه لا توجد الإرادة السياسية الضرورية لاستهداف العمل الموحد .

وأصبح من الواضح أنه لا توجد فى الواقع ضرورة ملحة أو حتى غير ملحة للاستعداد للتعامل مع هذه المنطقة بعد خروجها من مناطق التخلف . لأن حقائق الواقع تدل على أن هذا الخروج سيتأخر وقتا طويلا . ليست هناك ضرورة إذن للاستعداد لاستقبال المنطقة فى دنيا الشعوب التى كسرت طرق التخلف .

كما أنه ليست هناك ضرورة ولا حكمة في التعامل مع هذه المنطقة باعتبارها وحدة . ولا للتعامل مع أقطارها بنفس المعاملة وأن الحكمة هي في التعامل مع عدد من أقطار هذه المنطقة بشكل فردي وعلى أساس قيمتها في ميزان المصالح مع الاطمئنان التام إلى إهمال مافي المنطقة من مشاكل ومساائل حتى نخل على مهل ودون لفة على الوصول إلى أى حلول .

في الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣ كان وزير الخارجية الأمريكية يقول إنه سيذهب إلى الصين حيث توجد مسائل هامة يتباحث بشأنها هناك ثم سيذهب إلى أوروبا حيث كان ينوي أن يعلن سنة ١٩٧٣ باعتبارها سنة أوروبا ثم سيعود إلى واشنطن وعندئذ سيطلب ملف الشرق الأوسط ليفتحه ويبدأ القراءة فيه على مهل وفي الهدوء المطلوب .

وعندما وقعت مفاجأة السادس من أكتوبر أسرع وزير خارجية أمريكا يتصل بملوك المغرب والأردن والسعودية ... وهنا كانت المفاجأة .
إننى أعتقد أن أكبر مفاجأة حرب أكتوبر ١٩٧٣ هي اكتشاف أمريكا في هذه الاتصالات وجود وحدة للعمل العربي .

- ٢ -

كانت المفاجأة هي وجود أو قيام عمل عربي سياسى موحد . ثم كانت مفاجأة أخرى هي وجود عمل اقتصادى عربي موحد فيما يخص البترول والأموال العربية .

ولا يزال الباحثون حتى اليوم يبحثون عما إذا كانت الأقطار العربية قد رسمت وخططت فعلا لهذا العمل العربي الموحد أم أن ما حدث كان مجرد انفعالات ومصادفات .

وحدة العمل العربي السياسى في خريف ١٩٧٣ كانت مفاجأة .
ووحدة عملهم الاقتصادى كانت مفاجأة .

• وكذلك كانت التصرفات في الأموال العربية لصالح العالم العربي المشترك .
• وكذلك كان تضامن العرب في اكتساب تأمين دول أوروبا وآسيا وأفريقيا في داخل الأمم المتحدة بحيث وقع أمر حذر كسنجر من وقوعه وهو وحدة أمريكا وإسرائيل أمام العالم . وفي دنيا السياسة كل فعل له رد فعل مضاد مفاجأة العمل العربي الموحد وفعاليته في حرب ٧٣ استدعت رد فعل مضاد وجاد لمواجهة هذا العمل العربي الموحد والحيلولة دون وجوده في المستقبل وتحقيق نجاح العمل المضاد .

نحن الآن في عام ١٩٨٧ بعد أكتوبر ٧٣ بأربعة عشر عاما وحدة العمل العربي لا وجود لها . الأقطار العربية ليست متباعدة فقط ولكنها متباغضة .
• العالم الصناعي لم يخش شيئا فيما يخص البترول العربي لأنه قد اخترن في أرضه ما يحميه من كل مفاجأة .
• الأموال العربية تحرق يوميا في حرب الخليج وفي مغامرات تشاد .
• أموال العرب في المستقبل قد أصبحت شبه مرهونة فإنه عندما تتوقف حروب اليوم ستبدأ أعمال إعادة التعمير وإعادة التسليح ولن يتيسر ذلك إلا بقروض من خارج المنطقة .
• وإذا ما كان كل فعل يستوجب رد فعل ملائم فما هو رد الفعل المطلوب من العرب القيام به اليوم إزاء هذا الموقف المتردى .
• واضح أن على العرب اليوم أن يستهدفوا الوصول إلى وحدة العمل العربي في كل الميادين على أنه إذا كان تحديد أهداف سهلا فإن من العسير حقا تخطيط الطريق للوصول إليه .
• ومن هنا أهمية ندوتكم وندوات مثلها .
• سيلاتي وسادتي :

في الأوقات الحاضرة وفي بلادنا المختلفة تظل السياسة هي فن الممكن فما هو الممكن الآن :

أولا : التواصل الثقافى بالفنون والمسرح والغناء والعلوم .

هذا تواصل لم ينقطع أبدا . هذا هو الأساس الثابت للعمل العربى الموحد منذ ألف عام قام أبو الرخان البيرونى بالرد على الشعوب فقال إنه من بيرون - من تركستان من بلاد قالوا إن ثقتها لو كتب فيها علما لاستغرب استغراب الزراخه فى الميزاب .

« وقال إن العروبة ليست دماء ولا نسبا ولكنها لغة وأدب وعلم من أنشأ فيها وتلقن علومها وأنتج فى لغتها فهو العرب .

وحيثا كان محمود عزمى يفضل تعبير بلاد العربية على تعبير البلاد العربية يعنى أن اللغة هل العنصر الأهم فى هذه المنطقة .

علينا أن نشجع كل تواصل وتعاون وتداول وتبادل فى هذه الميادين وهذا متيسر وهو قائم إلى حد ما ويتصل نشاط الجامعات فقد يمكن النظر مثلا فى تقليد السنة الثالثة التى يقضيها طالب الجامعة العربية فى جامعة عربية أخرى ويحتسب له نجاحه فيها فى جامعته الأولى .

ثانيا : يتصل بذلك النشاط العربى فى ميادين الهيئات والتقابات والاتحادات .

ثالثا : الاتحاد البرلمانى العربى كان موجودا وإحيائه عمل جدير بكل ما يبذل فى سبيل ذلك .

رابعا : النشاط المشترك فى ميدان هام وهو ميدان التسليح . فإن دول الشرق الأوسط هى أكبر دول مستوردة للسلاح وعودة هذا التصنيع لتعمل فى إطارها العربى السابق هو خطوة فى سبيل العمل العربى الموحد .

« هذه خطوات مبدئية أو ابتدائية يعززها خطوات أخرى هى تلقين الشباب فى كل مكان أهمية العمل العربى الموحد بكتاب مبسط يتاح لطلاب المدارس والجامعات بقدر الإمكان .

« وللعمل العربى الموحد بعد ذلك نماذج مختلفة يمكن أن تجريبه وأن تتدرج فيها على مثال اتحاد دول اسكندنافيا .

لقد ذكر أن إسرائيل ستدير ندوة حول هذه المعركة وما يتصل بها من أمور
جسام .

لقد درس الصهيونيون من قبل كيف زالت ممالك الصليبيين في فلسطين .
لقد انتهوا إلى أن زوال حكم الصليبيين كانت له أسباب من أهمها أسباب
ثلاثة :

أولا : انقطاع صلة المستعمرات الصليبية بالمصادر التي كانت تمدّها بالقوة والمال
خارج فلسطين . والصهيونيون مصممون اليوم على ألا تنقطع أبدا
صلاتهم بالمصادر التي تمدّهم اليوم بأسباب القوة والمال من خارج
فلسطين .

ثانيا : اهتزاز العقيدة الصليبية في ضرورة إقامة مملكة للصليبيين في فلسطين لأن
مملكة المسيح هي في القلوب والرءوس كما سمعنا وليس في أرض الآخرين .
والصهيونيون اليوم مصممون على أن تكون عقيدة التجمع في أرض
الميعاد تنوِّجا لتعاليمهم في كل العصور وكل البلاد : العالم القابل في
القدس .

وتعصّبهم هذه العقيدة يقوّي ولا يضعف ويدعو إلى التجمع لا إلى
التفرق .

ثالثا : وهذه نقطة تستحق منا الكثير من التأمل لقد أضعف الصليبيين في رأى
الصهيونيين أنهم فتنوا بما وجدوا في المنطقة العربية من حضارة وعملوا
على نقل بعض معالم هذه الحضارة إلى بلادهم واعتقدوا بإمكان التعاون
وتبادل النفع بين الأراضي الأوربية ومنطقة الشرق . والصهيونية اليوم
حريصة كل الحرص على أن تبين للعالم الغربي أن الإسلام مانع ضخم
من موانع التفاهم والتواصل وتبادل النفع مع أي عالم سوى عالمه وأن
الطريقة الوحيدة للتعامل مع العالم الإسلامي هي في التباعد إذاعة تكن
في التصدي* واختصاصه .

سيلاتى وسادتى : -

علينا ونحن نذكر حطين ألا نخلد إلى الأمل فى أن ما كان سوف
يكون . علينا ونحن نذكر حطين أن ندرس كيف كان النصر لنعمل كما
كانت أوائلنا تعمل ونصنع مثلما صنعوا . على مفكرينا وساستنا والمهتمين
بمستقبل بلادنا وعلى شبابنا وعلينا نحن أيضا أن ندرس ماتقدم من تاريخنا
قديما وحديثا لاختيار الطريق الذى نسلكه لتحقيق العدالة أساسا
للسلام ولتحقيق السلام أساسا للتقدم .

لقد ساهم العرب من قبل فى مسيرة موكب الحضارة خير مساهمة .

ونحن الآن قادرين على أن نعود مساهمين مجتمعين فى موكب الحضارة من

جديد .

اختراق الأمن القومي العربي نظرة معاصرة

كلمة: الدكتور عصام عيد علي - العراق

أيها الأعزاء

استبحوا لي أولاً أن أثنى بتقديرى على هذه المبادرة الرائعة من اللجنة المصرية للتضامن ومركز الدراسات العربية في عقد الندوة احتفالاً بمرور ثمانية قرون على معركة حطين وانتصار صلاح الدين على قوى العدوان الأجنبي بإرادة الأمة العربية ووحدتها ووعيتها .

والعمل العربي الموحد الذى نتحدث عن قضيته اليوم لا ينقطع عن التاريخ بل يتفاعل معه ويتحقق في ذاكرتنا حقيقة ساطعة تقول إذا كان التاريخ لا يكرر نفسه بالتفاصيل والأحداث فإنه يخطئ في اعتباراته العامة وأحكامه وفي تفسيراته الصائبة لأحداث الحاضر والمستقبل من خلال الوعي بحكمته وتجربته الفنية .

وللعراق القيادة والشعب مع بطولة صلاح الدين وبطولاته أواصر حب وأجناد وذكريات ذات معنى خاص تتجدد في الضمير والوجدان، يستعيدوها العراق معطرة بالحب والفخر ومصممة بالدم والشهادة والصمود . فالبطل صلاح الدين ولد في أرض العراق في تكريت وهو واحد من أبنائنا النجباء وإذا كان الجندي العراقي المقاتل ابن البصرة وكربلاء لا يجد الوقت في ساحة القتال والدفاع لاستعادة تفاصيل بطولته وحياة صلاح الدين فهو يستحضرها في كل لحظة ويعي حقيقة المسؤولية الملقاة على عاتقه للدفاع عن التاريخ البطولي للأمة العربية والدفاع عن مبادئ صلاح الدين وأجاده من أجل أرض العرب وشرفهم ووجودهم . وصلاح الدين ليس حالة طارئة أو معجزة ظهرت من فراغ . إنما هو ظاهرة صحية وإبداع وانتماء وبطولة ترعرعت في أرض العرب لتعبر عن ضمير

العربي ووعيه وانتائه . وكان هو الرمز والتعبير الحقيقي لأصالة الأمة وقدرتها على الصمود والدفاع عن نفسها أمام انخاض والتحديات .

وليس الأمر مصادفة أو اعتباطاً أن تسمى قيادة العراق وهي تشكيلات وفيالق باسم صلاح الدين يواجه رجاءها بصدورها الخطر الناهب من الشرق من أرض إيران مستهدفاً الحدود الشرقية للوطن العربي حاملاً الموت والدمار لأمة العرب وتاريخها ووجودها .

وإذا كان صلاح الدين موجوداً في كتب الروايات والتاريخ والأحداث بطلاً وقائداً وصورة رائعة في المكتبات ودور الكتب فهو موجود أيضاً في خط النار .

وفي الجبهات الأمامية مع المقاتلين العراقيين في شرق البصرة وبيضان ومنذ طوداً شامخاً في كل خندق قتال وراية فخر ترفعها هامات الرجال تؤكد حقيقة لا تقبل الشك تقول :

إن الغزو الأجنبي الذي جاء من الغرب قبل ثمانية قرون باسم صلاح الدين عاد ثانية بثوب جديد وباسم الدين قادم من الشرق يستهدف الأمة وافوية والانتماء .

إن هذه الجحافل التي تضم أبناءكم وإخوانكم من شباب العراق وكهوله تلتفع اليوم عن البصرة مدينة الجاحظ والفراهدى وتقسم أن تبقى مدينتكم بغداد مدينة المنصور والسلام والخضارة وراعية القيم والأفكار عن تاريخ صلاح الدين وقلاع وأرض ميلاده .

وهذه الجحافل فخورة بقدرها أن شرفها الأمة بمسئولية الدفاع عنها في غياب العمل العربي الموحد وانهار مؤسساته وفقدان التقاليد الأصيلة لمعنى المواطنة والانتماء ووحدة المصير وهي تشعر بالفخر أيضاً لأنها لا تقاتل الغزاة القادمين من الشرق باسم الدين فقط وإنما تقاتل المهزومين الناكثين للعهد الذين يكذبون على الله والحقيقة والتاريخ ويتحدثون عن الأمة العربية والأمن العربي

القومى والعمل العربى الموحد ويطعنون حدة القدين من الخلف ويعملون على اختراق جداره وانهاره .

أيها السادة :

لقد ملأ الحديث عن العمل العربى الموحد مجلدات وكتبا وقامت حوله نظريات وأبحاث ولست هنا بصدد البحث فى تفاصيل المسلمات والثوابت فى العمل العربى ولكنى أجد لزاما على أن أستعيد أمامكم أسسها بعد أن تعرضت هذه الثوابت للاهتزاز والاختراق على الخارطة العربية .

والذين بدأوا حياتهم السياسية فى الخمسينات وما بعدها يتذكرون بمسيرة الآمال والمطامع القومية أيام النهوض القومى وعبد الناصر وصحوة الجماهير العربية ومواجهة التحدى الصهيونى والامبريالى ووحدة الشعب العربى الحقيقية فى الانتماء والمواجهة والصمود وتهون المطامع فى هذه الأيام العصية ونحن نبحث عن أمل وعن أرضية جديدة للدفاع عن العمل العربى الموحد نظريا وتطبيقا وأصبحنا نحتم مرة أخرى برد حاسم بالجامعة العربية ومؤسساتها وبكلام عام عن التضامن العربى .

وعن لقاء للأنظمة على نقطة لقاء واحدة يعرفون من خلالها بداية الطريق نحو النور .

إذا خط المسائل التى يتعرض لها العمل العربى الموحد اليوم أن أكثر الأنظمة النظرية التى تحكم الأرض العربية لا تبحث عنه وتحاف من حقيقته وترى حياتها مرسومة ولقد كان فى الماضى تناقض بين ما هو قومى ونظرى ولكننا اليوم حالة صدام وتقاطع بينهما .

وكان هناك إيمان عميق بالأمن القومى العربى بكونه حيط حاميا للأراضى العربية وللأنظمة ولكن هذا الأمن القومى العربى تتساقط أسسه وقواعده على صعيد السياسة والسلوك .

وتغيب معه النظرة العربية المستقبلية وينهزم الفكر وتعرض الثقافة وتعاليمها إلى

أكثر من اختراق في المفاهيم والتحليل ويصبح العدوان على شعب عربي في العراق من قبل عدو أجنبي نظام غير عربي مسألة تقبل التأويل وينتقل الشقيق إلى موقع العدو غير مكترث بالخطر الداهم الذي قد يأتيه غدا في عقر داره .

إن أية بداية لعمل عربي موحد على صعيد الشعب أو على صعيد الأنظمة لابد أن يبدأ باحترام بل تقديس الثوابت القومية في الحفاظ على الأرض العربية والقومية العربية والوجود العربي وتحديد مواطن وأبعاد الخطر الداهم.

وهنا لابد أن تؤكد من الثوابت على دور مصر .. مصر النضال والخضارة والنهضة ضمانة العرب في الحاضر والمستقبل .

أيها السادة : يدعون إلى أن نبحث من جديد عن ميثاق شرقي عربي على صعيد المنظمات والجاهير والأنظمة يحمي كل عربي يلدغ عن الشام والقدس ولبنان والعراق وطرابلس يحقق الضمانات الحقيقية لأجيال العروبة القادمة لتعيش سيدة على أرضها وتراها .

وهنا لابد أن أؤكد معكم ما أعلنه قائد العراق الرئيس صدام حسين قبل أن تشتعل الحرب ويقع العدوان الإيراني حيث كان الإعلان القومي الذي دعا إليه العراق دفاعا عن أرض العرب من الخليج إلى المحيط لمواجهة الأخطار ولكنه مما يؤسف له أن أغلب الأنظمة القطرية كانت غارقة في أحلامها عايشة بمخاطر المستقبل إلى أن داهم الخطر بيوتهم وحياتهم .

إن الدعوة اليوم إلى ميثاق شرف عربي للدفاع عن الأمة ضرورة مصيرية بداية لابد منها للخروج من المأزق قبل أن يغطي السيل الداهم أرضا واسعة من خارج الوطن العربي .

أيها السادة :

نحن في العراق القيادة والشعب نعيش قضية العمل العربي الموحد وضرورته كل لحظة وندافع عنه بالدم والشهادة وثق أيضا في أن قلوبكم معنا وسيوفكم على

البعد معنا ومع الحق ولو أنها في أغمارها وساحة الشرف في الدفاع عن بغداد
والقدس مطرزة بدماء الشباب وأمجادها .

فقد قدر للعراق مرة أخرى أن ينافع عن تاريخ صلاح الدين وحطين من
جديد .

إنه أمل أن يولد العمل العربي الموحد رغم كبر التضحيات في المستقبل الذي
نتظره يستحق التضحية والفداء .

الغزوة التي واجهها صلاح الدين تذكر اليوم بشكل أشرس وأعقد

كلمة الأستاذ : عبد الوهاب الزنتاني
نائب رئيس منظمة التضامن
بليبيا

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة والأخوات .

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

يسعدني أن أتقدم بالشكر والتقدير والثناء إلى إخواني أعضاء اللجنة المصرية للتضامن وإخواني في مركز الدراسات العربية بلندن على هذه الفرصة الطيبة ..
أشكرهم أولاً على دعوتنا للمشاركة في هذه الندوة وهو مانعتر به .
وأشكرهم ثانياً على ما بذلوا من جهد في ترتيب وتنظيم هذه الندوة المهمة .
وأشكرهم ثالثاً على فرصة اللقاء بهذا الجمع الكريم الذي يشارك في هذه الندوة
ولقد أسعدني أن أسمع الذين تحدثوا في جلسة الافتتاح وماتلاها . ولأخفى
إعجابي بحديث قداسة البابا شنودة المسهب والمركز ، وهو حديث يليق برجل
دين له مواقف شجاعة ، خدمة للحق والعروبة والدين .

• أيها الإخوة والأخوات .

أستميحكم في أن أعرج قليلاً على موضوع العمل العربي الموحد لأنني أعتقد
أن حطين وصلاح الدين قد حازا على الجزء الأكبر من البحث والمناقشة ، وربما
يكون أخي عصام قد أعفاني من الحديث والخوض في وضع النظم العربية ،
والمواقف العربية ، والتناقض العربي ، وإن كنت أزعم أننا نأمل من هذه الندوة
أن تنتهي إلى بيان أو نداء يضع النقاط على الحروف وينبه إلى ما يحيط بالوطن
العربي ، ويدبر للأمة العربية . فكيف نرى خريطة الوطن العربي ؟

أمر مروراً سريعاً فأقول إننا نرى أن هناك في الجزيرة العربية من حاول أن يتزوى في ركن قضى . قد يمكن تسميته بنادى الأغنياء . ولم يتبها إلا وطيّب نار الحرب يلامس أطراف لحافهم . فاندفعوا يشترون السلاح المتقدم الذى قد لا يستخدمونه على الإطلاق ، ويصرفون الأموال التى كانت مقدسة خوفاً من فيب النار . ونرى قريهم العراق وقد فرضت عليه حرباً مدمرة . أو هو دفع إليها . بدأت تأكل الأخضر واليابس ولا أمل فيما نتصور على إنهاائها . ونرى إخواننا فى عدن وقد تقاتلوا فيما بينهم . قدموا ماتوا بلبلد . وهو قليل . ونجد لبنان الذى كان بلداً مستقلاً وواحة للديمقراطية قد وصل فيه دمار الحرب الأهلية إلى العظام ، وأصبح مجموعة من الكانتونات أو عدداً من الجيوش التى تسمى مليشيات . وقد يظهر فيه عدد من الاعلام والانشيد الوطنية . ونلاحظ أن سوريا وقد فرض عليها ربما أمنها الوطنى - أن تتدخل فى لبنان . فتشغلها مشاكله إضافة إلى مشاكلها . ونجد أن مصر وقد أحاطت بها الصعاب . وأرادوا أن يدبروا لها مؤامرة دينية طائفية تمزقها - لا قدر الله - مصر التى رضعنا من أرضها . واستفدنا بعلم رجالها . واستظللنا بظل مناضليها . فوجب علينا أن نقول : حياك الله يا مصر من كل المؤامرات لأنك قلب الوطن العربى ورأس الأمة العربية . ثم نلاحظ أن السودان صلة الوطن العربى بقارته الأفريقية قد تقاتل جنوبه مع شماله . وقد تنبت فى ظهره إسرائيل سوداء ونجد أن ليبيا قد انحشرت بين البحر والصحراء . بين تهديد أمريكى وتدخل سافر من جانب ومؤامرات فرنسية من الجانب الآخر - ثم أيها الإخوة والاخوات - يتبين لنا بقية المغرب العربى وقد أنهكه الصراع حول قطعة من الأرض قد لا يكون فيها زرع ولا زراع . ثم نجد أن إسرائيل تتقدم كل يوم وتخطط لكل شىء وقد دخلت عصر الفضاء والذرة .

ويذكرنا التاريخ أن الغزوة التى واجهها صلاح الدين تكرر الآن بشكل أشرس وأدوات تدمير أعمق . فما هو العمل ؟.

أيها الإخوة :

أجزم أننا في حاجة إلى وقفة مع النفس . وفي حاجة إلى سياسة عقلانية
تتعامل مع الواقع وتدرك المتغيرات ، وأننا في حاجة إلى أن نلتقي على الحد الأدنى
من التفاهم لنناقش فيما بعد ماختلف عليه .

إننا يجب أن ننادي بإيقاف حرب الخليج ، ويجب أن نطالب بعقد مؤتمر
عربي يوقف الحلاف العربي والتقاتل العربي ويضع استراتيجية للعمل العربي .
وإذا كنا قد انتشينا بانتصارات وبطولات صلاح الدين ، ودغدغ مشاعرنا
تاريخ النصر ، فرمما أمكن للحكام العرب أن يتناسوا خلافاتهم ويستفيدوا من
التاريخ . فيقدموا عملاً يذكرهم به التاريخ من أجل الوطن والأمة .

أيها الإخوة والأخوات :

ذلك بعض مايجب أن نقوم به والله الموفق .
والسلام عليكم ورحمة الله .

التنمية في مواجهة التخلف ، بداية الحل

كلمة الدكتور : محمد أحمد خلف الله

لن أطيل . فلم يكن من المفروض أن أتحدث إليكم . وكان من المفروض أن يتحدث الأخ الأستاذ لطفى الحولى . ولكن الأخ أحمد حمروش طلب ألا تخلو المنصة من ممثل للجنة المصرية ، ولو اقتصر الأمر على أن يُمثل في المنصة أحد لاكتفيت بالجلوس إلى جانب إخوانى . ولما كان لى شرف الحديث إليكم ، لكن مشكلات السودان التى استمعت إليها الآن من الأخ عبد الله أحمد حسن أثارت فى الشئ الكثير .

فنحن أولا حينما ندعو إلى عمل عربى موحد ، من المفروض أن ننطلق من الواقع العربى الذى نعيشه . ولن ننطلق من هذا الواقع إلا بعد أن نتفهم كل مافيه من مشكلات . نفعل ذلك بهدف تحسين هذا الواقع ، وعلى هذا الأساس فكل ما أثاره من مشكلات ، هى من الناحية المنهجية واجب فكرى علينا أن نسلكه قبل كل شئ .

وعندما نفكر فى المشكلات التى طرحها ، لتتخذ منها أهدافا للأمة العربية أكاد أشعر بأن الهدف الأول هو التخلف ، أو التنمية فى مواجهة التخلف فكثير من المشكلات التى أثارها ترجع فى جذورها إلى التخلف . فالعلاقة بين العروبة والإسلام إذا لم تكن مفهومة حتى اليوم ، فذلك نوع من التخلف ، والعلاقة بين الأغنياء والفقراء إذا لم تكن مفهومة حتى اليوم ، ولم يكن لها حل ، فهى نوع من التخلف ، فالواجب أولاً وقبل كل شئ هو أن نجعل الهدف الأول من أهدافنا هو التنمية ، والتنمية الثقافية بوجه أخص ، حتى تكون كل هذه المشكلات لها حلول فى ثقافتنا . بحيث تستطيع هذه الحلول أن تُقدم لكل فرد من أبناء الأمة

العربية . وبذلك تزول كثير من الحواجز أو من الخلافات التي ثارت حول هذه المشكلات .

من الأمور الأخرى التي أشار إليها . التبعية . وواضح من حديثه أن التبعية إحدى المشكلات الكبرى في الوطن العربي . وهذا يجعل الهدف هو التحرر أو الحرية : يجب أن نتحرر من هذه التبعية .

وهناك مشكلة ثالثة . هي التجزئة . ليست التجزئة السياسية فقط . وإنما التجزئة الفكرية أو التجزئة المصلحية . وهذه هدف التخلص منها هو الوحدة . ومعنى ذلك نستطيع أن نصل إلى أن أمام الأمة العربية أهدافاً ثلاثة يجب أن نسعى في تحقيقها . وكل هدف منها يحل جملة من المشكلات التي ذكرها أو التي أشار إليها .

الهدف الأول التنمية . الهدف الثاني التحرر من التبعية . الهدف الثالث الوحدة أو التخلص من التجزئة .

ولو نظرنا إلى واقع العالم العربي لوجدنا هناك من يأخذ ببعض الحلول فذه المشكلات . فمن الظواهر الموجودة عندنا أن هناك نزوعاً قومياً يدعو بعض الدول إلى أن تلتقي أو إلى أن تتحد . والظاهرة الجديرة بالالتفات أن التقديميين . أو من يسمون بالتقدميين . هم الذين يفترون فيما بينهم أكثر مما يختلف أو يفترون الرجعيون .

ففي الرجعيين نجد دول الخليج متعاونة . نجد دولة الإمارات قائمة . بينما في الدول التقدمية . لاتكاد هذه الدول تلتقي حتى تختلف مرة ثانية .

على كل . ليس معنى هذا أن التخلف عندنا أو الرجعية هو الأساس وإنما أذكر هذا لأننا في حاجة فعلاً إلى أن ندرس واقعنا دراسة كاملة . وبعد هذه الدراسة نستطيع أن نلتقي على عمل موحد . وكل عمل يستطيع أن يرضى عنه المجموع العربي بغالبية تكون له الأولوية .

ندرس مشكلات الحياة . نقترح الحلول . والحل الذي يُرضى الأكثرية هو
الذي نسعى فيه . وليس معنى هذا أن نتوقف حتى نحل المشكلات . وإنما نفكر
ونحصى المشكلات ، ونفكر في تقديم الحلول . وأى حل نتوجه إليه نقيسه
بمقياس المصلحة العامة للجماهير الأمة العربية . وعل هذا الأساس نستطيع أن
نخطو بعض الخطوات . وأقف عند هذا الحد لأفسح المجال لمن يريد أن يتحدث
من الإخوان .
وشكرا .

بيان عن الندوة

(٨٠٠ عام على حطين والعمل العربي الموحد)

إن الندوة الدولية التي دعت إليها اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية . ومركز الدراسات العربية بلندن عن (٨٠٠ عام حطين والعمل العربي الموحد) وشرفها بالحضور فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر . وقلادة البابا شنودة بطريرك الأقباط .. وشارك فيها عدد من المؤرخين والمفكرين والمثقفين العرب والأجانب وانهقدت في القاهرة خلال يومي ٢٠ . ٢١ يونيو ١٩٨٧ ... كانت تعبيرا عن رغبة عربية جارقة في استجلاء معالم التاريخ لتسليط الضوء على الأحداث والشخصيات البارزة التي أسهمت بدور مجيد في توحيد العرب لمواجهة الأعداء والغزاة والانتصار عليهم ، في وقت نعاني فيه من التمزق واحتلال الأرض العربية .

وقد خلصت الندوة خلال الحوار إلى أن الحروب التي تمت تحت اسم الصليب إنما كانت حروبا استعمارية لغزاة طمعوا في الأرض العربية .

وما كان نجاحها إلا نتيجة للتمزقات والتناقضات التي سادت المنطقة في هذه الفترة التاريخية إلى أن ظهرت شخصية البطل صلاح الدين الأيوبي الذي كان استجابة لمطالبات الأمة العربية في هذه الفترة من تاريخها وتبلورت حوله آمال وطموحات الأمة العربية والإسلامية ، فقادها إلى الوحدة التي استطاعت أن تنجز التحرير بهزيمة الغزاة واستعادة القدس بعد أن احتلت لمدة ٩٠ عاما تقريبا .

واستلهمت الندوة من التاريخ أن جوهر الصراع مازال مستمرا بين العرب وأعدائهم الطامعين في المنطقة ، وأن وسيلة النصر هي توحيد النضال العربي ضد الغزاة. الأمر الذي يستدعي بذل كافة الجهود من أجل الوحدة الوطنية والتضامن

القومى ... واعتبار ذلك مسئولية كافة القوى الوطنية والشعبية والديموقراطية .
ولتكن هذه الندوة بداية لقراءة جادة معاصرة لتاريخنا نستلهم منه
الانتصارات والبطولات . ونسلط الضوء على رموزنا القومية وقدرة أمتنا على
النضال والنصر لتتزع اليأس من النفوس وتغرس الأمل فى غد مشرق بالحرية
والتقدم .

رقم الإيداع ٨٨ ٤٤٧١
التقديم لسنة ٠ - ٢٤٤ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطالع الشروق

القائمة: القائمة موجودة في - ملف ٣٩٤٥٨١، ٣٩٤٥٨٢ - وفي - فهرست - كملز - SHOROK IN
بشركات امر ب. 7-أ - ملف ٣٩٤٥٨١، ٣٩٤٥٨٢ - وفي - فهرست - كملز - SHOROK INTL LE



٨٠ عام حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد

صلاح الدين الأيوبي ومعركة حطين .
قائد ومعركة يمثلان معاً نقطة تحول هامة في التاريخ العربى .
القائد : لم ينظر إلى المعركة باعتبارها مواجهة عسكرية ..
الفيصل فيها بين النصر والهزيمة يعتمد فقط على نوعية التدريب
والسلاح .

وإنما نظر إليها باعتبارها قضية تعبئة شاملة تقوم على دعائم
من الأعداد السياسى والاقتصادى والاجتماعى ويلعب فيها
الجانب العسكرى الدور النهائى والمباشر .

حطين : تأخذ أهميتها من كونها المسرح الذى دارت عليه
فصول المعركة بعد أن تجمعت لها كل عناصر الإعداد الجيد
والأداء الكفء من جانب .. وبالنظر إلى ما ترتب على نتائج
المعركة من انتصار عربى ، ومن فقدان الصليبيين لعدد كبير من
مواقعهم واستعادة صلاح الدين لبيت المقدس بعد ذلك من
جانب آخر .

العمل العربى الموحد : ونحن نحتفل بمرور ٨٠٠ عام على
معركة حطين (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) نستلهم من فصول
التاريخ درس الأمس فى قضايا اليوم . فالتاريخ إن كان علماً
يتصل بالماضى من حيث موضوعه فهو علم يتصل أيضاً بالحاضر
والمستقبل من حيث هدفه .

وإذا كان التضامن العربى ، والعمل العربى المشترك هو الذى
كفل نجاح الأمة العربية فى صراعها ضد الحركة الصليبية على
طول المواجهة الممتدة والعريضة معها فإن شرط العمل العربى
الموحد بظل دائماً هو الشرط الحاسم فى النجاح ضد أى مواجهة
غازية أو طامعة .. ذلك هو درس التاريخ .

شارك فى أعمال الندوة بالحديث والبحث فضيلة الإمام
الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر
وفضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى الديار المصرية وضيافة
الأبنا شنودة بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية .
والدكتور عصمت عبد المجيد نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية
ومحمد حسنين هيكل وعبد الرحمن الشرقاوى رئيس منظمة
التضامن والدكتور محمد حسن الزيات وعبد المجيد فريد والدكتور
صفى الدين أبو العز . والدكتور محمد أحمد خلف الله (مصر)
والدكتورة كارول هيلبراند بجامعة أدنبرة والدكتور مونتجمرى
وات المؤرخ البريطانى والدكتور ديفيد جاكسون بجامعة سانت
أندرو وحسين مطر (اليمن) وعبد الله أحمد حسن (السودان)
وقاسم عبده قاسم (مصر) ومنح الصلح (لبنان) وعبد الوهاب
الزنتانى (ليبيا) والدكتور عصام عيد على (العراق) .

دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣